عبد الغني العمري

التجديد الصوفي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين الهادي الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه والتابعين.

إن التصوف في عصرنا أصبح يعاني من عدم وضوح في المفاهيم، بسبب تراكم الرؤى الخاصة بالأزمنة السابقة، مضافة إلى أسئلة العصر التي يكون مردها إما إلى الأمة الإسلامية في نفسها، أو إلى ما يثيره تلاقح الحضارات من مقارنات ومساءلات فكرية وروحية.

وعدم وضوح الرؤية هذا، صار يتطلب توضيحاً يفي بالغرض. ونعني بذلك أن التوضيح لا ينبغي أن يكون من قبيل الدراسات من خارج، ولكن ينبغي أن يكون نابعاً من داخل المجال نفسه. هذا يتطلب بدوره ممارسة فعلية تؤدي إلى نتائج علمية واضحة من حيث المستند الشرعي ومن حيث الوظيفة المنهجية في السياق العام لهذا المجال الحيوي بالنسبة إلى الدين عموماً.

ومن خلال تجربتنا الميدانية، ومعاناتنا لمراحل السير في الطريق من حيث المنظور الفردي الشخصي، ومن حيث المنظور الجماعي والبيئة الخارجية معا؛ وعبر استنتاجاتنا الخاصة بكل مرحلة، أو تلك التي تتعلق بالسياق العام، ضمن البيئة الأصلية البسيطة، أو ضمن البيئة العولمية الحالية؛ تسنى لنا أن نميز أنواعاً من الانبهامات قد نجملها فيما يلي:

النوع الأول: ما يتعلق بالتأصيل الشرعي المرحلي أو العام.

النوع الثاني: ما يتعلق بمطابقة الرؤى الماضية لأئمة الطريق بالواقع الحالي. وهو ما يمكن أن نسميه بالتأصيل الثاني؛ والذي نعني به التوفيق بين قواعد الطريق التي وضعها أئمته، وما ينبغي أن يُفهم منها في هذه المرحلة من عمر الأمة على الخصوص، حتى يمكننا الحديث عن تصوف واحد عبر الزمان، وليس عن عدة أنواع من التصوف، قد تتعارض مع بعضها أحيانا.

النوع الثالث: ما يمكن أن نعده مساءلة من الفكر عموماً للتصوف بحسب السياق العام أو بحسب الرؤية المرحلية. وهذا ما يفتح الباب أمام الأسئلة الفلسفية العالقة، ويجعلنا في مواجهة معرفية مع مختلف الحضارات العالمية.

لا شك أن التصدي لكل نوع من الأنواع سابقة الذكر يتطلب كتاباً خاصاً به، حتى يمكن أن يُلم بأهم الجوانب المحدِّدة لمعالمه؛ لكن بالرغم من ذلك، فإننا سنحاول أن نتناول كل هذه الأنواع انطلاقاً من الإشكالات الواقعية التطبيقية، حتى نحقق غايتين نراهما ضرورتين:

أولاهما: إيفاء الجانب العلمي حقه.

ثانيتهما: تنزيل الجانب العلمي على واقعنا المعاصر، بما يضمن تطبيقاً موفقاً يُوصل إلى الغايات المرجوة.

والله نسأل أن يوفقنا لهذا العمل، ويسددنا فيه على الحق خدمةً لأمتنا الشريفة، فهو سبحانه أهل كل خيرٍ والجواد به.

دمشق- صبيحة التاسع من ذي الحجة-**١٤٣١** هـ/الموافق لـ**١٥-١١-٢٠١٠** م

الباب الأول

موقع التصوف من الدين

الفصل الأول

خصيصة الدين

إن من أهم المعيقات عن إدراك الدين الإلهي، عدم إدراك ما يمتاز به عن الأديان الوضعية أو المذاهب الإيديولوجية. فحتما لا يستوي ما وضعه الله، وما هو منسوب إلى الفكر الإنساني ومولَّد له.

وإن ما يميز الدين حقيقة، هو عدم خضوعه لهيمنة الزمان من حيث النسبة الأصلية. نعني أن الدين له جوهر خارج الزمان وإن كانت مظاهره تحدث داخله. وأغلب الناس الذين يعرضون للدين بالدراسة، إذا أغفلوا هذه الحقيقة، لا يتمكنون من تمييز معالمه التي ينبغي أن تكون واضحة من جهة، وقابلة للاستمرار من جهة أخرى. فإذا لم يكن الأمر على هذا، لم نأمن على أنفسنا أن نُحجب عن الدين إما كلا وإما بعضا؛ أو أن ينقلب هذا الدين في أيدينا دينا آخر ونحن لا ندري.

وفي البداية، دعنا نذكر أن الدين هو الشريعة باعتبار الظاهر والباطن معا. قلنا هذا، حتى لا نقول إن الدين شريعة وعقيدة كما يقول غيرنا. وذلك، حتى لا نقع في العقائد الكلامية والأيديولوجيا الدينية. والشريعة التي هي صلب الدين، لا بد أن تكون من كتاب منزل (وحي)، حتى نضمن أن تؤتي ثمارها في النفس البشرية، وحتى نضمن الإبقاء على صلتنا بالغيب حقيقة. وهذا هو ما أسميناه باطن الشريعة. نقول هذا، لأن كثيرا من الشرائع بولغ في الاعتناء ببعض ظاهرها، وأُهمل باطنها، فلم تغن عن أهلها شيئا. وكثيرا ما يحدث هذا، بسبب اتباع الهوى والاحتيال في إلباسه لبوس الدين.

بحديثنا عن الشرائع بصيغة الجمع، لا شك سنتساءل: إذا كان الدين واضح المعالم، قابلا لاستمرارها، فلم الكلام عن شرائع وليس عن شريعة واحدة مستمرة على مدى الزمان، خصوصا وأن الدين كما سبق خارج الزمان بحقيقته؟

نقول: هذا صحيح! لكن لا بد أن تكون الإجابة عبر مراحل، نذلل في كلٍّ منها العقبات التي نراها مانعة لصحيح الإدراك.

أولا: لا بد أن نجيب عن السؤال المرحلي الآتي: هل الدين واحد أم متعدد؟

الجواب هو أن الدين واحد، لأنه يدور على أمر واحد لا ثاني له، وإن تعددت توابعه وملحقاته: وهو تحقيق العبودية لله. وهذا الدين، هو الذي بعث الله به النبيين من آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانيا: إن كان الدين واحدا، فلم لا نرى استمرارية في مظهريته، بحيث تكون كل الأمم – بغض النظر عن الترتيب الزماني– على نفس التدين ظاهرا وباطنا؟

الجواب: لا بد أن نعلم أن الدين واحد كما سبق أن أكدنا، لكنه تدرج في النمو، كما يتدرج الإنسان في مراحله العمرية من الطفولة إلى الكهولة، حيث يشتد عوده وتكمل قواه. لاحظ أننا لم نشر إلى شيخوخة الدين، لأننا نريد هنا التأصيل حتى نخرج من كلامنا بطائل. فإذا فهمت مرادنا فبعد ذلك طابق بها تشاء.

وهذه المراحل التي ذكرناها للدين، هي التي اقتضت تعدد الشرائع. فالشريعة هي الصورة المرحلية التي للدين، إذا أخذناها دائما ببعديها الظاهر والباطن. وأهم المراحل التي مر بها الدين خمسة:

المرحلة الأولى: من آدم عليه السلام إلى نوح عليه السلام.

المرحلة الثانية: من نوح عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام.

المرحلة الثالثة: من إبراهيم عليه السلام إلى موسى عليه السلام.

المرحلة الرابعة: من موسى عليه السلام، إلى عيسى عليه السلام.

المرحلة الخامسة: من عيسى عليه السلام، إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وقد أشار الله إلى هذه المفاصل في قوله سبحانه:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ الأحزاب: ٧.

ولو لم يكن الدين واحدا، ما كان الله ذكر لنا ما كان من أمر الأنبياء السابقين عليهم السلام في القرآن؛ وإلا كان دعانا إلى عدة أديان لا إلى دين واحد! بسبب أن كل نبي يدعو إلى دينه الخاص. وهذا لا يقول به أحد!

أما اختلاف الشرائع، فهو يدل على اختلاف مراحل نمو الدين. فهو كاختلاف مظاهر الإنسان عند تطوره في مراحل عمره، مع كونه لا يتعدد في شخصيته. فنقول مثلا: كان عمر طفلا، ثم صار شابا، ثم كهلا ثم شيخا. وعمر هو عمر، لا يتعدد في حقيقته.

يجرنا ما سبق، إلى الحديث عن كمال الدين وبلوغ الغاية فيه. فلا شك أنك قد فهمت أن ذلك قد تحقق لرسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فهو الرسول بمعنى العهد، وكتابه هو الكتاب المهيمن على ما سبقه، وشريعته مطلقة من حيث الحقيقة والباطن؛ وبحسب ما يسمح الظاهر من إشارات إلى ذلك. نقول هذا لأن الظاهر محل التقييد، والتقييد لا يكون إطلاقا من نفس وجه تقييده. فاعلم هذا، وإلا اختلطت عليك الأمور وضللت على علم.

الفصل الثاني

كمال الإسلام

كمال الإسلام الذي ذكره الله في قوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾المائدة: ٣ ، يقتضي تحقق الكمال من أوجه ثلاثة وهي:

— كمال الرسول.

— كمال الكتاب.

— كمال الشريعة.

فكمال الرسول، أشار إليه قول الله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ الأحزاب: ٧. فتقديم الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذكره أولا مع كونه المتأخر زمانا، يدل على التقدم في المرتبة؛ وعلى الجمع المحصل لكل الكمالات التي افترقت في غيره، وبلوغه فيها أقصى الغايات.

وكمال الكتاب، دل عليه مثل قول الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾المائدة: ٤٨. والهيمنة لا تكون إلا للكامل الجامع للمتفرق البالغ أقصى الغايات، كما قلنا.

أما كمال الشريعة، فنسبي بسبب ما ذكرناه من كون الظاهر هو محل التقييد. لكن، هذا هو كمال الشريعة بعينه والإطلاق الذي ذكرناه سابقا. ويدل عليه أمران:

أولا: كون الشارع متحكما فيما سبق من الشرائع، يقر منها ما يشاء، وينسخ منها ما يشاء. وهذا لا يكون إلا لسيد التشريع عليه وآله الصلاة والسلام. وهذا باب من العلم معلوم عند أصحابه.

ثانيا: كون بعض أجزاء التشريع تدل على الإطلاق؛ وهو ما سبق أن نبهناك إليه. فمثلا كانت الصلاة عند الأمم السابقة لا تصح إلا في أماكن مخصوصة (كنائس وبيع...)؛ فصارت الأرض كلها لنا مسجدا. وكانت الطهارة لا تحصل إلا بالماء، فصار التيمم لنا توسعة ما كانت لغيرنا. وفي الجانب المعرفي المتمثل في العقائد، فقد كانت العقائد في السابق متعلقة بالأفعال أو الصفات؛ فصارت عقيدتنا ذاتية، مطلقة بإطلاق الذات. وإلى الإطلاق في الشريعة المحمدية، يشير القرآن بوضع الإصر والأغلال في قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الأعراف: ١٥٧. فلا شك أن الإصر والأغلال هي التقييد؛ ووضع هذا التقييد، هو نفسه ما نعنيه بالإطلاق في الشريعة المحمدية.

والإطلاق المميز للشريعة المحمدية، هو غاية الكمال في الدين. فمن أراد أن يكون على الدين اليوم، فليس أمامه إلا الشرع المحمدي. ومن ظن أن يكون على الدين باتباع شرع

سابق، نقول له: جئت متأخرا! فلا شرع اليوم إلا الشرع الكامل. والكامل لا يستبدل بما هو أقل كمالا منه، عند العاقلين.

إذا تقرر ما سبق فلنمض إلى التصوف.

الفصل الثالث

التصوف والدين

نجيب – إن شاء الله – في هذا الفصل عن الأسئلة التالية:

— هل التصوف من الدين، أم هو من خارجه وأُلحق به إلحاقا؟

— إذا كان التصوف من الدين، فما موقعه؟

— لمَ اختُلف في التصوف كثيرا، إذا كان من أركان الدين؟ فإن لم يكن منها، فلمَ يعطيه أصحابه كل هذه القيمة؟

١. الدين والتدين:

إن الدين من حيث ما هو دين، لا خلاف عليه؛ وإنما ينشأ الخلاف باعتبار العوامل الشخصية أو الجماعية، التي ينجم عنها ما يسمى "التدين". فالتدين هو محل المتغيرات والاختلاف.

وإن أردنا أن نحصر أنواع التدين التي تتعدد بتعدد المذاهب الفقهية والعقدية على السواء؛ فإننا نرجعها إلى اثنين أساسين، هما :

— التقليد في التدين.

— التدين الحق.

لا شك أن تدين الصحابة رضي الله عنهم، كان حقيقيا، علما وعملا. ساعدهم في ذلك كونهم أول المتدينين. فكان تدينهم حيا، يعكس معاملتهم لله فعلا وانفعالا. وعلى هذا،

يكون هذا المظهر هو الأصل المعتبر في التدين عند غيرهم، إذا أردنا أن نقارن بين صور التدين المختلفة التي ظهرت فيما بعد؛ وإن كانت المقارنة عند من قاموا بها، لا تُنتج علما صحيحا دائما، بسبب عدم الأهلية في النظر، أو بسبب اتباع الأهواء الذي يجعل كل فريق من المتدينين يزعم لنفسه التأسي الأتم بالصحابة رضي الله عنهم؛ باستثناء الشيعة الذين لهم في الصحابة رأي مخالف لغيرهم.

أما التقليد في التدين، فهو ما ظهر بعد جيل الصحابة وصالحي التابعين. ومنشأ التقليد في التدين على التحقيق، هو غياب شخص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن شاهد المتدين. فحل الاستهداء بالخبر، محل التعلق بشخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم. والخبر يفتح باب التأوّل على مصراعيه، ويجعل المرء لا يأمن على نفسه أن يركب الهوى. وقد يجد من تكون هذه حاله ناصحا من أهل زمانه، وقد يجد إمام ضلالة يعين نفسه عليه. فالاحتمالات مفتوحة ومتناسبة مع خصوصية كل زمن.

يتضح مما سبق أن التقليد، يزداد صاحبه بعدا عن أصل الدين كلما ازداد البعد الزماني. ويصير المقلد أكثر عرضة للإضلال، كلما كثرت دعوات الضلال وتراكمت عبر الزمان. وتيار التقليد هذا، سيقوى بالتدريج، حتى يبلغ به الأمر إلى التغطية عن أصل التدين. عند هذا، سيصبح خطرا على الدين؛ ويصير توضيح الأمر، وتبيين الحق فيه من أوجب الواجبات، كما هو الشأن في زماننا.

٢. موقع التصوف من الدين:

إذا اتضح عندك الفرق بين تيار التدين الأصيل وتيار التقليد، فاعلم أن التصوف –في أصله وقبل تعرضه للتخليط– هو المعني بالمحافظة على تحقيق التدين واستمرار وجود الطائفة التي

على الحق. أي الطائفة التي على الدين الطري الحي الذي لا يتأثر بالعوامل المتغيرة عبر الزمان.

السؤال الذي يخطر على الذهن هنا، هو: لمَ لمْ يُكلِّف الصوفية أنفسهم عناء التبيين للأمة حتى يتضح الأمر منذ أول بُدُوّه؟

الجواب هو: أن الصوفية في البداية تأدبوا مع الفقهاء؛ لأن هؤلاء كانوا عاملين بعلمهم من حيث الظاهر، لا يتوانون في تبيين الأحكام. وقد جهدوا في ذلك حتى أصابهم ما أصابهم مما تذكره كتب التاريخ. فكان التمسك بظاهر الأحكام ضامنا لسلامة الأمة من كثير من الآفات. ويبقى الباطن من نصيب أهله من غير أن يكون حكرا على طائفة مخصوصة؛ كل هذا بسبب الصدق الذي كان عند الفقهاء كما أسلفنا.

وأول ما امتاز به الصوفية عن التيار العام، الزهد. لأن الميل إلى الدنيا هو أول آفة أصابت القلوب، وعنها تفرعت كل الآفات اللاحقة. وأجلى مظهر للتوجه إلى الدنيا في ذلك الزمان هو التوسع في الأكل. فقد قالت عائشة رضي الله عنها : "أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع؛ إن القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى الدنيا". ثم بعد ذلك صارت الغفلات تشتد، وصارت نتائجها تتراكم، حتى وصل الأمر إلى ما هو عليه اليوم.

وقَصْرُ جمهور من الدارسين اليوم للتصوف على الزهد، نشأ من هذا المظهر الأول؛ لكن لا بد أن نفهم أن التصوف فيما بعد قد صار يقابل كل آفة بما يناسبها؛ بحسب خصوصية كل زمن. وهذا أحدث حيرة عند من ينظر إليه من خارج. وهو ما أدى إلى إطلاقات مختلفة،

حاول أصحابها الخروج بها من أزمة التعريف؛ كالتصوف السني، والتصوف الفلسفي، وغير ذلك من التسميات.

وإذا كان التصوف واحدا، فلا بد أن نُرجعه إلى أصل واحد، به يعرف وإليه يستند؛ وإلا كنا غير مدركين لحقيقته. وما هذا الأصل الواحد الذي يعود إليه إلا تحقيق التدين. علم ذلك من علمه، وجهله من جهله.

ومع مرور الزمان، سلط التصوف الضوء على الجانب المعرفي الذي للدين، حتى صار يُعرف به ويختص. هذا الجانب المعرفي أغفله كثير من الناس بسبب غلبة الجانب العملي التعبدي؛ حتى صار الدين عند أغلب الناس تكاليف بدنية؛ وصار تضخيمها يتنامى مع الزمان على حساب المعارف الموسّعة للمدارك العقلية الضامنة للاعتدال والسلامة الصحية القلبية.

ضمور الجانب المعرفي من الدين عند المتدينين، هو ما أدى إلى ظهور تيارات العنف الداخلي فيما بعد، رغم وضوح الأحكام المتعلقة بذلك في الفقه المعتاد. من هنا، يتضح أن العلم بالأحكام وحده لا يكفي في حسن العمل والأداء؛ بل لا بد من تحقيق للتوازن في التلقي حتى يتحقق الاعتدال في النتيجة. هذا أكيد!

٣. الاختلاف في إدراك حقيقة التصوف:

اختلف الناس في التصوف بسبب اعتبارات عدة، سنحاول تناولها بقدر الإمكان.

من الناس، من عده مُحدثا في الدين، فرفضه جملة وتفصيلا. وهذه لا شك رؤية سطحية اعتبرت التسمية في الغالب. فقيل إن لفظ "التصوف" ما ورد به كتاب ولا سنة. فكيف يكون من الدين وهو لا أصل له فيه؟!

ولِمَ تسمت هذه الطائفة بهذا الاسم، إن كان ما هي عليه دينا في نفسه؟

لا تنس أننا قلنا إن التصوف هو تحقيق الدين. بمعنى أن الدين لدى المتدينين، لا يعدو كونه إما صورة جوفاء، وإما دينا حقا. ولا تنس أن التيار العام في الأمة –والذي سيقوى مع مرور الزمان– سيتمسك بصورة الدين، مع تفاوت بين الأشخاص والمراحل الزمنية في ذلك. ولا تنس أن الصورة هي ما أصبح الناس في غالبيتهم يعرفونه اليوم دينا. فهل كان على الصوفية أن يقولوا للمسلمين: أنتم لستم على الدين الحق؟! فيكونوا أول من يفتح أبواب الفتن، وهم الحريصون على الأمة؟!

فإن قلت: كان عليهم أن ينصحوا للأمة بتبيين حقيقة ما هم عليه، في مقابل ما كان شائعا!

قلنا: قد بينوا بلسان الحال، ما لا يبلغه المقال؛ ولكن الأهواء تُعمي وتُصم. ولولا أن خطابهم كان يصل إلى محيطهم، كيف كان يمكن لغيرهم الالتحاق بهم، وإن كانوا قلة بالمقارنة إلى عموم الأمة؟!

نخلص من كل ما مر إلى أن التصوف هو تحقيق الإسلام صورة وروحا، لا صورة فحسب.

نعم، لم يكن التصوف دائما على أكمل صورة وأتم روح. بل صوره متفاوتة طردا وعكسا. كما أن غير الصوفية لم يكونوا خلوا من روح للدين دائما. فالتصنيف الذي نعتمده، إنما هو بسبب التغليب فحسب. لذلك فقصر التحقق بالدين على الصوفية وحدهم (نعني بهم المعروفين بالاسم) هو من الإجحاف البيّن، وعدم الإنصاف. ومرادنا أن يعلم القارئ الفروق المميزة، ويتتبعها في طوائف الأمة؛ لا أن يتمسك بالأسماء فيحجب بها عن الحق.

٤. خفاء التصوف عن جل العقول:

لا شك أن من أهم الأسباب التي جعلت الناس يختلفون في التصوف، بين مُقر ومنكر، خفاءه عن إدراك العامة من الناس. فإذا كان التصوف هو التحقق بالدين على الكمال، فلا غرو أن المتحققين بالدين جزئيا، لن يتمكنوا من إدراكه. بهذا سيكون التصوف تدين النخبة.

يفر كثير من الناس، من الإقرار بالطبقية داخل الدين. وكأن المتدينين طبقة واحدة، هي طبقة العامة، فقهاء ومقلدين. سبب فرارهم من هذا الإقرار في الغالب، الخلط بين استواء الناس أمام أحكام الشرع، واختلاف المراتب والدرجات فيما بينهم. فتوهموا أن الإقرار بالطبقية في الدين، يؤدي إلى التمايز بالنظر إلى الأحكام. وهو ظلم شنيع، وتحريف للدين.

وإن عدم الإقرار بالتفاوت في المراتب والدرجات الذي صارت العامة تخالف فيه أصل الدين، جعلهم يتطاولون على هذه الطبقة، بفحص مقولاتها وتمحيص أحوالها. فجانبوا الصواب في النتائج التي توصلوا إليها، بسبب عدم ضبطهم للمنطلقات. ولو أن الناس تحلوا بالإنصاف، لنظروا في قول الله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ **الواقعة**: ٧ – ١٤. تأمل كيف أن الله تعالى قسم المتدينين إلى قسمين رئيسين هما: أصحاب الميمنة والسابقون. هذان الصنفان يميزهما كمال التدين. فمن غلب على تدينه الصورة، كان من أصحاب اليمين؛ ومن كمُل تدينه بالتحقق بروح الدين الذي هو الشق المعرفي منه، كان من السابقين المقربين. وانظر كيف أن الله ذكر عن المقربين أنهم جماعة معتبرة من الأولين (السابقين بالزمان)، وأنهم قلة من الآخرين (المتأخرين بالزمان). بهذا كانت الأفضلية في القرون، للأولى منها. فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:« خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين

يلونهم»[1]. فالأمة بحمد الله على نفس الصفة من حيث العموم، والاختلاف يقع في القرون بين نسبة المقربين ونسبة أصحاب اليمين بالنظر إلى العدد الكلي. فلما كان عدد المقربين قليلا عند المتأخرين، كانت الأفضلية للمتقدمين حتما. ما نريد أن نخلص إليه، هو أن الأفضلية ليست للقرن من حيث الأشخاص إلا للمقربين دائما؛ أما من حيث عموم القرن، فهي للقرون الأولى بسبب كثرة عدد المقربين بالمقارنة إلى القرون المتأخرة.

ما سقناه هنا، هو ما دللناك عليه من أن التدين يخضع لجدلية الصورة/الروح. أي أن التفاوت يكون بتحصيل كمال التدين. وهذا بعينه (أي كمال التدين) هو ما جعلناه مسمى التصوف. فإذا علمت هذا، فأبق على اسم "التصوف" أو تجاوزه.

[1] - من حديث أخرجه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه.

الفصل الرابع

موقع المقربين من الأمة

إذا عرفت المقربين وميَّزتهم، فلتعلم أن كبارهم هم الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم. من أجل ذلك كان أهل الله يذكرونهم في مقدمة من يترجمون لهم في طبقاتهم، كما فعل الإمام الشعراني رضي الله عنه. ونِعم ما فعلوا، حتى يتصل الأول بالآخر، ويتضح النهج السوي لدى الناظر.

معلوم أن الأمة تختلف أحوالها باختلاف المراحل الزمنية التي تمر بها. وهي على العموم تسير من الكمال في الظاهر، حيث كان يسود الشرع كل جوانب حياتها، إلى الفساد الذي تنحل معه عُرى الدين عروة عروة. ومن المؤكد أن عصور الاستقامة ستكون هي تلك التي كان يلي أمرَ الأمة فيها المقربون. فكانت الخلافة الراشدة، ثم كان بعدها نتوءات في الزمن من قبيل خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. ثم صار المقربون يتخلفون عن الإمامة الظاهرة، ليكتفوا بإمامة الباطن. ومع تأخير المقربين عن الصف الأول، صارت الغفلة تتمكن من الأمة، وتبعد بها عن كمال التدين. وظهر الانفصال بين ظاهر الدين وباطنه، وصار يشتد إلى أن وصل عند العموم إلى تدين طقوسي، فارغ من الحضور والمعاني.

مع ضعف التدين، غابت ثمار الدين. فظهر الفساد رغم كون الناس مسلمين. وغاب الأصل عن نظر الناظرين، حتى صاروا يعتمدون الفكر من أجل إصلاح ما انخرم أو انهدم.

فتأكدت مظاهر الأزمة في التدين، رغم مكابرة بعض المتفقهين الذين لا يريدون الإقرار بواقع صار "يفقأ العيون".

لعلك ستقول: فأين الصوفية من كل هذا؟

فنقول: لا تنس أننا قد أسسنا لكون طائفة المقربين، لا تخلو منها الأمة على مدى الأعصار. فإن كان كبار الصحابة في مقدمتها، فلا شك عندنا أن الصوفية هم مؤخرتها.

السؤال هنا هو: إذا كان الأمر هكذا، فلِمَ ذهلت الأمة عنه، حتى صار يُنظر إلى الصوفية بريب شديد؟

الجواب هو: سبق أن قلنا إن العامة لا يميزون المقربين بسبب اختلاف المرتبة، واختلاف المعايير التي لا بد أن تختلف باختلاف المراتب. هذا من دون النظر إلى العوامل المؤثرة في الإدراك، بما يزيده سدادا أو انحرافا.

أما إذا أردنا أن نبرز أهم العوامل الموجهة للعامة، وأكثرها تسببا إما في الهداية وإما في الضلال، فسنجده: الفقهاء. وذلك لأن العامة يظنون أن الفقهاء يعلمون كل شيء عن الدين، ظاهره وباطنه. فلما كانت تُعرَض مقولات أئمة الصوفية على فقهاء لا يتجاوزون مرتبة الإسلام، وصاروا هم أيضا يعرضونها على علمهم، ما كانوا يدركون حقيقتها ولا يجدون لديهم مستندا لها. فصاروا يرفضونها، ويشددون النكير عليها، حتى بلغ بهم الأمر إلى حد تكفير كثير من المقربين. هنا انعكس الأمر، وصارت العامة يفرون ممن يمكن أن يرتقوا بهم في الدين. فترسخ الضعف والانحراف.

كلامنا في إرجاع المسببات إلى أسبابها، وإلا فإن الله شاء أن تمر الأمة بهذه المراحل كلها، وتقع في هذه المحاذير التي منها ما عرفنا، ومنها ما ستكشف عنه الأيام. وحكمة الله بالغة.

لكن ينبغي أن نعلم أن الاستهداء بالمقربين إن كان قد امتنع في حق العموم، فإنه سيستمر عبر الأزمنة في حق الخصوص المعتنى بهم، حتى تتصل سلسلتهم ولا تنقطع. والحمد لله على نعمته.

الفصل الخامس

الفقه المجتزأ وعواقبه

لا يخفى أن فقه الدين، ينبغي أن يتعلق بكل جوانبه، وإلا أنتج سياقا ضامرا –إن سلمنا بسلامته– لا يكفي للتوصل إلى تدين صحيح. هذا لأن الدين منظومة متكاملة، لا يمكن أن تنفصل مكوناتها عن بعضها، علما وعملا.

ولا شك أن الاختلالات التي أصابت الأمة الإسلامية، لها علاقة بالقصور –إن لم يكن انحرافا– الذي أصاب الفقه. نعني بالاختلالات، ما يمنع الاعتدال بين الظاهر والباطن قبل أي شيء آخر. ذلك أن الأعمال الشرعية كلها، لها صورة يرعى فقه الأحكام جانبها الظاهر، لكن تبقى حقيقتها منوطة بدرجة قرب العبد الذي يؤديها من ربه. هذا يجرنا إلى الحديث عن تدبير علاقة الفقه بالنوازل (الواقع).

بلغ ضعف التدين عند الفقهاء، أن جعلوا الفقه منظومة نظرية، يتبارون في التمكن من مفاصلها، وفي الإحاطة بتفاريعها، دون متابعة لها في الواقع المحسوس؛ ما أدى إلى "الفصام" الديني. وبدل أن يكون الفقهاء هادين لعموم الأمة إلى سواء السبيل (لا يخلو السواء من اعتدال)، صاروا عالة عليها. يلزمونها من جهة بالإيفاء بما لهم من تعظيم وتوقير، دون أن يؤدوا لها ما عليهم من أمانة. وقد لا يكون إخلالهم بوظيفتهم دائما عن قصد منهم، بل قد يكون عن قصور فقهي في الغالب.

انفصال الفقه الجزئي، عن الفقه العام الكلي، أدى إلى تدين خيالي! يعيش المتدين من ورائه في عالم موازٍ للواقع، بينما التردي يجتاح كل يوم مساحة جديدة من حياته اليومية.

قد يقول قائل: قد كفى الفقه الأمة –على الأقل– التبويب النظري للمسائل الفقهية. فإذا هي أرادت أن تنهض من كبوتها، وجدت رصيدا فقهيا ضخما، يعينها فيما قد يعرض لها من مستجدات! فنقول: ليت أن الفقه قد كفى الأمة هذا على التمام، ولو من حيث الظاهر؛ ولكن الأمر على غير ما يُتوهم. فمثلا، لم يتناول الفقهاء –عموما– الأحكام المتعلقة بالحكم، بما يليق بها من عناية. وهو ما أدى إلى انبهام هذا الأمر إلى يومنا هذا.

فلا زالت الأمة تتساءل: هل للإسلام نظام حكم خاص به؟ أم أن ما يسميه البعض "الدولة المدنية" –يقصدون العلمانية– هي أفضل ما يمكن أن يتحقق لها؟

ولا زالت الأمة تسأل: هل الديموقراطية تناقض الدين، أم أنها الشورى المنصوص عليها؟

ولا زالت الأمة لا تعرف كيف تختار حكامها، ولا زالت لا تحسن التعامل معهم. هل يكون ذلك بالطاعة العمياء لأولي الأمر، أم بالتقويم اللازم في حينه كما يشهد على ذلك العقل؟

لا زالت الأمة لا تعلم: ما هي خصوصية الحكم في الدولة الإسلامية؟ وما هي حدود سلطات الحاكم؟ هل هي كما فيما يسمى "الدولة الحديثة"، أم أنها غير ذلك؟

لا زالت الأمة لا تدري: هل في المجتمع المسلم، ما يسمى بهيئات المجتمع المدني، أم أنها شيء لا ينسجم والدين؟ وهل "المجتمع المدني"، مكون في مقابل المجتمع العسكري، أم أنها تسمية مبهمة، لا ندري خلفيتها المعرفية (الفلسفية)؟

ولا زال فقهاؤنا، تعوزهم الفصاحة إزاء هذه الأسئلة وغيرها، مما يجعلنا ننظر إلى الأمر بشيء من الارتياب.

ضربنا أمثلة للقصور الفقهي في مجال الحكم، مع أنه لا يخلو منه حتى مجال الشعائر التعبدية. فما زلنا لا نعرف حكم الفارق الزمني في المطالع، الذي تعيشه الأمة كل عام عند مستهل شهر الصيام! فهل يجوز أن يصل هذا الفارق إلى اليومين والثلاثة شرعا؟!

ويحق لنا أن نتساءل: هل صار الفقه فقه مؤتمرات، يتطارح فيها فقهاؤنا نظريات هي أقرب إلى الترف الفكري والمخدرات الأكاديمية؟ أين واجب الفقيه في تبيين الأحكام؟ نحن في حاجة اليوم إلى من يبين للأمة ما يجب أن يُعلم بالضرورة. وصلنا إلى درجة انهداد أس الفقه! فأي فقه بقي بعد هذا؟

كان يمكن أن نكتفي من فقهائنا بما قدموه، لو أنهم كانوا يشيرون إشارة إلى الشق الغائب من المعادلة، حتى لا يكونوا خائنين للأمة. بل ليتهم سكتوا عن الشق الغائب من الفقه. ذلك أن منهم من انبرى ينكره، ويعده شركا. سبحان الله! كيف يكون الفقه في الدين مؤديا إلى الشرك أو البدعة؟! وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « من يرد الله به خَيرا، يفقهه في الدين»[٢]. "يفقهه" حتى يكون فقهه ربانيا، لا فكريا بشريا؛ في "الدين"، لا في شق من الدين.

بلغ الأمر في عصر الفضائيات، ومع فقهاء ليس لهم من الفقه إلا الاسم، أن صاروا يُرهبون الأمة حتى لا تسائلهم. نعم، هم يستندون إلى فقه عليل، درج عليه سلفهم. لكن، شتان بين من كان يتكلم في بلده، ومن يطالع العالم عبر الفضائيات اليوم، بما لا يليق!

١. مظاهر الإرهاب الفقهي:

من مظاهر الإرهاب الفقهي:

---

[٢] - أخرجه الشيخان.

ا – إلزام الناس بمذهب عقدي مخصوص، حتى إذا خرجوا عنه ولو في جزئية ما، اتُّهموا بأشنع الصفات. ينسى هؤلاء الفقهاء أن الإسلام/الدين أوسع من كل المذاهب.

ب – ادعاء أن فهمهم موافق للكتاب والسنة، بخلاف غيرهم. وهذا يتضمن أنهم محيطون بعلم الكتاب والسنة. وهو ما لم يقل به متقدم ولا متأخر من العقلاء؛ لأن الكتاب والسنة لا يحيط بهما إلا من أنزل الوحي بهما على عبده صلى الله عليه وآله وسلم.

ج – ومن أجل إيهام الناس بالباطل، قالوا: نأخذ الكتاب والسنة بفهم الصحابة. وهذا يلحق بما سبق، ويزيد عليه جهالة. فالفهم في الكتاب والسنة، لا يقتصر على زمن أو جيل، بل هو متاح لكل مَن نوّر الله قلبه من الأمة، ولو كان قُبيل قيام الساعة بمقدار طرفة عين. ونحن نعد كلامهم تنقيصا في الكتاب والسنة، لا حرصا عليهما، كما يوهمون.

د – جعل الشرك أقرب المعاصي إلى العباد. فكل من تململ يمنة أو يسرة، سقط فيه حسب زعمهم. بينما العكس هو الصحيح؛ لأن الفطرة هي التوحيد، ولا يخلو عبد مسلم من فطرة. وبهذا يمتاز المسلم عن الكافر؛ وإلا كانا سواء. وهذا ما لا يقول به أحد.

٢. التعامل مع النص:

لما كان الكتاب والسنة المصدرين الرئيسين للتشريع الإسلامي، اتجه اهتمام الفقهاء (المجددين على الخصوص) إلى العناية بضبط التعامل مع النصوص، حتى يحصروا مجال الاختلاف الذي قد يحدث بينهم، بما أن رفعه ليس في مقدور أحد. غير أنه لا بد أن نفرق بين أئمة الفقه الأُول وبين المتأخرين من حيث هذا التعامل. فلقد كان الأولون، إلى جانب ما راعوه من جوانب ظاهرية (لغوية وغيرها)، يعتمدون في تناول "النص" على ما استطاعوا من طهارة قلبية؛ جعلت أحد كبارهم (الإمام مالك رضي الله عنه) يُعلن:" ليس العلم بكثرة

الرواية، إنّما العلم نور يضعه الله عز وجل فِي الْقُلُوبِ"[٣]. أما المتأخرون، فصاروا يستقلون بعقولهم في تناول النصوص واعتمدوا المنطق الفكري في ذلك، دون العمل على تحصيل النور أو تحصيل أسباب تقويته. فنتج فقه مقطوع عن أصله جزئيا إن لم يكن كليا. وذلك أن الأصل في فهم الوحي، هو العودة إلى صاحبه؛ فهو أعلم بما تكلم به، سواء أكان قرآنا بالنسبة إلى الله، أم حديثا بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. هذا هو ما أدى في العصور المتأخرة إلى ظهور فقه شاذ، يبدو أجنبيا عن روح الدين لذوي الفِطَر السليمة؛ كذاك الذي يكفر سواد المسلمين، ويدعو إلى قتالهم، بتآويل فاسدة بخصوص قضية الشرك والتوحيد.

٣. نتائج الاجتزاء في الفقه:

إن الاعتناء بصورة الدين (الشعائر)، دون مراعاة للباطن وأحكامه التي إما تؤكد أحكام الظاهر وإما تلغيها، جعل المتدين ينظر بعين واحدة ويسير على رجل واحدة. ولا شك أن هذه الحال لن توصله إلى الغاية من الدين.

فما هي الغاية من الدين؟

الغاية من الدين، هي معاملة رب العالمين. وكل تدين ليس فيه هذه المعاملة، فهو صورة بلا روح. هو دين ميت!

أغلب المسلمين اليوم، على دين ميت أو يكاد. عندما أسلم المفكر الفرنسي "روجيه جارودي" ونظر في حال الأمة بعقله المستقل الناقد، تنبه إلى هذه الحقيقة المؤلمة، فكتب كتابه "الإسلام الحي". كان يريد أن ينبه إلى حقيقة الدين بما استطاع، وبما تحقق له من إدراك. لكنه

[٣]. مسند الموطإ للجوهري. ج ١ : ص ٨٨.

ما كان يعلم أن غالبية المسلمين قد اعتادوا الاستلاب والتقليد، حتى فيما لا تقليد فيه. صار الوضع ينبئ عن مرض عقلي، قبل أن يكون خروجا عن أصول الدين.

فكان من نتائج أزمة الفقه ما يلي:

١. إنكار شقٍّ أساس من الدين، وهو فقه الباطن، أو ما يتعلق بسلوك الطريق إلى الله. فإن الله هو الغاية كما سبق أن بيّنّا.

٢. تضخيم بعض جوانب الدين، على حساب الجوانب الأخرى، مما أنتج تدينا مشوها.

٣. استيلاء فقهاء الظاهر –إن صح لهم هذا– على مصائر العباد، وتوجيههم حيث يريدون. فكانوا عاملا من عوامل الغفلة في الأمة. والمصيبة أن الناس يظنون أنهم ما داموا مع الفقهاء، فهم على خير. على الأقل، يمكن أن يخادعوا أنفسهم بهذا. أما الحق فجلي، لا يحيد عنه إلا متبع هوى.

٤. تخلف المسلمين العقلي، وهو ما جعلهم في هذا العصر أقدر الشعوب على العيش مع المتناقضات؛ حتى صار عامة الأمم من غيرهم يتعجبون من وضعهم. ولقد سمعنا بعضهم ينصحهم في وسائل الإعلام. وهم في سباتهم، ما عادوا حتى يأنفون أو تأخذهم حمية.

صار المسلم –العربي على الخصوص– أحقر الأجناس على الأرض. إذا غادر بلده يحذره الناس؛ وهو لا يبالي إن كان يحمل معه جراثيم التخلف والمرض القلبي والخلقي. ولا يعرض نفسه على المعايير العامة الإنسانية (ما دون الشرع)، حتى يتبين أموره ويقف على الأسباب التي أوصلته إلى "الغيبوبة" الحضارية، و"الموت" المعرفي. كيف يفعل هذا، ومعه مُسَكِّنُ الفقيه يتبعه حيث يمم؟!

بهذا صار الدين، عائقا عن الترقي في سلم الكمالات، وصار حملا يحمله الناس على ظهورهم عوض أن يكون حاملهم. أصاب الدين ما يصيب الطعام إذا فسد: يصبح سما بعد أن كان غذاء. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الفصل السادس

تكميل الفقه وتفعيله

عرفنا في الفصل السابق أن الفقه (الظاهر)، تُركت فيه فراغات تشريعية، لم يُعْتَنَ بها العناية المناسبة لدرجة أهميتها في تدين الأمة. وسبب ذلك إما أن يكون خضوع الفقهاء للتوجيه السياسي، وهو ما لا ينبغي أن يكون؛ وإما هو قصور في إدراك الفقهاء أنفسهم يقدح في أهليتهم العلمية.

وإن كان الحكم الشرعي، هو القانون العلمي الذي يتناول أمرا ما، فلا شك أن تنزيل الحكم على وجهه الصحيح، يحتاج إلى مَلَكة خاصة بها يدرك الفقيه مفاصل الحكم ومفرداته. ولا شك أن عملية التنزيل تتعلق بجانبين لا يمكن إهمال أحدهما إن كنا نريد بلوغ النتائج المأمولة. هذان الجانبان هما الواقع الخارجي، والنفس. فإدراك الواقع الخارجي، هو ما اشتغل به الفقهاء على مر العصور. أما إدراك النفس وما يعتمل فيها، فقد كادوا أن يهملوه، إلا ما كان يتعلق بالنيات وبعض المظاهر الخُلُقية البسيطة.

ولا تخفى أهمية إدراك النفس، بالنسبة إلى التدين. ذلك أن نتيجة تنزيل الحكم، لا تعتبر فيها مادّيّتها، وتأثيرها في الواقع المحسوس فحسب، كما يظن ذلك أكثر المتدينين؛ وإنما تعتبر فيها النتيجة الكلية: المادية والمعنوية، الداخلية والخارجية.

فمثلا، نحن نعلم أن العمل الشرعي، ينبغي أن يُبتغى به وجه الله، وإلا عاد وبالا على صاحبه. والفقه المعروف لا شك قد أشار إلى ذلك، لكنه ما اعتنى بدراسة ذلك وعرض

تفاصيله؛ خصوصا وأن النفوس تختلف، ونوازعها تختلف، وأغراضها تختلف. هذا يجعل التنزيل "النفسي" عند الفقهاء، لا يعدو أن يكون إشارة ذات دلالة عامة، تخالف ما ينبغي أن يكون عليه الفقه من وضوح حتى يكون عمليا.

لما كان الأمر هكذا، كان لا بد أن تشتغل طائفة بما يتعلق بالجانب الباطني في تنزيل الأحكام. وليسوا إلا الصوفية!

فمن حيث المبدأ، لا يمكن أن ينكر التصوفَ إلا جاهل بالفقه ومتعلقات أحكامه. وفي إنكاره حقيقة، إلغاء لإنسانية الإنسان، بما تمثله من سعة وتعقيدات وفردانية. بإلغاء فقه الباطن، يُعامل الإنسان على أنه آلة ميكانيكية؛ ليس لها من الإنسانية إلا كونها محاسبة على أعمالها، من غير نظر إلى المقدمات الموضوعية لتلك المحاسبة.

لا شك أن اعتماد الفقه ظاهرا، قد أنتج متدينين، يقتربون من الآلة. تطغى عليهم السطحية، يجهلون أكثر مما يعلمون؛ يعممون معاييرهم الفقيرة على كل شيء، فيخرجون بنتائج قريبة من الحُمق والهوج.

من نتائج هذا الفقه الأبتر في عصرنا، ضحالة العلم والفقه، والإسراع في إقصاء مختلف الشركاء في الدين فضلا عن غيرهم، واللجوء إلى العنف في بلوغ الغايات المرجوة. كل هذا أدى إلى عكس ما كان يُفترض أن يؤدي إليه الفقه السليم من توسيع لآفاق المتدين، وتزكية لأخلاقه، وتيسير على نفسه وعلى غيره.

صار لزاما علينا اليوم، أن نتوقف وننظر في أمرنا. لا يمكن أن تستمر الحال على ما هي عليه. لا يمكن أن نرضى أن يُنظر إلى ديننا في العالم على أنه دين يليق بقليلي العقل وقصيري النظر. كان يمكن أن نصبر على هذا لو لم نعلم سمو الإسلام المعرفي المؤسس للسمو

الأخلاقي الذي لا يدانيه ما يرجوه أعقل بني الإنسان ويتمنونه. بل والله هو أسمى مما نتصور. هذا هو ما يحز في النفس حقيقة، أن يُلقى بالذهب الإبريز في المزابل!

أمام هذا الوضع، صار لزاما علينا أن نعود إلى تراث أئمة الطب النفسي الإسلامي، الذي يكمّل فقه صور الأعمال، حتى نصحح مسارنا الذي انحرف كثيرا عن السواء. نقول بالرجوع إلى التراث، من أجل التأصيل العلمي فحسب، ومن أجل إيجاد سند وجودي نربط به بين أول الأمة وآخرها؛ أما من حيث التحقق بما أسميناه فقه الباطن، فلا بد فيه من الوراثة النبوية. نؤكد على هذا، حتى لا ننحرف مرة أخرى عن المقصد. فما أكثر ما يقف إبليس على الطريق، يبغي تحريفها في كل مرحلة.

لا شك أن الفقه المعتبِر للظاهر وحده (مع قصور حتمي)، هو فقه ميت. يعيش المتدين فيه دينا تاريخيا، يعتمد الخبر وحده، ويفتقر إلى تحصيل ثمرات الدين التي هي وحدها دليل على حياته وصحته. لا يمكن أن نواجه العالم اليوم، بادعاء أن ديننا أنتج لنا عمر بن الخطاب وعليا بن أبي طالب رضي الله عنهما وأضرابهما. لا يمكن أن نخوض معركة اليوم بأسلحة الأمس!

من يستمع إلى الخطاب الديني عندنا اليوم، يجد أغلبه حكايات عن أمجاد الماضي. هذا مما أسميناه اعتماد الخبر في التدين. وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على هزال ما بأيدينا من الدين. وبدل أن نتعصب إلى الماضي فرارا من تقويم حالنا، كان الأجدر أن يؤدي بنا ذلك إلى تمحيص ما نحن عليه، إن توافرت الأهلية؛ لأن العملية دقيقة ومصيرية، لا يتمكن من الاضطلاع بها كل من أطال لحيته وقصر ثوبه!

السير على رجل واحدة في الفقه، أنتج الغلو. وتكميل الفقه بشقه المتعلق بالباطن، يعيد المتدين إلى الاعتدال. هذه فيزياء عقلية! ثم إن الأعمال، باعتماد الفقه الظاهر وحده، تكون في أدنى درجات الصحة إن هي لم تبطلها معايير الباطن. وبهذا يكون التدين ضعيفا: الإيمان فيه يقارب الصفر، واليقين غائبا. فتصير الأمة التي يبلغ عددها ربع ساكنة الأرض، لا تعدل أهل البلد الواحد في القيمة.

أما العمل بالفقه الكامل، فإنه يعود بنا إلى الفاعلية والقوة. القوة "الذاتية" (نعني القوة في النفس) التي هي أساس كل قوة؛ بل كل قوة بعد ذلك هي مظهر من مظاهرها فحسب.

الفصل السابع

المعيارية بين الفقهين

إن من أهم الموانع عن إدراك فقه الباطن، اختلاف المعايير بينه وبين فقه الظاهر، مع كونها تعود إلى نفس الأحكام. هذا أربك بعض العقول الكليلة، فظنت أن هذا الاختلاف يدل على عدم صحة أحد الفقهين. وبما أن الترتيب العادي يعطي الأولوية لفقه الظاهر، من حيث كونه أسبق إلى إدراك العبد؛ فإن الشك وعدم الوثوق كانا من نصيب الفقه الثاني عندهم. وتعللوا في ذلك بكون الدين واضح الأحكام، لا يحتاج فيه المرء إلى كثير تفلسف حتى يدركه. ونسوا أن الإنسان نفسه ظاهر وباطن، وظاهره أضبط لدى الناظر البسيط من باطنه. فهل يكون هذا عذرا لإلغاء باطن الإنسان؟! فنصير نميز بين الناس باعتبار ألوانهم وأطوالهم وصفاتهم المحسوسة فحسب! هذا لا يقول به أحد، ولا يعتمده أحد؛ حتى أهل فقه الظاهر أنفسهم.

إذا كان الأمر هكذا، فليعلم المرء أن الأحكام لا تتعدد، ولكن تنزيلها على مجالين مختلفين، يعطيها مظهرية مختلفة. فمثلا: إن عبادة الأصنام الحجرية يعد شركا في الظاهر. وهذا لا ينكره أحد! لكن الشرك في الباطن يتعلق بالأصنام المعنوية. ولا فرق في الحكم القاضي بكون الشرك شركا، سواء أاعتبرنا الظاهر أم اعتبرنا الباطن. فعن جابر بن عبد الله، قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال: « أيها الناس إياكم وشرك السرائر!» قالوا: يا رسول الله، ما شرك السرائر؟ قال: « يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهدا لما يرى من نظر الناس إليه،

فذاك شرك السرائر »[٤]. فالشرك الخفي ليس خفيا إلا باعتبار الحواس. أما من حيث الحكم فهو شرك. نعم، إن من الفقهاء من عده شركا أصغر، بالمقارنة إلى الشرك الجلي الأكبر حتى يعطي المراتب حقها. وهذا حق! لكن الشرك هو الشرك من حيث الماهية والمادة. فاعلم هذا!

الأحكام تتأرجح في مد وجزر بين الحس والمعنى، الغيب والشهادة؛ وللمراتب دخل في الميل إلى طرف دون طرف أو في الاعتدال. فالعامة يُعرف عنهم أنهم يغلب عليهم الميل إلى الحس، وهم لا يكادون يميزون ما يتعلق بالباطن. لذلك تجد مراعاتهم لمتعلقات الأحكام لا تكاد تخرج عن الحس والشهادة. وبما أن أغلب الفقهاء -خصوصا في زمننا- لا يتعدون مرتبة الإسلام من الدين، فإنه يغلب عليهم ما يغلب على العامة، بل إنهم منهم رغم ظنهم عكس ذلك. فتجدهم لا يكادون يعتبرون إلا المعايير الظاهرة الحسية في الأعمال. حتى إذا استُفتوا، لا يسألون إلا عن الشروط الظاهرة في الأعمال؛ ويفتون على ضوئها. مع أن نصوص القرآن والسنة مليئة بالشروط الباطنية والمعايير القلبية. وهم بهذا العمل، محرفون للدين ولو عن غير قصد. والعامة يناسبهم ذلك، لأنهم لا يريدون فتاوى تلزمهم بمراعاة باطنهم وبتمحيصه.

ومن غلو بعض الفقهاء، أنهم خرجوا بمعايير الباطن إلى الحس، إمعانا فيه، ودخلوا بمعايير الظاهر إلى القلب، إنكارا منهم للغيب وفرارا منه. ففي مسألة الشرك مثلا: اعتبروا الشرك العملي والشرك اللفظي، وقصروا الشرك عليهما؛ بينما الشرك متعلَّقه الباطن أكثر من الظاهر. وفي مسألة التوحيد جعلوا المعيار حسيا، بسؤالهم الناس: أين الله؟ بينما التوحيد معرفة قلبية

---

[٤] . أخرجه ابن خزيمة في صحيحه والبيهقي في السنن الكبرى وشعب الإيمان وابن أبي شيبة في مصنفه بإسناد حسن.

غيبية. وإن كان قد ورد السؤال بـ"أين" في السنة في نازلة مخصوصة، فإنه من سوء الفهم جعلها عامة، وتقييد المؤمنين على اختلاف مراتبهم بها.

نحن لا ننكر ظهور رشحات الباطن على الظاهر، ولكن فرق بين هذا وبين أن نخلط المعايير ونخرج بها عن حدودها. فكم من عمل قد يتوهم الفقيه منه الشرك، وهو خالص؛ وكم من عمل ظاهره توحيد وهو شرك. فمثلا المصلي –انطلاقا من الحديث السابق– لا يرى الفقيه منه إلا صورة الصلاة، فيحكم له بالتوحيد؛ فإن كان هو ممن يعتبر نظر الناس إليه في صلاته، فقد خرج إلى الشرك دون أن يشعر الفقيه. فإذا حكم الفقيه بما تعطيه الصورة، دون مراعاة باطن المصلي –الذي غالبا ما يخرج عن إدراكه– فإن حُكمه يكون مجانبا للصواب، ومخالفا لحكم الله في هذا العمل. فهل سيكون الفقه هنا، مساعدا للعبد على تبيّن طريقه، أم سيكون مضللا له؟!

نخلص هنا، إلى ضرورة اعتماد الفقه المعاييرَ الظاهرة والباطنة معا، حتى يكون الحكم شرعيا على التمام.

ولا بد هنا أن نميز بين أئمة الفقه المؤسسين للمذاهب ومن داناهم ممن جاء بعدهم، وبين المقلدين القاصرين. فإن الأولين كانوا يعتنون بأحكام الظاهر ولا يغفلون أحكام الباطن؛ لأنها كانت داخلة في تدينهم في أنفسهم. فإما كانوا يدلّون عليها بحالهم ومقالهم، وإما كانوا يسكتون حتى يتركوا الكلام فيها للمتخصصين من أهل التصوف والورع والزهد.

ومن الجدير أن نذكر أنّ الفقهين الظاهر والباطن، لم يكونا بعيدين عن بعضهما في البداية بسبب وحدة الفقه من حيث الجوهر. لكنهما مع الزمان، صارا يتباعدان شيئا فشيئا، بسبب دخول آفة الميل إلى الدنيا على فقهاء الظاهر.

ولعل القارئ قد لاحظ أن الفقه الباطن يستدعي شروطا خاصة حتى يتحقق، ومن ورائه يتحقق كمال الفقه الذي ندل عليه.

الفصل الثامن

شروط فقه الباطن

إن لكلٍّ من الفقهين شروطا تناسبه، أي تناسب مجاله. ففقه الظاهر يشترط العلم باللغة العربية، والعلم بالكتاب والسنة، والعلم بمراتب الأحكام وبأنواع الأدلة، والعلم بالقياس وفروعه، والعلم بأحوال الناس (ظاهرها).

أما فقه الباطن، فيُشترط له زيادة على الشروط السابقة، نور البصيرة. نعني بنور البصيرة هنا النور التام الذي يعطي الكشف وليس النور الذي يعطي الإيمان. هذا على العموم. أما اندراج بعض الأميين في أمتنا ضمن كبار فقهاء الباطن عبر العصور، فذلك يقتضي نورا كبيرا، يعوضهم عدم اتصافهم بالشروط المشتركة. وخذ مثالا على هؤلاء سيدي عبد العزيز الدباغ رضي الله عنه، الذي كان يحل لتلميذه (العالم) مشكلات المسائل الفقهية، بما يبهره.

واعلم أن السبب في ذلك، أن الفقه في الأصل من علوم الوهب. فإن حديث: « من يرد الله به خيرا، يفقهه في الدين »[٥]، يدل على أن التفقيه للعبد يكون من الله. وهذا هو عينه ما عنيناه بالوهب. أما التفقه على أيدي الأساتذة من الفقهاء فهو وإن كان من الله، إلا أنه ينزل درجة عن الأول، ويسمى كسبا في مقابلة الوهب. والأمر على هذا الترتيب، لأن النبوة التي هي أصل كل فقه، من الوهب لا من الكسب. والأصل دائما غالب في الاعتبارات عند المحققين.

---

[٥] . أخرجه الشيخان.

هذا المعيار، غاب أو غُيّب عند جل فقهائنا بسبب اتباع الهوى. فصاروا ينكرون على كل من لم يسلك طريقهم، وهم لا يعلمون أنهم يجترئون على الله ويعرضون أنفسهم للمقت.

والنور الذي قلنا إنه شرط في فقه الباطن، لا بد أن يتحقق العبد به في نفسه، فيكون على نور من ربه في كل صغيرة وكبيرة. فإن لم يكن، فلا بد أن يصحب ذا نور حتى يأمن على نفسه الزيغ. وهذا هو أصل اتخاذ مشايخ التربية عند القوم.

والأمر وإن كان جليا من حيث التأصيل و"منطق الأشياء"، إلا أنه صار منبهما عند عموم المسلمين: بسبب تعمية فقهاء الظاهر عنه أولا (عن قصد أو عن غيره)، وبسبب قلة الصدق عند الناس في طلب الحق ثانيا.

ولئن كان النور شرطا في فقه الباطن، فإن لتحصيله شرطا لا غنى عنه البتة: ألا وهو الاتصال برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يحصل الاستمداد الخاص الذي إذا أنكره الفقيه، يكون كمن يقطع أصل كل فقه وهو لا يشعر. وذلك لأن مستند الفقه بالمعنى الكلي هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ففقه الظاهر يحصل عن طريق الخبر، وفقه الباطن يحصل بالاستمداد الخاص. وكلاهما منه صلى الله عليه وآله وسلم، كما كان كل شيء في الوجود منه.

والإقرار بطريق في الفقه دون طريق، هو من قصور العلم والإدراك عند العبد. ولن يشفع له فيه عند ربه تقليد أو عرف.

نتعجب كيف لا يسأل الناس أنفسهم –والفقهاء في مقدَّمهم-: لم بلغت أمتنا هذا الانحدار مع كون فقه الظاهر في زيادة عبر الأعصار؟ ومع انتشار علوم الكسب التي ما بلغت في

السابق ما بلغته اليوم من ازدهار؟ وبالتالي: ما الشيء الناقص في تدين الأمة حتى ظهر لديها هذا النكوص عما درج عليه الأولون الأخيار؟

الفصل التاسع

فقه الاستثناء

إن فقه الأحكام كما هو يتعلق بمجالَي الظاهر والباطن، هو أيضا يتأثر بأحكام الزمان والمكان من حيث الظاهر، وبالحال من حيث الباطن. واعتبار الزمان والمكان هو ما جعل الإمام الشافعي يرجع عن مذهبه الأول، عندما رحل من العراق إلى مصر.

أما السُّنة، فكما أنها بيّنت أحكام الفقه الأصلية التي هي مرجع الفقه الأول من حيث التطبيق، إلا أنها دلت على فقه استثنائي متعلق بآخر الزمان، حتى يكون الفقه غير خارج عن سياقه الزمني. وإن عدم تبيين هذا الفقه –الذي هو كقانون الطوارئ بالنسبة إلى القانون العام– هو من الإخلال بمكانة الفقه وبوظيفته داخل المجتمع المسلم. وقد بينت السنة أثر هذا الفقه الاستثنائي في حكم الجزاء على العمل مثلا. فجاء عنْ أبي أمية الشَّعْبَانِيِّ، قال: أتيت أبا ثعلبة الْخُشَنِيَّ، فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أيّة آية؟ قلت: قوله تعالى: يأَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ. قال: أمَا والله لقد سألتَ عنها خبيرا. سألتُ عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال:« بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتَ شحا مطاعا، وهوى متّبَعا، ودنيا مؤثَرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام؛ فإن مِنْ ورائكم أياما الصبْر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم"، قال عبد الله بن المبارك: وزادني غير عُتْبَةَ، قيل: يا رسول الله، أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: بل أجر خمسين

منكم»[٦]. فقد جعل الحديث أجر العمل خمسين ضعفا من الأجر الأصلي، بسبب كون الظروف مختلفة عن الظروف الأصلية. فحيث كانت الظروف مساعدة، كان الأجر على أصله؛ وحيث صارت الظروف معاكسة للمراد بسبب الشح عند الناس واتباع الهوى وإيثار الدنيا والعُجب، صار الأجر مناسبا لما يعانيه العامل في ثباته على العمل.

الحديث جاء في معرض الكلام عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اللذين هما عماد الفقه وأهمّ وظيفة للفقهاء؛ من أجل ضمان سلامة سير الشؤون العامة بما يرضي الله. والحديث ينبه إلى علامات إذا ظهرت في المجتمع المسلم، فإن العمل الجماعي يلتغي، ولا يعود ممكنا إلا على سبيل الندور والاستثناء.

والصفات التي ذكرها الحديث والتي تُعدّل من الحكم الأصلي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا تناولناها جميعا، سنجدها كلها حاضرة عندنا اليوم:

— الشح المطاع: الشح صفة لازمة للنفس. لكن السابقين كان لديهم قوة إيمان تمكنهم من مقاومته ومعاكسة مقتضياته. مجاهدة الشح شرط في وجود الأمة، من حيث ما هي كيان واحد منسجم خاضع لمعايير موحدة. فإذا أطاع الناس شحهم، فإن الأمة تنعدم حكما، ويصير الأمر فرديا. نعم، قد تظهر تكتلات هنا أو هناك، لكن لا بد أن تكون مؤسسة على هوى متقلب أو أغراض فانية، مما لا يمكن أن يساوي وحدة الأمة الأصلية الشرعية.

— الهوى المتبع: الهوى أيضا صفة نفسية، كان الأولون يخالفونها ويلزمون أنفسهم الخضوع للشرع لا له. هذا هو ما يعطي الحرية للإنسان. أما إذا صار الهوى متبعا، فسيكون الأفراد

[٦] . أخرجه الترمذي في سننه واللفظ له وأبي داود وابن ماجه بإسناد حسن.

مجموعة من العبيد تتحكم فيها الشياطين كما تشاء بتحريك أهوائها. هذا النوع من الناس لا يمكن أن يُعتمد عليه في العمل الجماعي المتعلق بأمة أبدا.

— الدنيا المؤثرة: مؤثرة على الآخرة! من يؤثر الدنيا على الآخرة يكون في أكبر حالات الضعف، ويرضى بالذل والهوان لمجرد البقاء المؤقت في الدنيا. فكيف يُتصور ممن هذه حاله أن يتحمل المشاق في سبيل الله وخدمة مصالح الأمة؟! هذا لا يكون!

— إعجاب كل ذي رأي برأيه: هذه الصفة تدل على السفه. وقوم تكون هذه صفتهم، لن يعرفوا مصالحهم ولن يكونوا مؤهلين لتحقيقها. وأي واحد يدخل معهم في أمورهم –إن لم يكن مثلهم– لن يجني إلا التعب والندم، لأنهم أقل عقلا من أن يميزوا حرصه عليهم وبذله لهم. والنتيجة هي نفسها!

من أجل كل هذا كانت النصيحة النهائية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمؤمنين (الأفراد المبثوثين في الأمة) أن لا يشتغلوا بالشأن العام وأن يجتنبوا العوام (الذين أصابتهم الأدواء سابقة الذكر).

بقي أن نقول أن العوام طوائف عديدة، منهم الحكام، ومنهم الفقهاء، ومنهم عامة الناس المعروفون. هذا على العموم! لذلك تجد فقهاء عصرنا –إلا أفرادا مشتغلين بخاصة أنفسهم عملا بالوصية النبوية– أشحة بصفة الفقه على غيرهم من الصادقين، متبعين لأهوائهم ومسخرين "فقههم" لها، مؤثرين للدنيا رابضين على أبواب من يرجونها عندهم، معجبين بحالهم من شدة حمقهم ظانّين أن ترسّمهم بالفقه ينفعهم عند الله.

في هذا المناخ الاستثنائي، ينبغي لطالب الحق، أن يتحراه عند الغرباء، الذين لا صخب حولهم، ولا أصبع يشير إليهم بتعظيم وتوقير. نعني أن من ينكر عليهم يكون أكثر ممن يثني عليهم.

قد يقول قائل: ما بقي إلا أن أعمل بالوصية النبوية وأشتغل بخاصة نفسي!

نقول: هذا يصح إن لم تكن ممن وردت صفاتهم في الحديث ولم يكونوا من العامة. أما إذا كنت منهم، ووجدت صفاتهم فيك، فأنت مطالب بالسعي إلى خلاص نفسك وعودتك إلى آدميتك.

فإن قلت: فأين أجد من يأخذ بيدي، وقد تغيرت المعالم واختلت الموازين؟

قلنا: صحِّح القصد منك أولا، ثم انظر بين المسلمين من غير أن تتقيد بما شاع في عصرك. فإذا وجدت من يبذل لله ويخالف هواه ولا يلتفت إلى الدنيا ولا يهمه أتّبعه الناس أم ولّوا عنه، فالزمه واصبر نفسك معه، فإنه غير مأمور بصبر نفسه معك.

ذكرنا هذا، لأن كثيرا من المساكين يفهمون الحديث على غير وجهه، فيرومون العزلة وهم على ضعف في الإيمان، وعلل قلبية تودي بهم في أقل الأزمان؛ فيصيرون هدفا لتلاعب أصغر شيطان. فالحذرَ، الحذر!

الفصل العاشر

التجديد الديني

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ التوبة: ١٢٢. التفسير الظاهر معروف وهو يتعلق بحكم الخروج إلى الجهاد ورسول الله قاعد، أو بنيابة النفر عن عشائرهم في الإتيان إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أجل التفقه في الدين والعودة إلى قومهم يعلمونهم، أو بالتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا غزا، مما هو مذكور في كتب التفسير؛ لكننا سنعرض لمعنى آخر إشاري يتعلق بحال الفقهاء المجددين في كل زمان بالمقارنة إلى قومهم أهل زمانهم. هذا التفسير يصلح للأزمنة المتأخرة حتى ينالوا حظهم من الآية الكريمة؛ فإنا نعلم أن القرآن يخاطب أهل كل زمان بما يناسبهم، وليس فهمه محصورا فيما فهمه الأولون. وهذا بعينه إعجاز كلام الله!

نعلم أن التجديد الديني لا يخلو منه قرن من القرون؛ فقد جاء في الحديث: « إنّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلّ مائة سنة من يجدد لها دينها »[٧]. ومَن هنا قد تدل على الواحد كما فهمه بعض الأولين، كما قد تدل على أكثر منه؛ بحسب خصوصية كل زمن. فإنا رأينا أن تعميم الحكم الواحد على الأحوال المختلفة مما تتعذر صحته دائما. والواقع المعيش أو التاريخي، يشهدان على ما نقول.

---

[٧] . أخرجه أبو داود في سننه.

كما أن بعث المجدد أو المجددين على رأس المائة، لا يعني أنهم يُبعثون في اليوم الأول من السنة الأولى من القرن؛ وإنما يدل على أنه لا يخلو قرن من مجدد، سواء أكان في أوله أم في وسطه أم في آخره. وحيثما وُجد المجدد فهو رأس القرن، اعتبارا لمرتبة المجدد عند الله. وذلك أن شرف الأزمنة والأمكنة يكون على قدر الحال فيها. وهذا من الحكمة في اعتبار المواطن. وهو علم نفيس.

فتجديد الدين قد يكون متعددا، بتعدد أوجه الفقه التي أرجعناها سابقا إلى اثنين: فقه ظاهر، وفقه باطن؛ وقد يكون المجددون في كل شق من الشقين المذكورَين أكثر من واحد، كما سبق أن أشرنا.

فتجديد فقه الظاهر، يكون بتنزيل الأحكام الشرعية على النوازل الحادثة، ويكون باستحداث أحكام تسد فراغ التشريع في العصر بحسب ما تدعو الضرورة إليه. أما التجديد في فقه الباطن، والذي هو تربية القلوب وإصلاحها، فيكون بالتصدي للأدواء الحادثة عند أهل كل زمن، بما يناسبها من الأدوية النبوية. والتجديد في الظاهر أو فيما يتعلق بالباطن معا، لا بد فيه من العودة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يكون هو المجدد حقيقة؛ ويكون المجددون المعلومون عند أهل الزمان صورا له اقتضتها الحكمة الإلهية. ولا يخفى ما في هذه المنزلة من شرف النيابة عن النبوة، وشرف اللحوق بمنزلة النبوة وظيفةً لا حقيقة؛ حيث كانت النبوة قد انقطعت بعد سيد الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام.

والتفسير الذي نراه هنا للآية الآنفة هو التالي:

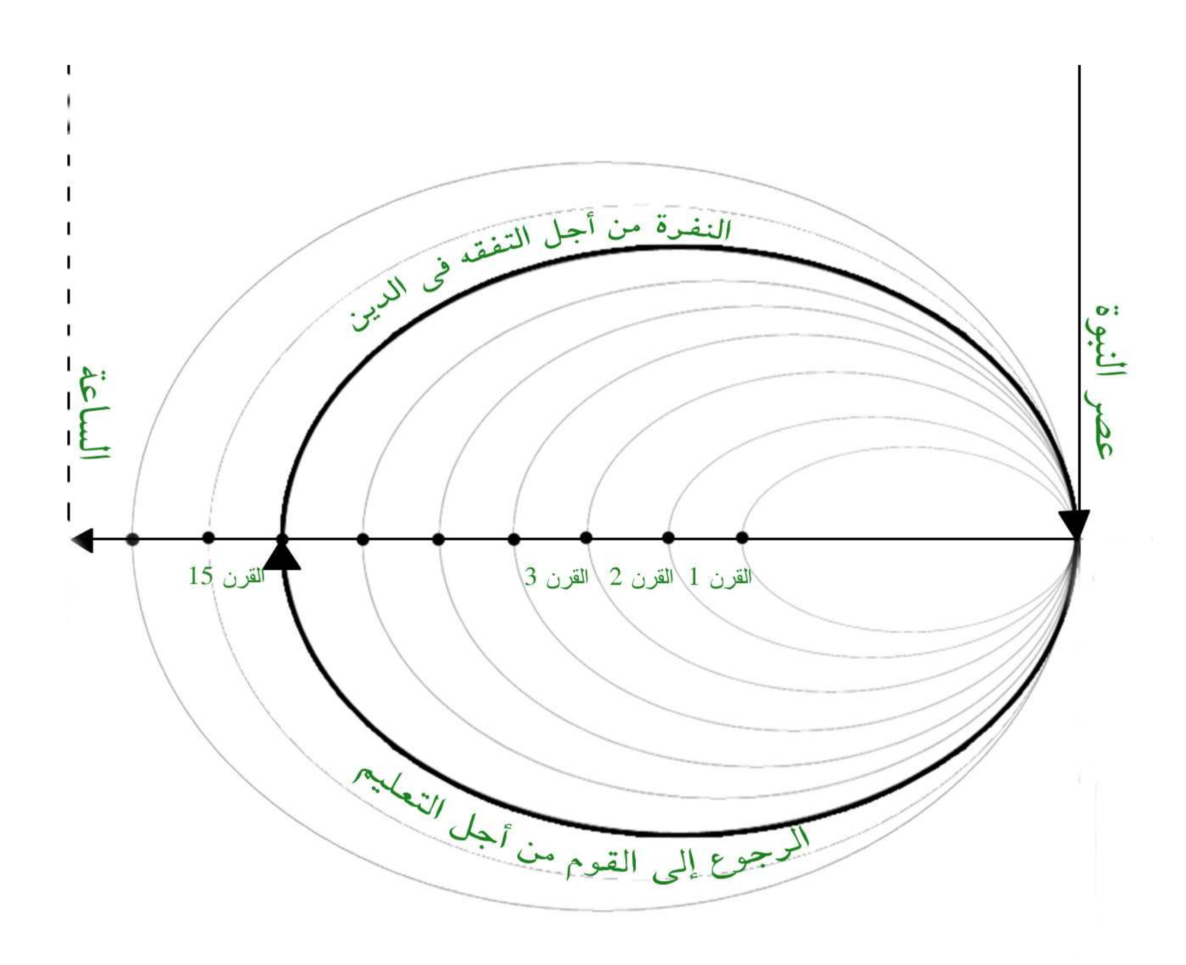
﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾: ما كان لأهل الزمان أن يخرجوا من قرنهم، يطلبون مواصلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كافة. ذلك أنه ليس في مقدور كلهم ذلك. فإن الخروج عن تقييد الزمان لا يستطيعه إلا الأفراد ذوي الاستعدادات الخاصة.

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ ﴾: فلولا خرج من كل قرن جماعة يطلبون النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ليتفقهوا في الدين. ولا يكون التفقه في الدين بالمعنى الأصلي إلا على يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم حصرا. خصوصا وأن التجديد ينبغي أن يعود بالدين إلى حقيقته بعد أن يكون قد تعرض لبعض التحريفات. هذا يعني أن التجديد هو غير الاجتهاد المعروف، بل هو أرقى منه درجة إن علمت ما نرمي إليه.

﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾: بعد تحصيل الفقه على يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يرجع هؤلاء المجددون إلى أهل قرنهم يعلمونهم دينهم. وقد جاء التعليم بلفظ: "لينذروا" و"لعلهم يحذرون" اللذين يفيدان التخويف، ليناسب ما يلحق الدين من التحريف. فإن الشخص المعتاد لصورة مخصوصة من التدين، وإن كانت مجانبة للصواب، لا يعود عنها إلا بالتخويف. والتخويف لا يحصل إلا بمدد نبوي خاص يزعزع القلوب من المجدد عن مألوفاتها.

ولعلك قد استشففت من وراء كلامنا، أن التجديد في التربية القلبية أساس كل تجديد بعده؛ لأنه الأصل في تصحيح العبد علاقته بربه، وتمتين علاقته به؛ سواء أكان من الفقهاء في العرف أم لم يكن.

رسم توضيحي:



الرسم مبسط بحيث يوهم أن اللقاء بين المجددين، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يكون بالعودة من كل قرن إلى زمن النبوة؛ وهذا يوهم بأن الدين تاريخي. بينما الحقيقة أن اللقاء يتم خارج الزمان، إلا أن يكون المجدد صاحب تجديد جزئي فقهي ظاهري؛ فإنه

يبقى تحت قهر الزمان الذي هو فيه، ويأتيه المدد الكشفي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما يفتح له مغلقات المسائل.

الباب الثاني

علم التصوف

الفصل الأول

علم المتشابه

إن علم الأحكام، يقتضي العلم بالمحكم وبالمتشابه. وقد ذكر الله ذلك كله في قوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ آل عمران: ٧. ذكر الله أنه أنزل الكتاب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، منه آيات محكمات، وأخر متشابهات. الكتاب هو الوجود. والآيات المحكمات، ترجع في الأصل إلى صفتي الوجود والعدم. وهي أم الكتاب، لأن الوجود المخلوق يرجع إليها في أصل ظهوره. فالعالم، ممكن. والممكن أصله الوجود والعدم: فهو برزخ بينهما. والبرزخ جامع للطرفين. وكل الآيات التي تعود إلى

الإمكان هي متشابهة. ومعنى كونها متشابهة، هو كونها لها وجهان: وجه إلى الوجود، ووجه إلى العدم. وهذه الأحكام العقلية (نعني بالعقلية هنا كونها مدركة للعقل لا مولَّدة له) هي أصل الأحكام الشرعية؛ بل هي عينها، لكن في مرتبة أدنى. فقد جاء في الحديث:« إنّ الحلال بيّن وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبِهات لا يعلمهنّ كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملِك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[٨]. فالحلال أصله الوجود، والحرام أصله العدم، والمشتبهات تعود إلى الإمكان. وانظر كيف أن الآيات المحكمات والحلال والحرام، أمور بيّنة، يعلمها كل الناس؛ بينما الآيات المتشابهة، والمتشابهات من الأحكام، لا يعلمها إلا قليل من الناس. وذكر الله كيفية التعامل مع الكتاب؛ ففرق فيها بين الذين في قلوبهم زيغ، والراسخين في العلم. فالذين في قلوبهم زيغ، أي ميل عن الصواب، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة التي هي الإضلال، وابتغاء تأويله أي رده إلى معنى أول (متقدم في المرتبة) بحسب ما تعطيه عقولهم. أما الراسخون في العلم، فعطفهم عليه سبحانه في قوله:﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ ﴾آل عمران: ٧. باعتبارين: بالوقف على الله، فيكون ما يعلم تأويله (حقيقته)

[٨]. أخرجه مسلم عن الشعبي عن النعمان بن بشير.

إلا الله. والراسخون في العلم يقولون آمنا به (أي بالكتاب) كل (أي المحكم والمتشابه) من عند ربنا (أي حق). والاعتبار الآخر بالوقف على العلم. فيكون: وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم (فيكون للراسخين علم بتأويل المتشابه). يقولون...إلخ. فالراسخون في العلم بالنسبة إلى آي الكتاب، كالقلة العالمة بالنسبة إلى أحكام الشرع.

واعلم أن العلم بالآيات المحكمات، هو الذي يعطي الفصل بين أحكام الربوبية وأحكام العبودية؛ وأساسه التنزيه. وهو ما يليق بمعرفة العوام، سواء كانوا ممن يُعرفون بهذا عرفا، أم كانوا من عامة الفقهاء.

أما الذين في قلوبهم زيغ، فهم يُلحقون الممكنات بأحد الأصلين. فمنهم من قال ما في الوجود إلا الله، ويعني بذلك أن المخلوقات هي نفس الله من كل وجه؛ ومنهم من ألحق الممكنات بالعدم من كل وجه كالسفسطائية والدهرية ومن نحا نحوهم. والذين يقولون بهذا إما شياطين يضلون بمقولاتهم العباد، أو غير علماء يريدون إرجاع الممكن إلى أحد أصليه، وحقيقته تأبى ذلك.

فالتوحيد العام (المعروف لدى العموم)، يتعلق علمه بالمحكمات؛ أما التوحيد الخاص، فيزيد عليه بعلم المتشابهات. وبحسب الآية السابقة، فلا مدخل في التوحيد الخاص إلا للراسخين في العلم. وليسوا إلا أئمة الصوفية!

فكل كلام أهل الطريق، الذي ينكره عامة الفقهاء، يدخل في العلم بالمتشابهات. يتضح من هذا أن الإنكار على هذه الطبقة من العلماء، هو إنكار على الراسخين في العلم. ويكفي هذا مخالفةً لمدلول الآية القرآنية، التي نبهت إلى وجودهم، ومن ورائه إلى وجوب لزوم الأدب معهم.

والخوض في المتشابهات، آيات وأحكاما، لا يأمن المرء فيه على نفسه أن يكون من أهل الزيغ الراتعين في حمى الله. هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى: كيف يصلح أمر أمة ينكر فيها عامتها على خاصتها؟! بينما الواجب مراعاة الترتيب الذي يجعل الراسخين أئمة هادين، والعامة تابعين!

وقد نبه المعلم الأول والطبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، إلى مدار الأمر، الذي هو القلب. وجعل صلاح القلب -الذي هو الخاص من الإنسان- سببا إلى صلاح الجسد الذي هو العام منه. تنبيها إلى أن العامة من المسلمين لا يكون صلاحهم إلا بالائتمام بخواص العلماء.

والقلوب، لا تصلح إلا بالتربية على أيدي الربانيين الراسخين. فمن أراد أن يكون عالما بالأمر عاملا به، مهتديا حقيقة بالكتاب والسنة، فقد أبنّا له الأمر. والله يهدي إلى سواء السبيل.

الفصل الثاني

العِلمان

قال أبو هريرة رضي الله عنه: "حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وِعائين. فأما أحدهما فبَثَثْتُه، وأما الآخر فلو بثثته قُطع هذا البلعوم"[٩]. تكلم ناس في هذا الحديث، فمنهم من جعل العلم المكتوم متعلقا بالأمراء (الحكام الذين يأتون بعد الخلافة)، وفهم الحديث فهما سياسيا؛ ومنهم من جعله متعلقا بالحقائق التي تُجاوز إدراك العامة، فقسموا العلم إلى خاص وعام، وهم الصوفية. وهذا مذهبنا.

ومن الناس من اعترض على هذا التقسيم، بدعوى أن الإقرار بوجود علم باطن، سيفتح الباب أمام الزنادقة ليقولوا أن ما هم عليه من ضلالات هو من هذا القبيل. ونسوا أن الظاهر والباطن من أسماء الله. وهما نسبتان ثابتتان في الوجود لكل شيء. فالإنسان له ظاهر وباطن، والعلم له ظاهر وباطن والعمل له ظاهر وباطن، وهكذا... أما كون الباطنية يدّعون أنهم على علم باطن، فهو أمر آخر؛ ذلك أن كل باطن ينقض ظاهرا هو باطل. أما إن كان الباطن يعضد الظاهر فهو ما نعنيه.

والعلم المبثوث من أبي هريرة رضي الله عنه، هو العلم العام الذي أُمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتبليغه إلى عموم الناس. وهو العلم الذي يحفظ معالم الدين ويرسي حدوده،

---

٩. أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب العلم.

حتى لا يكون عرضة لتلاعب المتلاعبين. أما الآخر الذي يفهم من الحديث أنه لا يقبله كل أحد، بل ينكره البعض أشد الإنكار حتى ليبلغ حد قتل القائل به، فهو العلم الذي خُيّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تبليغه.

بعض الناس ينكرون وجود علم خاص؛ وما يعلمون أنهم بإنكارهم يَكفرون ببعض الدين. فالكتاب قد نص أن العلم بالمتشابه لا يعلمه إلا الراسخون في العلم (إلا أن يكون المنكِر يظن نفسه من الراسخين، فوقتذاك يكون جهله مركبا)، ومثل كلام أبي هريرة وهو الصحابي الملازم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لا بد أن يجعل المرء يتوقف عنده؛ وإلا كنا ممن لا يقرّ للصحابة بالإمامة في الدين. والغريب أنك قد تجد هذا المنكِر ممن يزعم لنفسه مذهب السلف (إلا إن كان السلف عندهم غير الصحابة رضي الله عنهم).

لا يمكن أن ينكر العلمَ الخاص، إلا ضعيف عقل يروم أن يحصر كل المُدركات فيما يعقل هو نفسه. ولولا أن النبوة غير مكتسبة، لكان إما زعمها لنفسه، أو اشترط عليها أن لا تخرج عن إحاطته. وهذا لعمري أكبر دليل على فساد العقل!

أما إنكار هذا العلم، بدعوى سد الذرائع، حتى لا يجد الضالون بابا يلجون منه إلى الدين، فهو قريب من السابق، وهو كمن يهدم المساجد حتى لا يجد مُراءٍ مكانا يصلي فيه رياء. ومعلوم أن التفريق بين أصل الوضع، والصفة العارضة ضروري للخوض في مثل هذه المسائل.

ولو عدنا إلى النصوص الشرعية، واختلاف درجة الفهم فيها، لعلمنا أن من المعاني ما يظهر لبعضٍ ويخفى عن بعض. فإن قال قائل: هذا يعود إلى فهم الناظر في النص، لا إلى كون النص يحتمل معنى باطنا! قلنا: فالقرآن الذي هو كلام الله، وكلامه صفته، وصفته ذاته عند من

يقول بهذا، وهو قد وصف نفسه سبحانه بكونه ظاهرا وباطنا، كيف يكون القول فيه؟ فإذا كان للقرآن باطن، فقد ثبت للسنة باطن بالتبع، لأنهما معا وحي.

انظر إلى الإنسان: أنت تعلم منه بالحواس ما يجعلك تفرق بين زيد وعمرو مثلا؛ لكن هل تعلم زيدا من حيث الظاهر والباطن معا، أم من حيث الظاهر وحسب؟! فإن قلت أنك تعلم أن زيدا بخيل وعمروا كريم، وهما صفتان باطنتان بالنظر إلى الحواس، وظننت أنك تعلمهما باطنا؛ قلنا الصفتان اللتان ذكرت، هما متصلتان بالمحسوس، وإن كانتا معنويتين. ألا ترى إلى دلائل الكرم والبخل كيف أنها تظهر في الحس. فالبذل من عمرو والإمساك من زيد يظهران للبصر. لهذا قلنا أن ما أدركته منهما متعلق بالحس، وإن كان به بعض لطافة. أما الباطن الذي نعنيه، فهو الذي وراء الحواس. وهو غيب الإنسان الحقيقي.

خلق الله الإنسان على هذه الصورة ليدلك على كيفية التعامل معه سبحانه! فكن لخطابه فاهما، ولدلالته واعيا! فباطن القرآن هو العلم بالأسماء وتجلياتها، وباطن باطنه هو العلم بالحقائق الوجودية. ولكل علم من هذه العلوم رجال!

العلوم الدينية الشرعية ترجع إلى العِلمين: الظاهر والباطن. وعلم الظاهر، هو كل العلوم الشرعية الكسبية المعروفة، من علم بالأحكام، والتفسير والحديث وغيرها...وتحصيل هذه العلوم هو بالكيفية المعهودة مِن تعلُّم على أيدي أئمتها، صار اليوم يطلب في مؤسسات ومعاهد متخصصة. هذا لا ينكره أحد، ولا يقدح فيه أحد.

أما العلم الباطن الذي هو من النصوص، كالعلم بالصفات المعنوية من الإنسان (وهذا أدناه)، وكالعلم بغيب الإنسان وبغيب غيبه (وهو أعلاه)، فلا شك أنه لا يُكتسب عند

الشيوخ المعلومين، في المعاهد المعلومة! بل لا بد فيه من طلب خاص، باستعداد خاص (لأنه ما كل من طلبه يجده لعزته)، عند شيوخ مخصوصين.

وتحصيل هذا العلم، لا شك يختلف عن العلم الظاهر. فهذا الأخير يُحصل بالدرس والحفظ والنقل؛ ويضبط بالذاكرة أو بالكتابة. وطالب العلم الظاهر مع هذا، قد يكون فاسقا أو حتى كافرا. فإنه قد بلغنا أن بعض المستشرقين حصلوا هذا العلم مع بقائهم على كفرهم؛ حتى صاروا يدلون فيه بآرائهم. وقد سخّروا علمهم ذاك أيضا لتسهيل غزو بلاد الإسلام لما كانوا عارفين بعقائد المسلمين وفقههم. أما العلم الباطن، فتحصيله يكون بتصحيح المعاملة لله، ومجاهدة النفس في سبيل مرضاته، وركوب الأهوال التي لا تخطر على بال علماء الظاهر. فإذا تقبل الله الطالب، كشف له عن علوم وهبية، إذا سمعها من لم يتسلح بالإيمان التام، أنكرها فحُرم فضلها. وفي هذا المستوى، يعلم الطالب كثيرا من الأسرار التي تتعلق بالصحابة رضوان الله عليهم. وبعد هذا، إذا شاء الله لعبده الفوز الأكبر، فتح له باب معرفته الذوقية، فعرف ما لم يكن يخطر له على بال. وفي هذا المستوى يعلم الولي ما تيسر له من أحوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فانظر كم وراء علم الظاهر، من مرامٍ عزت عن أن يتجرد لطلبها كل أحد، بل عزت أحيانا أن تخطر في ذهن أي أحد حتى يطلبها. فالحمد لله الذي منّ علينا بالتصديق والتسليم لخواص عباده، منذ أن وعينا.

وقد تكلم الإمام الشافعي رضي الله عنه في علم الظاهر وحده، وجعله علمين، فقال رضي الله عنه: "العلم علمان: علم عامة لا يسع العاجزَ المغلوب على عقله جهلُه، مثلُ أن الصلواتِ خمسٌ، وأن الله فرض على الناس صوم شهر رمضان، وحج البيت إن استطاعوا، وزكاة في

أموالهم، وأنه حرم عليهم الزنا، والقتل، والسرقة، والخمر، وما كان في معنى هذا مما كلّف العبادُ أن يفعلوه، ويعلموه، ويعظموه من أنفسهم، وأموالهم، وأن يكفُّوا عنه مما حرم عليهم منه؛ وهذا صنف من علم موجود، نصا في كتاب الله عز وجل أو موجود عَامًّا عند أهل الإِسلام، ينقله عَوَامُّهُمْ عمن مضى من عوامّهم، يحكونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ينازعون في حكاياته، ولا وجوبه عليهم. هذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر ولا التّأويل؛ ولا يجوز فيه التنازع. والوجه الثاني: ما ينوب العباد من فروع الفرائض، وما يخصّ من الأحكام وغيرها مما ليس فيه كتاب، ولا في أكثره نصّ سُنَّةٍ، وإن كانت في شيء منه سُنَّةٌ، فإنما هي من أخبار الخاصَّةِ، لا أخبار الْعَامَّةِ. وما كان منه يُحْتَمِلُ التَّأْوِيلِ وَيُسْتَدْرَكُ قِيَاسًا. وهذه درجة من العلم ليس يبلُغها العَامَّةُ، ولم يُكَلَّفْهَا كُلُّ الْخَاصَّةِ، ولا يُحْتَمَلُ بلوغها من الخاصة، ولا يسَعُهم كلَّهم كافَّة أن يعطلوها. وإذا قام بها مِنْ خاصّتِهِمْ مَنْ فيه الكفاءة، لم يخرج غيره ممن تركها إن شاء الله تعالى. والفضل فيها لمن قام بها على من عطَّلها، واحتجَّ بقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾التوبة: ١٢٢ .الآيَةَ. وجعل الشافعي رضي الله عنه، مثالَ ذلك، الجهادَ في سبيل الله عز وجل والصلاة على الجنازة، ودفن الموتى، وردَّ السلام"[١٠]. فانظر كيف جعل هذا الإمام رضي الله عنه، علم الظاهر منه ما لا نص عليه. وانظر كيف أنه جعل علماء الظاهر منهم العامة والخاصة. فإذا كان الأمر على هذا في علم قريب من إدراك غالبية الناس، فكيف لا يكون فيما يتعلق بعلم الباطن الذي هو كالمخ من العظم بالنسبة إلى علم الظاهر. وإن أخذنا بكلام هذا الإمام، فإن علم الباطن الذي نتكلم عنه سيكون من نصيب خاصة الخاصة.

[١٠] . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

وإذا أردت أن تنظر إلى تفاوت العلوم في الشرف، فانظر إلى أدومها صحبة لك. واعلم أن علم الأحكام وإن كان شريفا، به تصحّ أعمالك المستوجبة لجزاء الآخرة، فإنه مع ذلك ينفصل عنك بالموت، حيث لا تكليف. فلا يبقى معك إلا العلم بمواطن الآخرة، والعلم بالله. وهذا الأخير هو أنفع العلوم على الإطلاق؛ لأن الله معك حيث كنت، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾الحديد: ٤. عرفته أم لم تعرفه. لكن شتان بين من عرف ومن لم يعرف! ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الزمر: ٩.

ولنعد إلى أثر العلم الباطن على العلم الظاهر. فهل تظن أن من حصل علم الباطن سيكون علمه بالأحكام، على نفس درجة من لم يحصله؟ لا والله! وهذا هو نفسه ما جعلناه فرقانا بين أهل الحق وأهل الباطل: فأهل الحق يتقوى علمهم بالظاهر، بعلمهم بالباطن؛ أما أهل الباطل فيهدمون (بزعمهم تحصيل علم الباطن) أحكام الظاهر. فيفضحهم الله على رؤوس الأشهاد.

ولتعلم أن معاملتك اللهَ لا بد أن تكون على قدر معرفتك به. لذلك فسر الإمام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦، بقوله: إلا ليعرفون. فلله دره من عالم حبر! وإذا حققت، فكم من عبادة لله تستوجب العقوبة، نسأله العافية سبحانه! وكم من علم (بحسب الزعم)، أضر من جهل! مع أن الجهل صفة ذميمة. فالله الله يا أخي في نفسك! لا تهلكها بإنكار الحق إن لم تكن ممن يصلح لطلبه. فإنك اليوم في سعة متوهمة، قريبا ما تقدم على ربك فيحكم فيك بما يعلمه منك. وليس لك والله منه من عاصم. فإن كنت تأنس في دنياك بأئمة لم يحققوا علمهم ولا عملهم ولا حالهم،

فإنهم يوم الدين أفقر منك وأحوج إلى السلامة، ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾ الانفطار: ١٩.

أما العلم بالله –الذي هو أشرف العلوم على الإطلاق– فينفع أصحابه، وينفع أصحابهم. فإنه رحِم خاصة بينهم وبين الرحمن. إياك أن تُحرم خيرها، ولو بالتصديق العام. ولا تكن كمن يؤمن بها قولا، وينكرها فعلا، فتكون من شر المعادين للحق. فإنا وجدنا منهم جماعة في زماننا يلبسون على الناس دينهم. إن سألت عن أهل الله، تلبسوا لك بلبوسهم، وإن حققت حالهم، وجدتهم ممن قعدوا للناس على الصراط، يقطعونهم عن ربهم. فإياك أن تنخدع بالمظاهر، واقصد ربك بقلبك حتى ينبئك عن مخابرهم فتتقي شرورهم.

وبما أن هذا الباب قد خصصناه لعلم التصوف، فإننا سنعود إلى ما يميزه ويميز أهله من الشروط والصفات في الفصول المقبلة إن شاء الله؛ فيكون ذلك مكملا لما بدأناه هنا من تفصيل. والحمد لله على توفيقه.

الفصل الثالث

الطريق والطريقة

الطريق، هو المذكور في سورة الفاتحة:﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الفاتحة: ٦ – ٧، وفي قول الله تعالى:﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾الأنعام: ١٥٣. فهو واحد لا يتعدد، ومعناه في اللغة واضح. أما الطريقة فهي الأسلوب العملي في اتباع الطريق، ومعناه المطابقة. وقد ذكرها الله في قوله تعالى:﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴾ الجن: ١٦. وهي يصح فيها الجمع، لأنها تتعلق بالصور التجديدية التي تكون للدين عبر الأزمان. لذلك فإن من يقول: "الطرق الصوفية"، يكون قوله مجانبا للصواب، حيث أنه لا طريق إلا واحد. فإن الطرق إذا تعددت كانت طرق ضلال لا هداية. وقد نهى الله عن اتباع السبل في قوله سبحانه:﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾الأنعام:١٥٣. فالأولى أن يقال:"الطرائق الصوفية". هذا من التحريف الذي لحق الطريق والطريقة معا، وهو من أساليب الشياطين، في التلبيس.

أما من لم ير فرقا بين الطريق والطريقة من حيث المدلول كأبي طالب المكي في "القوت"، فإنما كان ذلك منه، لإلحاقه الفرع بالأصل؛ حيث أن الطريق هو الأصل والطريقة هي الفرع.

أما لو تحرينا الدقة، فإن الطريق ينسب إلى الله ورسوله، والطريقة تنسب إلى المجدد. لذلك نجد الطرائق الصوفية تسمى قادرية ورفاعية وشاذلية وغيرها...

والتجديد، لا بد أن نعتبر فيه المتغيرات التي هي نفسها ما يجعلنا نميز الطرائق بعضها عن بعض. هذه المتغيرات لا ينبغي أن تعارض الأصول الثابتة من الطريق، وإلا ما عُدّت من الطرائق التجديدية قطعا. فالسنة النبوية مستمرة مع الطريقة، بل الطريقة من سنة الخلفاء المهديين، التي ما نسبت إليهم إلا للتمييز بين الأصل والفرع فحسب. فقد ورد في الحديث: «...فعليكم بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاء المهديين الراشدين تَمَسَّكُوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ...»[١١]. فلولا أن السنة النبوية مستمرة بسنة الخلفاء، ما ذكرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم. والخلفاء الراشدون المهديون غير محصورين في الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم، كما يفهم أغلب الناس؛ ذلك أن هذه الصفة ما كانوا معروفين بها في زمن النطق بالحديث، وإنما كانت هذه صفة عامة لكل الخلفاء من الزمن الأول إلى قيام الساعة. وإنما اختص الأربعة رضي الله عنهم مع من يشاركهم في خصوصيتهم، بالخلافة التامة؛ والتي هي الجمع بين خلافة الحكم وخلافة الإمامة التربوية؛ بينما كل أئمة الطرائق قد اختصوا بشطر الخلافة التربوية. والتربية التي نعنيها هنا، والتي جعلناها معيارا في تبيّن التجديد، هي التربية القلبية التي يكون فيها المربي وارثا نبويا بالمدد الغيبي. نقول هذا، لأن أكثر المسلمين لا يميزون بين هذا النوع من التربية، والتربية العامة التي يُعتمد فيها التوجيه القولي والوعظ. التربية التي نعنيها هي نفسها تربية الأنبياء عليهم السلام.

---

[١١] . من حديث أخرجه أبو داود وابن ماجة والدارمي في السنن، وأحمد في مسنده، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.

والطرائق التي رأينا أنها تُنسب إلى الأئمة المعروفين، قد تفرعت وصارت مستمرة إلى جنب بعضها بالخلافة داخل كل طريقة. أما في الأصل فهي كانت متراتبة من حيث الزمان، يتقدم بعضها بعضا، ويتخلف بعضها عن بعض. هذا التراتب، هو الذي يدل على أصلها، وأنها طرائق تجديدية في وقتها. أما فيما بعد، وعند تواجدها في مظهر الخلافة الجزئية داخل نفس الحيّز الزماني، فإنها لا تكون تجديدية؛ بل قد يكون التجديد من نصيب طريقة وليدة ذاك الزمان على الخصوص. أما إن كان المجدد في الزمان تابعا لطريقة مجدد سابق، فالأجدر أن تُنسب الطريقة في زمانه إليه لا إلى الإمام الأول، حتى تصح الدلالة على المجدد. هذا لا يقدح في الحفاظ على النسبة الأولى أدبا. وأما في الحقيقة، فإن المجدد لا ينتسب إلا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه يأخذ عنه لا عن سواه.

أما فيما يعود إلى المقولة المشهورة: "لله من الطرائق بعدد أنفس الخلائق"، والتي قد يتوهم الناظر أنها على معنى الطريق الذي بيّنّاه أو على معنى الطريقة، فإن الطرائق فيها بمعنى الطرق، لكن بنسبة خاصة فردية شخصية لا تتعلق بما أردناه في هذا الفصل. ولعلنا –إن شاء الله– سنعود إليها فيما يناسبها من الفصول المقبلة.

الفصل الرابع

الخلافة والوراثة

الخلافة التي نعنيها هنا، لا تتعلق بشق الحكم، وإنما هي الخلافة التربوية التجديدية. وذلك أن الناس طغى عليهم المعنى الأول بسبب توجه القلوب إلى الدنيا، ووقوعها تحت أسر الحس؛ وبسبب تغييب المعنى الثاني للخلافة عند جل الفقهاء الذين هم القيّمون على الدين في نظر العامة.

ولكي نعلم أوجه الخلافة، لا بد من العودة إلى المستخلِف، والوقوف على أوجه التصرف لديه. فإن علمنا أن المستخلِف هنا هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من حيث كونه خليفة لله، وإن استثنينا وجه الحكم كما أسلفنا، بقي لنا وجه الدلالة على الله، بالمعنيين العام والخاص. وحيث علمنا أن الدلالة العامة عن طريق تبيين الأحكام، هي من نصيب الفقهاء مع قصور جلي في الأزمنة المتأخرة لديهم، فإن المتبقي لنا هو الدلالة الخاصة بالوراثة الباطنية (في مقابل الظاهرية التي للفقهاء) التي هي المقصودة لنا في هذا الفصل.

هذه الخلافة هي الواردة في قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ آل عمران: ٧٩. فالخلفاء هم الربانيون، الذين يؤتيهم الله كتاب التعريف (لا التشريع)، ويعطيهم الحكم -في الباطن- بتصريف الأسماء الإلهية. فهم مشتركون مع الأنبياء عليهم السلام في بعض ما لديهم. لذلك نفى الله عنهم أن يكونوا على

كل ذلك، ثم يدعوا الناس إلى عبادتهم من دون الله. وتقييد الدعوة إلى نفوسهم من قِبل الله بلفظ "من دون الله" فيه سر لمن كان من أهل السمع. أما نحن فلن نذكره هنا خوفا على النفوس الضعيفة من الفتنة.

فالربانيون هم الأنبياء عليهم السلام، ومن كان على قدمهم من أهل وراثتهم. ولقد رأينا تساهلا كبيرا في عصرنا في إطلاق صفة الربانيين على أي أحد ممن تُعتقد فيه غزارة العلم والصدق في النصيحة، بحسب إدراك العامة. وهذا لعمري، يُخل بالمعاني والمراتب، التي ينبغي أن تكون موافقة لحكم الله. فالربانيون –نسبة إلى الرب– هم القائمون بالله في الدلالة عليه سبحانه. فهم عبيدٌ أرباب، بمعنى التربية الإلهية، لا التربية العامة. ولا تستعظم تسميتنا لهم بالأرباب، فإن يوسف عليه السلام أطلقه على العزيز الذي تولى تربيته في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ يوسف: ٢٣. فمعنى الربوبية هنا لغوي، وهو شرط في المعنى الاصطلاحي. فرّقنا بين المعنى اللغوي الصرف وما نريد، لأن المعنى اللغوي يتحقق بالتربية العامة أيضا، ونحن قصدنا التمييز. وإنما عرجنا على اللغة، حتى نسهل عليك قبول الصفة. فإن الإيمان في زماننا ضعيف، وأقل عائق معه يقطع المرء عن الحق. وقد فرق الله بين الربانيين وغيرهم من العلماء، في قوله سبحانه:﴿ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ المائدة: ٦٣. فأسبق سبحانه ذكر الربانيين في النهي عن الآثام (وهو من التربية بمعنييها) عن ذكر الأحبار الذين هم الفقهاء العالمون بالأحكام. وما الربانيون هنا إلا الأنبياء عليهم السلام إن وُجدوا، أو خلفاؤهم. هذا هو المعنى الذي نقصده بالخلافة. فاحفظه!

ونيل مرتبة الخلافة، هو ما نعنيه بالوراثة، والوراثة وراثة للنبوة أولا. فمن تحققت له الوراثة الكلية للنبوة، فهو وارث محمدي. أما من ورث نبوة جزئية، فإنه يُنسب إلى نبي من الأنبياء السابقين وإن كان في زماننا. فيقال منهم العيسوي، والموسوي، والإبراهيمي، وغيرهم... وإنما يكون التمييز بين ورثة الأنبياء، بخصوصية السر الذي امتاز به كلٌّ منهم عليهم السلام.

فأئمة الطريق لدى أمتنا (أصحاب الطرائق) منهم المحمديون، وهم أكابرهم رضي الله عنهم، ومنهم غيرهم من الورثة.

أما الوراثة التي هي معروفة عند المنتسبين، والتي يعنون بها وراثة شيخ لشيخ داخل طريقته، فهي وراثة جزئية مجازية. ذلك أن الشيخ الوارث للشيخ الأول، إنما يأخذ الميراث من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه هو صاحبه بالأصالة. يرثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل مرة من الاسم "الوارث"، ثم يعطيه لصاحب النصيب. والإعطاء، يكون بالمعنى الكلي إن كان الإرث كليا، أو يكون بالمعنى الجزئي إن كان بعضاً. ومن هنا قد يرث الولي عدة أشخاص ممن قبله، كما قد يرث الواحد؛ ويتوزع سر الموروث على عدة وارثين، كما قد يختص بواحد. فالعبرة بمرتبة الوارث والموروث كليهما.

فإن ظهر للشيخ الوارث أنه أخذ السر عن الشيخ الذي قبله، فهذا يعني أنه صاحب وراثة جزئية، لا يحق له فيها الخروج عن طريقة (المنهاج التربوي) الشيخ الأول. فيكون كالفقيه الذي يقلد إمام المذهب. أما الوارث كامل الوراثة، فهو إمام مستقل، وبهذا وحده يُعد مجددا.

ولقد رأينا خلطا كبيرا عند المنتسبين لطريق التربية، يؤدي بهم إلى الخلط في الأحكام والإخلال بالمراتب. فهم يُطلقون الأوصاف، دون تمييز حقائقها. وهذا كله من نقص التربية، وعدم الاشتغال بالأولى.

وكمال الوراثة النبوية، الذي ذكرناه، هو غير الكمال الذي يتصف به الولي في نفسه؛ والذي يتحقق له بمجرد حصول السر له. فلا تخلط!

أما من يُخلفه شيخ غير رباني، أو يُنصبه المريدون، فهو لا صلة له بالوراثة؛ ولا يُعد شيخا في عرف أهل الطريق. وقد اختلط الأمر كثيرا على الناس في زماننا، حتى ما عادوا يُفرقون بين شيخ وشيخ؛ بل قد يُقرون بالأمر للدَّعي، ويُنكرونه على أهله. وهذا –لا شك– من أعظم أبواب الفتنة!

ثم إن الناس يخلطون أيضا بين شيخ التربية وشيخ السر. وذلك أن الوارث قد يكون الشيخ الذي رباه هو نفسه موروثه؛ كما قد يكون غيره. فإذا أخذ سره عن غير مربيه، يكون له إذ ذاك شيخ تربية، وشيخ سر (أو يكون له عدة شيوخ). والناس لا يرون إلا الظاهر، فيظنون أنه أخذ سره عن شيخه الذي يعرفون. ولو تحرَّوا الصدق في هذا الأمر، ما نطقوا فيه بشيء حتى يكون صاحب الأمر هو من يُخبرهم عن شأنه فيه. فالأمر متعلق في أحد جانبيه بالغيب، والغيب لا يُطلع الله عليه إلا من شاء. وهذا الأصل الذي نذكره هنا، يكاد لا يعرفه أحد من المريدين؛ فتجدهم يتكلمون في الإرث والخلافة بكلام جله جهل، يحجبهم ويحجب غيرهم عن الحق.

الفصل الخامس

الشيخ الرباني والتربية

الشيخ الرباني الكامل، هو من تحققت له المعرفة بالله الذوقية، وتصدى لتربية غيره بإذن من الله ورسوله. فالشيخ الذي يخلف شيخا آخر داخل طريقته، ولم يتحقق بذلك، لا يكون شيخا بالمعنى الاصطلاحي كما سبق أن بيّنّا؛ وإنما هو كالنقيب أو العريف. ومثل هذا لا يتمكن من تربية المريدين، وليس له تصرف في الإمدادات. وبهذا، لن يُحصل المريدون معه السلوك، وإنما ينالون التبرك من ورائه بالإمام الأول، إن هم حافظوا على الآداب الشرعية، من سلامة قلب وتعظيم لشعائر الله.

وقد شاع وجود "شيوخ التبرك" في الطرائق المعروفة، حتى غطى على الربانيين في زمانهم. فالناس لا تميز بين الشيوخ، لعدم ضبطهم المعايير. أما إذا تحكم الجهل وأطيعت العصبيات، فإنك سترى وتسمع ما لا يستقيم له عقل ولا شرع. حتى أصبح مجال التصوف عند جل المتأخرين، مجمعا للخرافة والدجل.

أما الشيخ الرباني، فإما أن يكون محمدي الوراثة، أو أن يكون على وراثة أخرى. وفي كلتا الحالين هو دال على الله به، لكن مع تميز المحمدي عن غيره كما أكدنا مرارا. كل هذا لا يهم المريد الطالب، وإنما نورده من أجل التصنيف العلمي وحسب. أما المريد، فلا ينبغي أن يشغله من شيخه إلا الله، حتى يحصل له كمال التوجه الذي يكون سببا إلى كمال الاستمداد.

١. من علامات الشيخ الكامل:

ا- أن لا يكون من أهل الاختلاف: فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ هود: ١١٨ – ١١٩. فالكامل ليس له مع من يختلف، لأنه واحدي المشهد؛ أما من دونه، فيختلف. وما نقوله لا ينقض الاختلاف الشرعي، وإنما هو يتعلق بعلم الحقيقة. فإن كان الشيخ غير كامل، وكان له تلاميذ، فإنه سيحصرهم في عقيدته التي هي نصيبه من معرفته بالله. فالكمّل هم المستثنَوْن في قول الله: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾. فرحمتهم رحمة خاصة، وهي منسوبة إلى رب المخاطب الذي هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وربه هو "الله"، الاسم الجامع. لذلك فمن كان ربه الله من الشيوخ، فهو من نعني بالكامل: المحمدي على التحقيق، وغيره باعتبار الوجه الخاص الذي يختص به الوارثون تبعا للأنبياء عليهم السلام. وذلك أن لـ"الله" وجوها لا يتحقق بجميعها إلا المحمدي. وغيره يتحقق ببعضها دون بعض. وهذه الوجوه التي هي لـ "الله"، هي باقي الأسماء.

وقد ذكر الله الوجه والوجوه في القرآن، فقال سبحانه: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ١١٥. فالوجه هنا وجوه متعددة بسبب تعدد الوجهة. وما من عبد إلا وهو متولٍّ وجهة؛ إذن، فما منهم إلا وهو متوجه إلى وجهٍ لله. فالوجوه هنا هي كل الأسماء الإلهية. لذلك، خُتمت الآية بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. ولا أوسع من الأسماء الإلهية!

أما الوجه في مثل قول الله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ الأنعام: ٥٢، فهو يعود إلى "ربهم"، ورب كل واحد هو الاسم الذي يتولاه. ومثله قول الله:

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ الرعد: ٢٢. فربهم الذي يبتغون وجهه هو الاسم الخاص بهم.

وأما قوله سبحانه: ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾البقرة: ٢٧٢، فلأن الإنفاق عام عموم كل الأسماء، وهو بهذا يعود إلى الله. من أجل هذا كانت منزلة الأسخياء عند الله عظيمة. ومثله قول الله:﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الروم: ٣٨. فإن إيتاء كل ذي حق حقه على الشمول هو لله. فحتى الأسماء الأخرى هو مؤتيها حقها. فاعلم هذا!

والشيخ إن كان ربه "الله" فإنه يدل تلاميذه عليه، فلا يتقيدون في وصولهم باسم دون آخر، وتكون لهم المعرفة التامة. أما إن كان وليه اسم دون "الله": فإن كان عاما كالرحمن والرب، فهو تخصيص لمعنى عام في الله؛ وإن كان وليه اسما خاصا، فهو ليس كاملا، ولن يدل تلاميذه إلا على الاسم الخاص به في وقته. وهذه معرفة جزئية لا تخرج بصاحبها من الاختلاف المذكور سابقا.

ب- أن لا تكون تربيته نمطية: نعني على شاكلة واحدة. وذلك لأنه يدعو تلاميذه إلى "الله". والدعوة إلى الله تتحقق بدعوة الطالب من الاسم الذي يتولاه في وقته إلى الاسم الذي يليه في القرب، وهكذا من اسم إلى اسم، حتى يصل إلى الله إن كُتب له ذلك. وهذا هو نفسه السلوك الذي يتكلم عنه أصحاب الطريق (بالمعنى العام). وهذه هي نفسها التربية، أي الانتقال من رب إلى رب حتى يبلغ رب الأرباب. وقد درج السلف على إطلاق صفة رب الأرباب كثيرا في كتبهم؛ كما لازالت مستمرة في كلام بعض الناس، من غير أن يروا في ذلك حرجا؛ لكن أيضا من غير أن يعلموا وجه الكلام الذي نذكره هنا. وما كل أحد سيفهم منها ما دللناك

عليه، لأنه من علوم الكشف الخاصة. ولولا أننا نريد رفع اللبس الذي يتخبط فيه كثير من المنكرين على أهل الله وكثير من المنتسبين، لما ذكرنا ذلك صونا له أن يقع عند غير أهله. والله بالغ أمره.

وإن التربية التي نشترط فيها أن تكون غير نمطية، هي نفسها التربية التي تحققت للصحابة رضي الله عنهم على يد أشرف المربين عليه وآله أفضل الصلاة وأزكى التسليم. فإنك إن نظرت إليهم تجد كل واحد منهم نموذجا فريدا، في علمه وحاله. هذا المعنى هو الذي أجلنا الحديث عنه سابقا، والذي انطلقنا فيه من مقولة:"لله من الطرائق، بعدد أنفُس الخلائق". وذلك أن الله الواسع، عندما خلق الخلق، جعل كلاًّ منهم على استعداد لا يشاركه فيه أحد. نعني أنه لا تطابق في الاستعدادات، وإن وقع التشابه. فإن كان الأمر هكذا، فلا بد أن يسلك كل عبد طريقا خاصا به إلى ربه. يدعوه فيه الشيخ من الاسم الجامع إذا كان كاملا، من الوجه المناسب له، بالاسم الفرعي المناسب في كل مرحلة. هذا الطريق الشخصي، هو المذكور في قوله تعالى:﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ هود: ٥٦. الدابة في مجالنا هي كل سالك إلى الله، بالمعنى العام أو بالمعنى الخاص. فبالمعنى الخاص، هو ما كنا نتكلم عنه؛ وبالمعنى العام، هو عائد على كل عبد من العباد، سواء أكان برا أم فاجرا، مؤمنا أم كافرا. فالكل سالك إلى ربه. وإنما اختُص المريدون بالسلوك اصطلاحا، لإظهار الخصوصية فحسب. وهذا –أي السلوك بالمعنى الشامل– من أهم أبواب المعرفة. والغاية التي يصل إليها السالكون من كل طريق، بغض النظر عن كون الطريق طريق هداية أم طريق ضلال، هي الله. من وجه من الوجوه (أي اسم من الأسماء). ومنهم من يصل إليه في الدنيا (وهم الخواص)، ومنهم من يصل إليه عند الموت أو في البرزخ أو في الجنة أو في النار. هذا المعنى

هو ما يدل عليه قول الله: ﴿ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ ، فأين تريد أن يأخذ بها، إن لم يكن إليه؟ وما ثم إلا هو سبحانه! وهو عينه ما ختم الله به الآية: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ . فالله على صراط كل سالك، والاستقامة وإن كانت عامة، فهي تختلف في القرب والبعد بحسب ما بيّنّاه.

أما التربية النمطية، فهي تربية فكرية، لا سلوك معها البتة؛ وهي توافق إدراك العامة الذين لا يتوكلون على الله. ففرق بين من يطمئن إلى فهمه، ومن يُسلم أمره إلى ربه. وعمدة السلوك كما هو معلوم: التوكل؛ وإلا ما استطاع أحد أن يخطو خطوة واحدة إلى الأمام. فالسلوك ميدانه مجهول، والمؤثرات غيبية، والعمل قلبي فردي. فكيف يطمئن السالك إلى علمه أو ظنه فيه؟!

ولن نطيل في ذكر علامات الشيخ الكامل ولا صفاته، لأنه يخرج عن إدراك الخصوص، فكيف بإدراك عامة الناس! ومعلوم لدى أهله، أن الشيخ، كلما كان مقامه عاليا، غاب عن إدراك الناس، حتى لا يعرفه بالإضافة إلى أهل السماء، إلا أفراد من أهل الأرض.

وأغلب من تجد الناس متجمهرين حوله من الشيوخ، إما هو من العامة، وإما هو من الكُمّل لكن من يتبعه لا علم له بحقيقته، وإنما هو يستأنس بكثرة العدد مثلا، ليُطمئِن نفسه أنه على الحق. فتعلقه بغير الشيخ، وإن كان في الظاهر معه. وقد رأينا من هذا النوع كثيرا من الناس؛ بل لعله الغالب في أنواع المنتسبين. وعلامة هؤلاء أنهم يُقدمون جميعا، أو يُحجمون جميعا؛ بخلاف من كان تعلقه بالشيخ، فهو لا يتأثر بغيره أبدا.

٢. المعرفة والعلم بالله:

الشيوخ ينقسمون إلى قسمين، بحسب درجتهم عند الله. ولا بد أن يُميّز المرء هذا الأمر؛ وإلا سيقع في خلط، لا يستطيع معه أن يفرق بين الأعلى والأدنى؛ خصوصا وأن الولاية في مراتبها الدنيا، تكون أقرب إلى إدراك العامة من الولاية في مراتبها العليا. ولو كان الأمر يقف عند هذا الحد، لما دعا إلى التوضيح المُلح؛ لكننا نعلم أن قليلا من الناس من يشتغل بخاصة أمره، ويترك عنه الوقوع في كبار أهل الله. ومعلوم أن من يفعل ذلك، فإنه يعرّض نفسه للتهلكة. وإن كان الله ينهى عباده المؤمنين أن يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة بسبب عدم إنفاقهم في سبيل الله، بقوله سبحانه: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾البقرة: ١٩٥؛ فكيف يكون الأمر مع مبارزة الله بالحرب عند معاداة أوليائه؟! فقد جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه: « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»[١٢].

أولا، يجب أن نفرق بين "عرف" و"علم"، وإن كانا في اللغة من المترادفات. وذلك بأن نعود إلى الوحي، فإنا سنجد الله تسمى لنا بالعليم والعالم، لكنه ما ذكر أنه عارف، أو قال سبحانه عن نفسه أنه يعرف. نستنتج من هذا، أن المعرفة تكون إجمالية فحسب؛ بخلاف العلم الذي يكون إجماليا وتفصيليا. وبهذا يكون العلم أشمل في الدلالة.

والواصل في عرف القوم، يُسمى عارفا؛ لأن مقامه المعرفة بالله على الإجمال. فإذا ترقى حتى نال المعرفة التفصيلية، التي هي العلم بالله حقيقة، فإنه يُسمى عالما بالله. وكان يمكن أن يُسمى عالما فحسب، ولكن السبق إلى استعمال المصطلح في أنساق علمية مخصوصة، صار يمنع من ذلك حتى لا يقع الإبهام أو اللبس.

---

[١٢] . أخرجه البخاري.

وقد رأينا أن المنتسبين إلى طريق السلوك، قليل منهم من يُفرق بين المعنيين؛ بل إن أغلب الشيوخ المشهورين –إن كانوا ربانيين– يكونون من عوام العارفين. ونحن عندما نبيّن هذه التفاصيل، فإنا لا نريد إقصاء أحد، بقدر ما نسعى إلى أن يلتزم الناس الأدب مع من يعلمون حاله، ومع من لا يعلمون. نعني أننا نريد تيسير سبل الانتفاع واجتناب الأذى فحسب.

الفصل السادس

ما يحصله الطالب مع الشيخ

الشيخ الذي نعنيه هنا هو الكامل. والطالب الذي نعنيه، هو طالب وجه الله بصدق. فإنهما إن لم يكونا معا على هذا الشرط، فلا كلام عن ثمار السلوك. وإنما هو البعد والحجاب، يتستران تحت أثواب من الكلام الأجوف والأحوال المصطنعة، للتلبيس على الناس. ولا تغني عن الذهب صُفرةٌ يطلى بها الحديد!

ولكي ينتفع الطالب من الشيخ، فعليه أولا أن يعتقده. وهو أن يجزم بقلبه أنه متبع له بنية أن يسلك به طريق القرب من الله، على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا العقد يكون بينه وبين ربه. فإن وفى، فله عند الله ما لأهل الوفاء؛ وإن نقض فعليه نقضه. ومن لا يعتبر هذا العقد، فلا يأتي منه شيء في طريق القوم.

ثم بعد ذلك عليه أن يأخذ ورد الشيخ بإذنه، ويعمل بكل ما يوصيه به فيه. فلا يزيد ولا ينقص. كل هذا، بعد أن يؤدي لله ما افترضه عليه، ويتوب من كل ما نُهي عنه، ويُرجِع الحقوق إلى كل من أخذها منه. فإن سلوك الطريق هجرة إلى الله ورسوله. ومن السنة في الهجرة أداء الأمانات. وافهم عنا – يرحمك الله – وجه المطابقة بين الظاهر والباطن، ولا تكن من أولئك المحجوبين الذين لا يعقلون.

فإذا أخذ الطالب الوِرد، وتفرغ للذكر، فإنه يكون بحسب ما سبق له عند الله. فلا عبرة بالزمن هنا، ولا بالعمل. وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء. فإن قلت: فإذا كان الأمر يعود إلى السابقة ومحض الفضل، فلمَ لا يبقى الطالب في بيته على حاله، وما كان من قسمته يصله!

قلنا: لقد ذكر في الحديث عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أنه قَالَ: « اطلبوا الْخَير دهركم، وتعرضوا لنفحات رحمة الله عز وجل؛ فإن لله عز وجل نفحاتٍ مِن رحمته يصيب بها من يشاء من عباده؛ واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم »[١٣]، وإن أعظم النفحات أن تكون مع رباني. ولولا جهل الناس بأحوال الربانيين، لصاروا يتدافعون على أبوابهم، يبيتون عليها من أجل أن يحظوا منهم بنظرة. ولكن لله حكما في ذلك.

ولعل فيما سنذكره من أمور يحصلها الطالب مع الشيخ، ما يفصّل قولنا عنهم إنهم أعظم نفحة بالنسبة إلى أهل زمانهم خصوصا.

١. الذهاب بسكرة الدنيا: الناس سكارى من الدنيا، سحرتهم بجمالها. فقد ورد في الحديث: « إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلِفُكم فيها، فينظر كيف تعملون. فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء »[١٤]. ومن شدة سكرتها تجد المرء يسمع مثل هذا الحديث، فلا ينفعل له؛ بل يكون كمن يسمع عن بعد أو كمن يسمع وهو نعسان. أما مع الشيخ الرباني، فإن السكرة تذهب ببركته. ويصل التحذير النبوي إلى القلب فيجد منه فَرَقا يكاد يتصدع منه. يكون هذا سببا في التوبة النصوح.

٢. الحرية: من أعجب الأمر، أن مما يتكلم به منتقدو التصوف، أن يقولوا إنه يسلب الناس حريتهم في اتخاذ "قراراتهم". ويستدلون بمقولات الصوفية أنفسهم من مثل اشتراطهم على

---

[١٣]. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير وابن أبي شيبة في مصنفه وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن.
[١٤]. أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

المريد أن يكون بين يدي شيخه، كالميت بين يدي غاسله. والسبب أنهم يقيسون بنفس المعيار في مجالين مختلفين. وسنضرب لك مثالا قبل التفصيل حتى تعي ما نذكره. وذلك أننا سنأخذ المجالات المعرفية (نقصد المراتب) على أنها مجموعات الأعداد في الرياضيات. فأول ما يبدأ التلميذ في المستوى الابتدائي، بالأعداد الطبيعية. فهو لا يعلم إلاّها، ولا يتصور وجود أعداد غيرها. وهو يحسن العمليات الأربع بها. فهو مثلا، يستطيع طرح اثنين من خمسة بسهولة. ويفهم منطق العملية التي يجريها. تصور الآن أن نفس التلميذ أطل على فصل أعلى، يجري أحدهم على اللوح العملية الآتية ضمن مجموعة الأعداد الصحيحة: **٢-٥**=...، فماذا سيكون رأيه فيها؟ لا شك أنه سيظن أن واضع العملية قد أخطأ في ترتيب العددين، وأن الصواب هو: **٥-٢**! هذا هو ما عنيناه باستعمال نفس المعيار داخل مجالين مختلفين.

لكن قبل التفصيل في الكلام أيضا، لا بد أن نقر أن من يتبع شيخا غير كامل، قد يصيبه ما ذكره المنتقدون وأكثر منه. نقول هذا حتى لا نغطي عن عيوب المنتسبين الذين يتخفَّوْن خلف أئمة الطريق الربانيين، فيريدون أن يُقَرّ لهم بمثل ما لهم. وهذا تلبيس واضح!

الخلط الذي وقع فيه القائلون، هو بين مجال التربية (بما تعتمده من وسائل)، ومجال الثمرات الذي يخضع لمنطق آخر غير منطق التربية. فالحرية التي ذكرناها نحن، من النتائج. ذلك أن العبد إذا تمت تربيته، تخلص من كل تسلط لأي شيء من دون الله على قلبه. فهل يعرف الناس حرية أكبر من هذه؟! ووالله من ذاقها، فإنه يهنأ بعيشه في الدنيا قبل الآخرة. وقد أشار القرآن إلى هذه الحال في قوله سبحانه:﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ الزمر: ٢٩ . فكل الناس إذا لم يتحققوا بالعبودية لله (هي غير العبودية المدّعاة بمجرد أداء سطحي للشعائر)، هم بين

شركاء متشاكسين فيهم. فلا أشق من عيشةٍ هذا صاحبها. أما الذي تحققت له العبودية، فهو يعامل ربا واحدا، فلا تشاكس ولا تعارض. هو يعلم ما ينبغي أن يُفعل ظاهرا وباطنا، ويعلم ما يجب أن يُترك. هذه هي الحرية عندنا! ومن رام حرية بمعنى غير ما ذكرنا فقد غلط في الاسم.

أما توهم المنتقدين من استلاب للمريد، إذا صار بين يدي شيخه كالميت بين يدي غاسله، فهو لسببين:

١. هم يجهلون حال الشيخ الرباني، ويظنون أنه يحب أن يترأس على بني جنسه، ويتلذذ بالتحكم فيهم. وهذا غلط! فهم يقيسون حاله بما يعلمون من أنفسهم. ونفوسهم مازالت عليلة لم تتزكَّ بماء الشرع، على الفهم الصحيح النوراني. فقياسهم مردود! ومثلهم في هذا كالأعمى (الأكمه) إذا قاس حال المبصر على حال نفسه. فما أبعد ما ذهب به عقله السقيم! ولا تظن أن التمثيل هنا بالأعمى والبصير، هو من قبيل المبالغة، لمجرد أن الحس أقرب إلى إدراكك؛ بل هو والله الحق الصريح، الذي لا زيادة فيه ولا نقصان. لكن المعانيَ ما يُدركها كل أحد. فالعيبُ في الناظر لا في المعنى.

٢. هم يجهلون العلة التي يُطلب لها أن يكون المريد مع شيخه كالميت، وهي أن يتمكن الشيخ من تخليصه من تحكم نفسه. فالشيخ كالطبيب الذي يسأل المريض أن يسلمه نفسه، بقصد أن يستأصل له ورما دماغيا مثلا. فهل ترى أن انقياد المريض هنا، من النباهة، أم من العِيّ؟ وفي المقابل: تصور نفسك، تأتي إلى هذا المريض وهو على منضدة العمليات، فتحرضه على تركها، أو على منازعة الطبيب الجرّاح. كيف سينظر إليك المريض نفسه؟ أم كيف سينظر إليك أهله والممرضون؟! فإذا فهمت ما نعنيه، فاعلم أن المريد أحوج إلى شيخه من ذاك المريض إلى

طبيبه. وذلك أن الطبيب يخلص مرضاه من علل الأبدان، والشيخ يخلص مريديه من علل القلوب. والقلوب هي التي عليها مدار السلامة الأبدية. فإنه يومَ القيامة، لن ينادى بأصحاء الأجسام إلى الجنة وبعليليها إلى النار؛ وإنما سينادى بسليمي القلوب إلى الجنة، وبعليليها إلى النار. وقد قال الله تعالى:﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء: ٨٨ - ٨٩ . فصحح يرحمك الله مفاهيمك على نور من الوحي، ولا تكتف بالمعتاد لديك. ثم بعد هذا، قس عليه أمر الوساطة التي تنكرها العامة على أهل الله. فالوساطة التي يظنها الناس من الشرك في زعمهم، هي لا وساطة؛ لكنهم لا يعلمون حقيقتها. وعدم اتخاذ الوساطة بحسب ظنهم هو القطيعة عن الله، والتعرض لكل ضروب الشرك. فلا تأخذ صور الأمور بسطحية تُخل معها بالمعاني المقصودة. واسأل أهل الذكر (المتحققين به) إن كنت لا تعلم؛ فإن الله جعل لكل شيء سببا، وسبب العلم السؤال.

٣. مجاوزة الإدراك العام:

لا زلت أذكر أنني عندما كنت طفلا، وكنت أتوقف أمام بعض المظاهر جاهلا حقيقتها، غير عارف بما يلزمني تجاهها، أعزي نفسي بالنظر إلى من هو أكبر مني سنا، وأقول: لا يُهم، هناك من يعلم ما لا أعلمه أنا. فأنا الآن يكفيني الاقتداء والوثوق بهم. وعندما أكبر، سيعلمونني ما أجهله فأصير مثلهم. فلما كبرت، واطلعت على أحوال الناس، عجبت من كونهم يكادون لا يعلمون شيئا عن أنفسهم أو عما يحيط بهم. وعجبت أكثر من قناعتهم بجهلهم.

أغلب الناس إن حققت، لم تكبر منهم إلا الأجسام؛ ورغم بياض شعر بعضهم، فهم في سلم الإدراك أطفال. لا نقول هذا انتقاصا من أحد، ولكن نريد أن ننبه إلى هذه الحقيقة الرهيبة. قال أحد الحكماء: "لولا الحمقى، لخربت الدنيا!". والحمق أنواع ودرجات.

من يظن أن الدنيا خلقت، ليتخذها قرارا، فهو أحمق. ومن يظن أن تحقيق الأغراض، وقطع المنغصات (بحسب ما يستطيع)، هو ما كُلّف به إن كان يعتقد بالتكليف، أو هو محور شغله إن كان غير ذلك، فهو أحمق!

الحمق المعلوم عرفاً، هو أفضل درجات الحمق. وأحمق الحمقى من يظن أنه خرج من دائرة الحمق بتوافر العقل المعاشي لديه فحسب. فإذا فهمت عنا، فاعلم أن صفة العقل الآدمي، لا تتحقق إلا بشروط، أساسها اثنان:

١. الخروج من الحمق الأكبر: بالإسلام لله. نعني بأن يدخل المرء في دين الإسلام، بحسب الشروط التفصيلية المعلومة.

٢. الخروج من الحمق الأصغر: بمعرفة صحيحة للدين، حتى لا يُحرم خيره وهو في دائرته. ولولا اعتبار أصل الدين، لجعلنا هذا الصنف من الحمق هو الحمق الأكبر؛ لأنه مع دخوله الحمى، ما استفاد شيئا من ثمار الدين التي يرتقي بها عن مرتبته.

وما رأينا من ينبه إلى شروط الانتفاع من التدين، إلا قليلا من أهل زماننا. لذلك، سنتكلم عن مرتبتين من التدين الصحيح.

ا. التدين العام: وهو المتعلق بإتيان الطاعات، واجتناب المعاصي. يُحرم الناس من فضل هذه المرتبة، بالنظر إلى أفعالهم والاطمئنان فيها إلى الأجر الموعود، بدل أن يكون نظرهم إلى "وجه" ربهم، والتحقق بالأدب مع المعبود. فأغلب الناس –ولقد سمعنا هذا من أكابر فقهاء

العصر- يظنون أن لهم استقلالية من حيث الإرادة والقدرة عن ربهم. وأنه كان يمكن أن يختاروا الكفر (وكأنه من حقهم، على الأخص بحسب فلسفة حقوق الإنسان المعاصرة)، ومع ذلك اختاروا طريق الإيمان الصعب. فلهم المنة ولهم الفضل. فيُقبِلون على الأعمال المشروعة بعقلية المحاسب، وينظرون إلى الجزاء عند الله نظرهم إلى المَبلغ الذي ينبغي أن يُحصّل من صاحب العمل؛ والذي هو الآن في حُكم الدَّيْن. والمصيبة، أنهم جعلوا هذا الارتكاس، من صحيح الدين. وما هو إلا من دلائل الحرمان الكبيرة. فلا أشد حرمانا من هؤلاء إلا الكفار! وأفضل منهم بكثير بسطاء المؤمنين المساكين، الذين لا يرون لأنفسهم مزية في دنيا أو دين.

كيف يعتبر العامل عمله، وتقصيره فيه غالب على أدبه؟ وكيف يعتمد عليه، وهو مخلوق لله، ليس له منه إلا النِّسبة؟ وكيف يطمئن إلى حاله، وهو لا يعلم حكم الله فيه؟

ما أرى إلا أن أغلب "المسلمين"، يعاملون ربهم بأقل مما يرضونه لأنفسهم ممن هم دونهم في زعمهم، من مرؤوسين، وخدم، وأولاد،... مع أنهم لم يخلقوهم ولم يرزقوهم. فكيف يرضون بمعاملة الله بما لا يليق؟! ومنه سبحانه أتاهم كل خير؟

ب. التدين الخاص: وهذا الشق من التدين لا يتم إلا بولوج الجانب المعرفي الذي للدين. أغلب الناس ينظرون إلى الدين على أنه مجموعة أوامر ونواه، ليس وراءها مرمى. بينما الحقيقة أن جانب الأحكام الذي يعلمونه، ليس إلا واجهة الدين؛ ومن خلفها بحر لا ساحل له من المعارف التي جهد العقلاء على مدى الأزمان أن يظفروا بقطرة منها، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. للدين منظومة معرفية كاملة إذا جُهلت، كان التدين ناقصا حتما.

هذا الشق المعرفي، متعلق بالله. إذ كيف يعبد الإنسان ربه دون أن يعرفه حق معرفته. قلنا "حق معرفته" لأن كل عبد مهما صغر شأنه له معرفة بربه، بغض النظر عن حكمها. ولكن كيف يرضى العبد بأدنى درجات المعرفة والطريق أمامه مفتوح، إلا إذا كان ممن لا حظ له؟!

إن من ينكر هذا الشق المعرفي-الذي لو أُذن للفلاسفة بسلوكه ما سبقهم إليه أحد- إنما ينبئ عن جهله بحقيقة الدين من جهة، وإن كان ممن يشار إليه في زمانه؛ ومن جهة ثانية يُبين عن ضعف تدينه في نفسه؛ بحيث لا يصح أن يُتخذ قدوة أبدا. وما رأينا هلاك الناس إلا بتقديم هذا النوع ممن يزعم أنه على فقه، وهو أقرب إلى العمى.

أحد الأئمة السابقين (ولعله أبو حامد الغزالي رحمه الله) ضرب مثلا بالحاج يهيء دابته ويصلحها، فينشغل بها عن موعد الحج، والناس قد ذهبوا وعادوا. فهل ترى مثل هذا على دين أو على عقل؟ فكذلك الدين، إنما جُعل للوصول إلى الله. فمن فاته هذا، فقد فاتته حقيقة التدين. وعلامة الانحجاب بالدين (الذي هو الاشتغال بإصلاح المركوب في المثل، من غير إدراك للحج) هي الاشتغال بتفاصيل ضروب العلوم الدينية وإفناء الأعمار فيها، مع الخصومة لها والانتصار، والدخول في معارك ملهية عن الغرض الأصلي، الذي هو معرفة الله. وليت شعري، أي علمٍ ينفع مع الجهل بالله؟ وأي فقهٍ يبقى، مع تفويت الغرض؟

فصحبة الربانيين تُخرج من الإدراك العام الذي يكون منحرفا في أغلبه، إلى صحيح الإدراك في المرتبتين العامة والخاصة، اللتين عرضنا لهما آنفا، بسهولة ويسر، ومن غير تكلف؛ لأن الرباني كالمُولّد لمجال كهرمغناطيسي، إذا ولجته مصابيح لها استعداد، أضاءت. ومن جرّب عرف!

٤. إدراك الربانية:

الشق المعرفي الذي مر بنا، تكلمنا عنه بعموم لا يفي بالغرض. وقد يظن الناظر فيه أن العلم المجرد هو نفس الربانية التي نتناولها في مختلف فصول الكتاب. بل وجدنا في زماننا من يكتفي بمطالعة كتب أهل الله ودراستها دراسة عقلية، يظن أنه يصل بذلك إلى ما وصل إليه أئمتنا المشهورون. والحق غير ذلك!

إن محاولة الإحاطة علما بطريق الربانية بما اعتادته العقول سواء باعتماد المنطق العام أو باعتماد المنطق الفقهي، هو على العكس، من أسباب الانحجاب عنها وحرمان ثمارها.

طريق الربانية لا يغني عن الذوق فيها شيء. ولا عبرة فيها بالعلوم المكتسبة أو بالإكثار من الأعمال. ولعل هذا هو ما يغضب الفقهاء دائما من أهلها؛ فهم لا يحبون أن يُنظر إليهم كغيرهم من الناس، وأهل الله لا يُحابون أحدا في الله. العبرة في طريق الذوق بالعمل وفق إشارة الشيخ الرباني، وترك حكم النفس وأهل الأهواء. وإنه لأمر عسير إلا على من يسره الله عليه. فطريق الحق لا يكاد يطيقها أحد من العباد. وجل من يزعم أنه يسلكها، إنما يسلكها بهواه. لذلك لا يجد لها ثمارا مما دل عليه الكتاب والسنة. والشيخ هنا هو الضامن للمريد أن يسير على الحق. والسير على هذا المنوال، يُنتج الانتقال من طور إلى طور ذوقا. وهو شاق على النفس كثيرا، لأنه يدخلها في الأحوال المختلفة، بل والمتضادة أحيانا. فتكون كالشيء الذي ينتقل من الحرارة إلى البرودة وبالعكس. لكن الشيخ يأخذ المريد بما لا يختل معه مزاجه.

ثم إن كثيرا ممن خبر بعض مراحل الطريق، يظن أن العلم الذوقي بمقاماتها، هو المعرفة التي عند الربانيين. والحق غير ذلك! فالعلم الذوقي بمراحل الطريق لا شك يُنتج معرفة بالله مجردة بحسب كل مرحلة –هي ما أسميناه في بعض كتبنا "العقيدة المتطورة"– بالإضافة إلى العلم الخاص بكل مقام حل فيه السالك. هذا العلم الخاص الذي تعطيه المقامات، هو

فقه السلوك، أو فقه الطريق. وهذا الفقه هو تماما كالفقه الظاهر بالنسبة إلى صور الأعمال، غير أنه يزيد عليه بمراعاة الأحوال. وهو علم نفيس ما رأينا من يُحسنه ممن ينتسب إلى الطريق إلا أفرادا معدودين على تفاوت كبير بينهم. هذا الفقه، هو فقه الباطن حقيقة.

أما المعرفة الذوقية التي للربانيين، فهي أمر آخر. فهي لا تُسمى علم الباطن إلا مجازا، ومن قبيل تسمية الشيء بسببه؛ وذلك لأنها تتعلق بالظاهر والباطن، بمعنى أنه لا نسبة لها إلى أي منهما. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الصفة في قوله سبحانه: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ النور: ٣٥. وهذا العلم، لا يكون مجردا أبدا، ولا يصح تصوره؛ ولذلك سُمي سرا. ومطالعته في الكتب أو سماعه من أهله لا يُحصِّل بهما لعزته، إلا بالإذن. بل حتى لو صار المرء يتكلم بكلام أهله، لظهر للعالم به خلوه منه. ولا يزيد مدعيه في الناس إلا افتضاحا.

هذا العلم هو الذي يدور عليه الوجود كله، فهو أشرف العلوم في الأرض وفي السماء. من ناله، فقد نال الملك الأعظم. ولهذا قال بعضهم: "لو علمت الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف". يعني أنه أعظم من الملك المعهود، حتى ليرى الملوك معه أنهم ما عندهم شيء. ولا تظنَّ أن في الكلام مبالغة، بل هي الحقيقة والله!

هذا العلم، لا يناله طالبه بعد إذن الله، إلا بصحبة الربانيين. وكل من يظن غير ذلك فهو واهم. نعم، قد يحصل للمريد الفتح من طريق غيبي كما حدث للشيخ الأكبر قُدس سره؛ لكن مع ذلك يحتاج إلى شيخ يؤدبه بأمداد الربوبية. سنة إلهية نبوية.

الفصل السابع

أحكام المريد مع الشيخ

في هذا الفصل سنجيب –إن شاء الله– عن أسئلة ترد على أذهان كثيرين من المهتمين، لاحظنا أن الإجابات عنها مختلفة، ولا تستند في كثير من الأحيان إلى شيء من العلم.

١ .هل يجوز للمريد أن يتخذ أكثر من شيخ؟:

في الأصل، لا يجوز للمريد أن يتخذ أكثر من شيخ، لأنه يفترض في الشيخ إن كان ربانيا أن يكفي مريده. لكن يجوز ذلك في حالتين:

ا– أن يكون الشيخ غير واصل، وهو إما شيخ تبرك متبع لإمام حق، وإما محصل لمراحل من السلوك، فهو يدعو إليها. فمثل هذا الشيخ لا يكفي المريد. وهو إن لم يجد شيخا كاملا، يمكنه اتخاذ أكثر من واحد لضرورة الجمع بين الجميع تعويضا عنه. وقد أفتى بهذا، الإمام الشعراني رضي الله عنه باعتبار ضعف شيوخ زمانه كما ذكر.

ب– أن يكون المريد صاحب استعداد خاص، يمكّنه من الأخذ عن جماعة دون التنقيص من أحد. فإن تحصيل النفع من جهة، مع التعرض للضرر من جهة أخرى، لا يجتمعان. هذا الاستعداد كان متوافرا لدى التابعين الأُول، فكان بعضهم يأخذ عن بعض دون ضرر.

هذا، باعتبار أن الأخذ يكون في نفس الوقت. أما إذا كان الأخذ عن جماعة شيوخ بالتتابع، فله أحكام أخرى.

ا- إن كان الشيخ كاملا، فلا يجوز له تركه أبدا، إلا إذا أمره بذلك؛ كأن يقول له أنت نصيبك ليس عندنا، وإنما هو عند فلان من الشيوخ. ومن يترك شيخا ربانيا من نفسه باتباع هواه، فإنه لا يأمن على نفسه القطيعة عن الله، حتى وإن صاحب جميع شيوخ الأرض؛ لأن الذي أعرض عنه عند الأول، هو من يطلب عند الثاني. وصحبة الله لها شروط، من فرط فيها كان هلاكه أقرب من نجاته. وجليس المَلك عليه أن يحذر بطشه. وقد هلك قوم بتفريطهم فيما نقول.

ب- إن كان الشيخ غير كامل، فيجوز تركه لمن هو أكمل منه؛ لأن الله هو الغاية. وكل سبب لا يوصل إلى الغاية جاز تركه.

أما كيف يعلم المريد بكمال الشيخ من عدمه، وهو خارج إحاطته، فبأمرين:

ا- أن يخبره الشيخ بحقيقة حاله. وهذا هو الواجب في حقه، حتى يخرج من تبعات اتباع المريد له، في الدنيا والآخرة.

ب- أن يعلم ذلك من قرينة حال، من دون أن يتبع هوى. كأن لا يجد من الشيخ دلالة على الله، بمقال أو حال، من نفسه ومن غيره. أما إذا كان النفع يحصل لغيره دونه، فعليه أن يعود إلى نفسه ويصحح معاملته لربه.

٢. ماذا يفعل المريد إذا غاب عنه شيخه؟

غياب الشيخ يكون بانتقالٍ عن الدنيا أو عن البلد:

ا- إذا مات الشيخ، فعلى المريد أن يبحث عن شيخ آخر يُكمل به الطريق. خصوصا إن كان مبتدئا أو متوسطا. أما إن كان من أهل الاستشراف، فإن وجد شيخا آخر فهو ذاك، وإن لم يجد، فليواظب على ما تركه عليه شيخه حتى يجعل الله له مخرجا.

ب- إن كان انتقال الشيخ عن البلد، فليجهد أن يخرج معه إن أذن له؛ سواء أكان الشيخ كاملا أم كان غيره، ولم يكن في البلد أكمل منه. فإذا كان الشيخ كاملا ولم يأذن له في الخروج معه، فليبق ولا شيء عليه؛ لأن الكامل لا يحجب عنه بُعد المسافات. فإذا كان الشيخ غير كامل، ولم يأذن له في الخروج معه، فهو في سعة من أمره، ينظر لما يصلح له.

٣. هل يربي الشيخ الميت مريده في الدنيا؟

الدنيا والبرزخ موطنان مختلفان عن بعضهما، ولكل موطن رجاله؛ هذا هو الأصل. هذا يعني أن التربية تقتضي أن يكون الشيخ مع مريده في الدنيا أو في البرزخ. أما التوجيه والنصيحة فقد يأخذها المريد في الدنيا عن شيخ ميت عند التقاء روحيهما، في عالم الرؤيا والمشاهدة. لكن هذا لا يكفي حتى يُعتمد في السلوك؛ بل هو من قبيل الاستثناءات والكرامة.

أما ما يراه الناس من تحقيق أغراضهم بالتوسل بأهل الله الذين انتقلوا عن الدنيا، فهو عن طريق صاحب زمانهم، سواء أعلموا بذلك أم لم يعلموا. وذلك أن روح الولي المتوسَّل به تتصل بصاحب زمان المتوسِّل، وتسأله قضاء الحاجة، فيقضيها إكراما للشيخ الميت.

أما إن كنت ممن يرى في كلامنا شركا، فاعلم أن ذلك بسبب عدم علمك بالتوحيد. ولا نقصد هنا التوحيد النظري الذي يعتمده أصحاب العقائد والمتكلمون، بل نعني التوحيد الكشفي الذي يؤتي الله علمه من يصطفي من عباده.

وحتى نسهل عليك الأمر، نقول: فلمَ تعتقد أن التوسل بالولي المتوفى شركا، بينما لا ترى التوسل (اتخاذ الوسيلة) بقريب لذي سلطان في بلدك إليه كذلك؟ فالتوحيد يقتضي أن لا نعامل إلا الله في الظاهر وفي الباطن! فإن كان عندك فرق في ذلك، لمجرد أن هذا في عالم

الشهادة، وهذا في عالم الغيب؛ فاعلم أنك أنت من هو على شرك. لأن رب عالَم الغيب وعالم الشهادة واحد. فما يصح في أحدهما يصح في الآخر، وما لا يصح في أحدهما لا يصح في الآخر. فإن كان حكمك بسبب غلبة حكم العادة عليك فحسب، فاعلم أنك محتاج إلى من يُخرجك عن تحكّم العادة حتى يصح قلبك. فإن معاملة الله بما يليق، تتطلب إعدادا خاصا، وتطبيبا قلبيا لا يُحسنه كل واحد. ولا ينفع في مثل هذا ما تأخذه من عموميات عن فقهاء لا خبرة لهم بالتوحيد الخاص.

وقد جرنا الكلام هنا إلى الحديث عن حكم أهل الله الموتى، وزيارتهم رضي الله عنهم في أضرحتهم. فاعلم أن المرء ميتا كهو حيا. لا ينقص ذلك ولا يزيد إلا عند جاهل. والتوسل بأهل الله (الربانيين) جائز أحياء وأمواتا، بل مستحب. نحن نستند في هذا الحكم إلى الكشف الصحيح.

أما من يرى في ذلك غضاضة، فيُسأل: هل ينكر ذلك مطلقا أم فيما يعود إلى الموتى فحسب؟ فإن كان ينكره مطلقا فقد خالف السلف؛ وإن كان ينكره في حق الأموات فحسب، فالخلل عنده في التفرقة بين الحي والميت؛ وكأنه ينظر إلى الميت نظرة الكافر. أما المؤمن فيعلم أن الميت ما تغير عليه إلا الموطن، وحقيقته هي نفسها. وزيارة القبور إذا حافظ فيها المرء على الآداب الشرعية، بنية التبرك أو التوسل، ما يكون منها إلا الخير إن شاء الله. مع العلم أن الميت وإن كان من أهل التصرف في حياته، فإنه لا تصرف له إلا في الموطن الذي هو فيه. وقد نبه إلى هذا كبار أهل الله من أمثال سيدي عبد العزيز الدباغ رضي الله عنه.

لكن ما أسلفناه، لا يجعلنا نقبل ما يعتقده بعض العامة من تصرف للولي الميت (أو الحي) من دون الله. فإن هذا شرك جلي، ينبغي التصدي له بالتعليم والتوجيه. غير أن المغالاة في

اتهام كل الزائرين للأضرحة بالشرك، لا شك هي ناتجة عن جهل بالتوحيد كما قلنا. ويكفي أن تعلم أن من كان على التوحيد حقيقة، فإنه لا يشرك حتى وإن سجد للصنم فيما يبدو لك. نقول هذا مع تأكيدنا على أن ذلك لا يجوز شرعا. أردنا أن ننبهك بقولنا، إلى أن أمر التوحيد ليس هيّنا، حتى يَهُدَّه أيُّ فعل. بل على العكس من ذلك، التوحيد هو الأقوى؛ ينصهر فيه الفعل الشركي (إن وقع)، فيُذهب عينه. وهذا من فضل الله على الناس ورحمته بهم. ومثال ذلك الظلمة مع النور. فمهما كان الظلام قويا، فإنه ينهزم أمام أقل نور. فكيف إن كان النور عظيما؟!

ولعلنا نعود إلى الكلام عن التوحيد الخاص في محله.

٤. هل الشيخ ملزم بمراعاة المريد؟:

يغلط كثير من الناس في هذا الأصل، فينقطعون. وذلك أنهم يقيسون وظيفة الشيخ المربي على وظيفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم العامة. فقد نبهناك سابقا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حيث التبليغ، له نوعان من العلم: علم أمر بتبليغه للعموم، وعلم خُيِّر في تبليغه للخصوص. فالعلم الأول، يعمل صلى الله عليه وآله وسلم على تبليغه تاما، ويتحمل في ذلك الأذى الكثير والإعراض الشديد؛ فيحرص على كل الناس، ويأتيهم من حيث يؤثرون ما لم يكن إثما. وهذا النوع من التبليغ هو أشقه على الأنبياء عليهم السلام. وقد بالغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العناية بهذا الشق، حتى رحمه ربه وأمره بمراعاة أمر نفسه التي كادت تتلف في سبيل ذلك. فقال له عز من قائل: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فاطر: ٨. وقال له أيضا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ الكهف: ٦. والسبب في حرصه صلى الله عليه وآله وسلم

في دعوة العموم، هو أنها من وجه رسالته ودعوته إلى سبيل الله الموصلة إلى الجنة بإذن الله. فهذه دعوة عامة يتمنى كل نبي أن يستجيب له فيها أكبر عدد من الناس. أما الدعوة الخاصة والتي لا يعلمها كثير من الناس، فهي من وجه ولايته صلى الله عليه وآله وسلم، لا من وجه رسالته. وهو يدعو فيها إلى الله لا إلى الجنة، بالقصد الأول. وهو من هذا الوجه متصف بالعزة لاقتضاء المقام ذلك؛ فهو ليس حريصا على الناس، بل هو مستغن. فمن شاء أن يستجيب له فعلى شروط ربه، ومن لم يشأ فما يأبه له. ومن هذه الحضرة قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾الكهف: ٢٩، ومنها أيضا قوله سبحانه: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران: ٩٧، وقوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ النمل: ٤٠، وأمثالها.

فالشيخ الرباني خليفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الدعوة إلى الله، كما هو الفقيه خليفة عنه في الدعوة إلى سبيل الله. لذلك هو يدعو من غير حرص، بل باستغناء؛ فيظن من لا علم له أنه مخالف لأخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويتركه. وما علم المسكين أنه يقيس الخاص على العام.

لذلك فالواجب على المريد هو الحرص من جانبه على التمسك بالشيخ، لا أن ينتظر من الشيخ أن يتمسك به. وليلزم بابه حتى وإن طرده بالفعل أو بالقول. أما إن طرده بالحال، فلا يستطيع الثبات له. والطرد بالفعل، هو أن يأتي أمامه بفعل لا يُحمد عند فهمه القاصر، ليكون سببا في إبعاده؛ وأما الطرد بالقول فكأن يتلفظ أمامه بما لا يُطيق، أو أن يأمره بتركه. وليتحفظ المريد في معاملة الشيخ كثيرا، لأنها معاملة لربه؛ علم ذلك أم لم يعلمه. وليسارع، إذا بدر من شيخه تعزز، إلى إظهار الافتقار من نفسه والتذلل. فإن ذلك أنفع له.

٥. هل تكون دعوة الرباني خاصة أم عامة، أم هما معا؟:

الدعوة العامة هي من نصيب الفقهاء كما سبق أن بيّنّا، لكن بشرط أن ينصحوا ولا يتعدَّوا مجالهم كما يشيع في زماننا. فإننا نراهم يُفتون في كل شيء، في الظاهر والباطن، وما يتعلق بالفقه وما يتعلق بالسلوك دون أن يُحكموا علم ذلك أو يتأدبوا بآدابه. فصاروا وبالا على أنفسهم وعلى غيرهم ممن يُصدّقهم في كل ما يقولون. بينما كان الواجب في حقهم –كما كان الصالحون الأولون– أن يفتوا في مجالهم، ويدُلّوا الناس على أهل الله من أهل زمانهم فيما يتعلق بالتربية القلبية.

أما الدعوة التي يختص بها الربانيون، والتي لها شروطها عندهم –وهي ما يتعلق به محتوى هذا الكتاب– فهي ليست عامة. وهذا مما يجهله كثير من الناس، فيظنون بأهل الله الظنون إذا رأوهم لا يلتفتون إليهم. يخلطون بذلك في الأحكام. ومن شدة خصوصية الدعوة إلى الله، أن الشيخ فيها قد لا يكون له إلا مريد واحد؛ مثل ما حدث مع الشيخ عبد السلام بن بشيش وتلميذه الأوحد أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما. وقد كان العامة يأتون إلى الشيخ عبد السلام ويسألونه أن يوظف عليهم وظائف (يعطيهم أذكارا خاصة)، فكان ينهرهم ويقول: "وهل أنا رسول؟! ما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا!". هذا هو الأصل في الدعوة الخاصة.

وقد يدعو الشيخ بالدعوتين، بسبب الضعف العام الذي لحق الفقهاء. فيقبل المريدين الذين همهم إتقان مرتبة الإسلام، مع الذين يتطلعون إلى تحقيق كمال أنفسهم. وتكون الدائرة العامة مفتوحة على الدائرة الخاصة، بحيث يمكن لمن نهضت همته أن ينتقل من الأولى إلى الثانية.

وهذه أنسب طريق للدعوة في الأزمنة المتأخرة. وقد يتواجد من المريدين فقهاء، يقومون بالدعوة العامة داخل الطريقة تحت نظر الشيخ.

فعلى المرء أن لا يقيس شيخا على آخر، فلعل أحدا يكون محافظا على الأصل (الذي هو الدعوة الخاصة)، والآخر قد جمع بين الدعوتين بحسب اجتهاده. والعامة قد يظنون الجمع بين الدعوتين من علامات كمال الشيخ، فيجهلون. وقد بيّنّا سابقا معنى الكمال فلا تغفله.

٦. كيف يميز المريد نفسه: هل هو من أهل الدعوة العامة، أم هو من أهل الخاصة؛ إذا كان شيخه عاملا عليهما معاً؟:

أولا ينبغي أن تعلم أن أهل الدعوة العامة يكونون دائما أكبر عددا من الخواص. وذلك عائد إلى قول الله تعالى عن أصحاب اليمين الذين هم العامة: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ الواقعة: ٣٩ – ٤٠. أي جماعة كثيرة العدد في المتقدمين وفي المتأخرين من حيث الزمان (وهذا هو جذع الأمة)؛ وإلى قوله تعالى عن المقربين: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ الواقعة: ١٣ – ١٤. وهذا هو رأس الأمة. فالمريد إن كان من العامة فاسم المريد له مجاز. وإنما هو متبرك بالشيخ، مستعين بإخوانه على الطاعات. وحاله لا يختلف عن حال باقي الناس إلا من حيث التصديق الذي لديه بأهل الله، الذي يؤهله فيما بعد من الانتقال من دائرة الدعوة العامة إلى الدائرة الخاصة، بحسب ما يعطي استعداده.

أما إن كان المريد من أهل الدائرة الخاصة، فاسم المريد له حقيقة. وحاله يختلف عن العامة، لأنه قد انخرط في السلوك الذي هو قطْع مراحل الطريق إلى الله. وقطع مراحل الطريق المعنوية، تجعل المريد يتقلب في أحوال ومقامات يختلف بعضها عن بعض. فيكتسب كل مرة

علما لم يكن عنده. فإن وجد المريد من نفسه هذا، فهو من أهل الدائرة الخاصة. وإذا أردت أن تطلع على تفاصيل أكثر فيما يتعلق بالسلوك، فراجع كتابنا "المنهاج القويم في التزكية".

ويكفي أن تعلم -من عزة السلوك، حتى لا تسارع إلى توهمه- أن الشيخ قد يكون معه ملايين الناس من المنتسبين، وما يكون منهم من أصحاب السلوك إلا بضعة أشخاص. نقول لك هذا حتى لا تغتر، وحتى تأخذ نفسك بالعزائم. فإن كثيرا من التلاميذ، يظنون الخصوصية لجميع المنتسبين، فيبقون على حالهم لا يرتقون. وقد رأينا منهم عددا كبيرا.

٧. كيف يعرف المريد أنه قد وصل؟:

الوصول يكون بعد قطع ميدان النفس، حيث يتعرف المريد على باطنه ويكتشفه. ثم يُصححه بما يوافق الوحي باعتبار الظاهر والباطن معا. ويُحصّل علوم المقامات؛وهو ما دعوناه سابقا فقه السلوك. ثم إذا صار مستشرفا، فأول ما يطالعه من المعرفة الفهم. فيعلم بالنفس اللهَ معرفة مجردة. فيصير بهذا مدركا لما تتضمنه بعض الآيات القرآنية من أسرار التوحيد، وما تشمله الأحاديث منها أيضا؛ وما يشير إليه أهل الله في كلامهم من معاني تدق عن فهم العلماء المحجوبين. كل هذا ولا يُعد واصلا.

أما الوصول فيكون إلى الله ذوقا. يقول الله تعالى:﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ النجم: ٤٢ : أي منتهى السلوك؛ بل منتهى السلوكات. لكن ذوق الوصول لا يكون إلا بعد اجتياز مخاض وضع النفس للسر. فتموت بعد ولادتها تلك. ومع هذا، يبقى الواصل مع شيخه، حتى يأمره بما يناسبه. والأصل هنا، أن يأمره بمفارقته. وقد يكون الأمر كلاما، أو في عالم الرؤيا والمشاهدة إذا تعذر الكلام.

فإذا خرج الواصل عن حكم شيخه، بقي تحت حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بواسطة الختم. فيدخل مرحلة جديدة من السلوك في الله الذي لا منتهى له. وهو المشار إليه في قوله سبحانه (من باب الإشارة لا من باب التفسير):﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ الزمر: ٤٧ .

٨. كيف تكون الإجازة للواصل بالتربية؟:

الواصل، إذا كان خليفة لشيخه في التربية، فإنه يأخذ الإجازة منه؛ فيكون شيخا داخل الطريقة الأصلية. أما إذا كانت مرتبته عند الله إماما، فإنه يأخذ الإذن من الله ورسوله. فيكون صاحب طريقة جديدة.

وإنك تجد في هذا الباب خلطا كبيرا عند المنتسبين، حتى أنهم لا يميزون بين الخلافتين. والتمييز بينهما ضروري لمن أراد أن يكون على بيّنة من الأمر.

والإجازة التي نعنيها، ليست هذه التي صارت هزلا في أيامنا، وإنما هي إجازة بالحقيقة. فإن تمت بالكلام أو بالكتابة، فإنما للإشهاد أو التوثيق الضروريين فحسب. أما في أيامنا فصارت العبرة بورق الإجازة، مع إغفال حقيقتها ومتعلقها. ذلك لأن الشيخ المجيز قد لا يكون ربانيا، فضلا عن المُجاز. والناس في سوق، لا يعرفون منها السلعة الأصلية من الفاسدة. فلما صارت البضاعة نادرة، استعيض عنها بالكلام الأجوف والإجازات التي لا معنى لها.

وقد بلغ الخلط في الإجازات، أن صارت إجازة النِّقابة عن المريدين، يُنظر إليها كإجازة الإرشاد والتربية. فحصل من ذلك تلاعب كبير في الطريق، مع زعم أن أصحاب النِّسبة من خواص القوم. فصار لزاما رد الأمور إلى نصابها، وصار ضروريا تنقية الطريق من أهل اللهو وأسبابه.

٩. ما حكم السلسلة في الطريقة؟:

السلسلة هي الرابطة التي تصل بين الشيخ الرباني ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من حيث التربية. وهي للتبرك أكثر منها لشيء آخر. أما من حيث السر فلا واسطة بين الشيخ ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأكثر الناس يخلطون بين المعنيين. وبعض المتبركين يجعلون السلسلة هي سندهم في المعرفة، والأمر غير ذلك. فلا سند في المعرفة إلا الله! وقد سئل الإمام أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه مرة عن نسبه في الطريق، فقال (وما أحسن ما قال): "كنت أنتسب إلى ابن بشيش؛ أما الآن، فلا أنتسب إلا إلى الله!" فذكر رضي الله عنه نسب التربية، ثم نسب التحقيق، في كلام واحد. هكذا يكون كلام الأئمة، ورثة من أوتي جوامع الكلِم عليه وآله أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

بعض الناس في آخر الزمان –كما قلنا– جعلوا السلسلة سندهم، يظنون أن الأمر بيد العباد وهو بيد رب العباد. فإذا سألتهم عن حظهم من الله، بادروا إلى ذكر سلسلتهم. وكيف يستخلص المرء منها ما يروم علمه؟ فحتى من حيث التوثيق: كيف يعلم الناظر أن فلانا من ضمن السلسلة هو من العارفين إذا لم يكن مشهورا؟ فإنا رأينا سلاسل تشمل أسماء مبهمة، كفلان القطب! فكيف يُعلم عدم انقطاع سلسلة السند وهي قد صارت طويلة في زماننا؟

ثم إن الشيخ الأكبر رضي الله عنه، ذكر عن نفسه في بعض كتبه أن الله نهاه أن ينتسب إلى أي شيخ من شيوخه. فقد حكى عن الإمام الثاني للقطب (لعله في زمانه) فقال: "ولقد أنعم عليّ هذا ببشارة بشرني بها وكنت لا أعرفها في حالي، وكانت حالي فأوقفني عليها ونهاني عن الانتماء إلى من لقيت من الشيوخ وقال لي: لا تنتم إلا لله، فليس لأحد ممن لقيته عليك يد مما أنت فيه؛ بل الله تولاك بعنايته. فاذكر فضل من لقيت إن شئت، ولا تنتسب إليهم وانتسب

إلى ربك. وكان حال هذا الإمام مثل حالي سواء؛ لم يكن لأحد ممن لقيه عليه يد في طريق الله إلا لله. هكذا نقل لي الثقة عندي عنه، وأخبرني الإمام بذلك عن نفسه عند اجتماعي به في مشهد برزخي اجتمعت به فيه، لله الحمد والمنة على ذلك."[١٥] نستخلص من كلامه رضي الله عنه – وهو الإمام الأكبر – أن الكبار ليس لهم نسب إلا لله. أما من كان دونهم، فيجوز له أن ينتسب إلى شيخه على وجه التبرك إن كان هو في نفسه واصلا؛ أما إن لم يكن منهم، فيجب عليه أن ينتسب إلى الشيخ، في نظر نفسه وعند الغير. كالطفل يُعرف بابن فلان أكثر مما يُعرف باسمه الخاص. فإن المنتسِب على قدر المنتسَب إليه هنا.

ومن أراد أن يعرف الشيخ، فعليه أن يصحبه ويأخذ عنه. فإن كان من الكبار، فيستفيد معه في المدة الوجيزة ما قضى غيره في تحصيله الأعمار. وإن تحققت له معه المعرفة، فستكون على أعلى درجاتها. وهذه الأمور لا تعرف إلا بالذوق!

[١٥] . الفتوحات المكية. الباب السبعون ومائتان في معرفة منزل القطب والإمامين من المناجاة المحمدية – (ج ٢ / ٥٦٢-٥٦٣)

الفصل الثامن

انحرافات الطرائق

كما سبق أن بيّنّا، فإن الطريق يُنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ بينما الطريقة تنسب إلى الإمام الرباني الذي اختصه الله بها؛ فهي فروع لأصل الطريق. من هنا يظهر أن أول ما يجب أن تتصف به الطريقة، عدم معارضتها للطريق؛ وإلا فما هي طريقة معتبرة. ونعني بعدم المعارضة، عدم مخالفة شيء ثابت من الكتاب والسنة، مما لا يقبل المجاوزة؛ أما ما فيه سعة ويعود إلى الاجتهاد المشروع فلا حرج فيه.

يتضح مما سبق أن الشيخ لا تصرف له في الفرائض البتة، فلا يمكنه أن يزيد فيها أو أن ينقص؛ ولا يمكنه أن يلغيها في حق نفسه أو في حق أحد من أتباعه أبدا. أما السنن، ففيها تفصيل:

١. فمن حيث مرتبتها، فلا شك أنها فوق رأس الشيخ وغيره. وما وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ليس لأحد غيره أن يتصرف، ولا أن يبدي رأيا فيه. فهو الإمام الأعظم الذي تجب متابعته من غير توقف.

٢. أما من حيث ما تقتضيه التربية، فإن للشيخ أن يقر تلميذه على بعض السنن، أو أن يمنعه –مؤقتا– من بعضها. يراعي في ذلك حال باطن التلميذ، وما ينفعه في الوقت عند ربه. ولما جهل بعض الناس مقتضيات التربية وأبعادها، ظنوا أن الشيخ ينسخ السنة إذا فعل ذلك. وألحقوا ما يتعلق بالوجه الثاني الذي نحن بصدده، بالوجه الأول، وهو خطأ.

وليطمئن المؤمن أن تصرف الشيخ في السنن هو بإذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لا من نفسه؛ وما ينبغي له. لكن الناس لمّا كان إذن رسول الله غيبا في حقهم، قد يعاملونه كعامة الناس؛ فيكونون مصيبين من حيث الأصل، مخطئين من حيث الاعتبار الخاص.

أما ما يمكن أن ينهى الشيخ تلميذه عنه، فكالاشتغال بالعلم الكسبي إن رأى أنه يحجبه عن التوجه إلى الحق؛ كأن يجعله متعلقا به تعلقا يفوق مجرد أخذٍ بالأسباب، أو كأن يكون مورثا في قلبه لعجب يسد عليه باب التلقي عن الله، والفهم عنه سبحانه. ويمكن أن ينهاه عن الاشتغال بنوع خاص من النوافل، إن رأى أن نيته فيها مخالفة للشرع، كأن يكون مرائيا، أو مشاهدا لنفسه في العمل دون ربه. فإن هذا من أصول الشرك عندنا. كما يمكن أن ينهاه عن لبس زي خاص، يتشبه فيه بمن له مكانة مخصوصة عند قومه؛ كأن يُعرف به العُلماء أو الصلحاء؛ حتى يخلصه من جذور الكبر ورؤية الفضل لنفسه، وإن كان في الظاهر من أهله. فمعايير الباطن غير معايير الظاهر. والمقصود هو الجمع بينهما بما لا يُخل بالسير قُدما في الطريق. أما أهل الظاهر، فيعتبرون صورة السير لا نفسه! وبين الأمرين فرقان لمن كان ذا نور.

على كل حال، فإن تصرف الشيخ في السنن، هو لعلة طارئة. فإذا زالت العلة، زال معها إمكان تصرف الشيخ، وعاد الحُكم إلى أصله. وقد رأينا قوما فُتنوا بمثل هذا، فلما لم يكن لهم علم، وركبوا سوء الظن، وصاروا يقعون في أهل الله من غير وجه حق، كانت عاقبتهم خُسرا.

ومَثَلُ الشيخ فيما مر ذكره، مَثَلُ الطبيب؛ إذا رأى أن طعاما مخصوصا، يضر بالمريض فإنه يمنعه عنه؛ لكن ما يمنعه عنه مطلقا. فهذا كتصرف الشيخ في السنن. أما الفرائض فهي

كالماء، الذي لا غنى لأحد عنه (إلا لساعات). فلا يمكنه أن يطلب منه عدم تناوله بسبب المرض، وإن بلغ ما بلغ. إذا علمت هذا، علمت أن الغاية هي الوصول إلى سلامة القلب، لكن بالوسائل المتيقَّنة لا المظنونة.

إذا تقرر ما سبق، فلنمر إلى أنواع الانحرافات التي لحقت بالطرائق، وأئمتُها منها بُرآء:

١. الخلط في المراتب:

نعني بالخلط هنا، جعل الفروع أصولا، والمتغيرات ثوابت. ولا شك أن الطرائق تمتاز عن بعضها بالاختلاف في المتغيرات الفرعية، مع حفاظها كلها على الثوابت الأصلية؛ وإلا وجدنا أنفسنا أمام "السبل" التي نُهينا عن اتباعها. هذا في زمن الأئمة المؤسسين أكيد! لكن مع غياب الإمام، وتوارث الخلفاء للطريقة بحق وبغير حق، فإن المعايير تختل. ومع جهل الأتباع، يصير التعصب للجزئيات (وأحيانا للبدع) علامة على صحة النِّسبة للطريقة. وقد تضيع أصول لا يعذر الشرع في تضييعها؛ كسوء الظن بالمسلمين، وتحقيرهم؛ وكاتخاذ الطريقة طريقا، بحيث يُنظر إلى الطرائق الأخرى (حتى في حال نقائها الأصلي) نظرة دونية، تجعل منها خصما أحيانا.

مثلا: قد ينظر المنتسب إلى طريقة تعتمد السماع والرقص، إلى من لا يفعلهما (وإن كان لا يُنكرهما) كالأجنبي عن الطريقة الذي لا يمكن الوثوق به. في حين أن السماع والرقص، ليسا من الأركان عند أهل الطريق. بل إن مع مرور الزمان، قد لا يبقى من الطريقة الأصلية إلاّ هما. ومع غياب أصل الطريقة الذي هو الدلالة على الله، فأي طريقة بقيت بعدُ؟! فهل صار التمسك بالأسماء، يغني عن المسمى؟! فإن كان، ففي منطق أي صنف من الناس؟

٢. التعصب للإمام دون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

الإمام المؤسس للطريقة التربوية، هو حسنة من حسنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. كلامنا عن الربانيين المحقين، وليس عن كل مدّع. فالشيخ ثابت بإثبات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له. وهو من دونه عدم من جملة العدم. لذلك، اعتبار الإمام دون مراعاة النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هو إخلال بالعلم الصحيح؛ وهو نقص في التدين، يخاف المرء معه سوء العاقبة.

يظن كثير من العامة المنتسبين إلى طريقة مخصوصة، أنها ناسخة للطريق وإن كانوا لا يُحسنون التعبير عن عقيدتهم هذه. وهذا يجعلهم محجوبين عن الحق، إن لم نقل مقطوعين. يظنون أن مبالغتهم في الثناء على إمامهم، تعفيهم من صحيح الاعتقاد في نبيهم، عليه وآله الصلاة والسلام. وكل هذا من تلبيس إبليس عليهم. يشغلهم بالنوافل عن الفرائض، فيضيع تدينهم.

ومن مراعاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مراعاة نسبة الأمة إليه؛ إلا إذا سمع من بعض المسلمين ما يقدح في هذه النِّسبة عينها. فعليه أن لا يُقرهم عليها، محبة في الخير لهم، وأداء لما لهم عليه من النصيحة. هذا، لأنه صار من المسلمين من يقول في الله ورسوله، ما تكاد تخر منه السماوات وتنهدّ الجبال. وهو بارد، ينظر إليك ولسان حاله يقول: ما في الوجود عالم إلا أنا، ولا موحد إلا أنا، ولا!... وفي الحقيقة هو بوق للشيطان يقول على لسانه ما يريد، من غير أن يكون له اختيار. كل ذلك، لأنه ما تحصن بما أمره الله، ولا تطبب عند من دله الله عليهم، نسأل الله العافية. نذكر هذا لأن وضع الأمة الحالي، متشابك؛ والمعاملة فيه صارت تتطلب أحكاما متداخلة، لا يُحسنها إلا أهل النور. وقد رأينا أن من نتائج المرض لدى المسلمين، تعميم الأحكام، مما يؤدي إلى تفاقم أمراضها وإلى بعدها عن الشفاء. من السهل أن يُكفِّر

نصفُ الأمة النصف الآخر (بغض النظر عن حقيقة النصفين ونسبتهما) في سبيل التخلص منه؛ لكن، هل يفيد هذا، النصفَ الباقي؟ نترك الجواب لك، إن كنت ذا لب.

٣. التعصب المخل للطريقة:

في الحقيقة هذا العنوان فرع لسابقيه، لكن أفردناه بالتناول نظرا لتفشيه في المنتسبين. فتجد الرفاعي مثلا، يزعم أن لا أحد مثله بمجرد الانتساب، وهكذا القادري والشاذلي وغيرهم. يجهلون أن الأئمة في الحقيقة صور محمدية متعاقبة عبر الزمان. فإن كان الأمر هكذا، فالرفاعي رضي الله عنه هو الجيلاني في زمانه، هو الشاذلي في زمانه، وهكذا.. فبعد هذا، هل يجوز تفضيل الشخص على نفسه؟! أم هل تجوز المفاضلة بين ظاهر الشخص وحقيقته؟!...

قد يسمع المنتسب منك هذا، أو أكثر منه؛ ومع ذلك لا يستطيع أن يعدل عما هو عليه! ذلك لأنه لا يُميز بين أحكام التربية ومقتضياتها، وبين الحقيقة الواحدة. معلوم أن كل شيخ (إمام وليس أي شيخ)، يشترط على المريد الطالب أن لا يرى في الوجود سواه، حتى يحصل له النفع من صحبته. وكل مريد يرى في الوجود من يساوي شيخه في المرتبة أو يفوقه، فما هو من مريديه حقيقة؛ وإنما هو من المتبركين فحسب. فيحار المريد: كيف يوفق بين كلامنا السابق وهذا الكلام؟

ا – ينبغي إذا عرض للمرء حكمان متقابلان في نفس الشيء، أن يعلم أن ذلك لا يكون إلا في مجالين مختلفين، باعتبارين مختلفين؛ وإلا انهدمت المنظومتان العقلية والشرعية معا. المجالان عندنا هنا هما: التربية والحقيقة، كما سبقت الإشارة.

ب – إن التوفيق بين الأمرين عند نفس الشخص الذي، قد لا يكون بلغ مبلغ التمييز العلمي، يحتاج إلى نوع من التحايل على النفس حتى يخرج سالما من معاملته مختلف أهل الله

(شيخه وغيره). هذا "التحايل" يكون من علامات التوفيق والعناية؛ وقد يبدو عند غير الموفقين ضربا من التلفيق، لكنه كما أخبرناك.

فإذا كانت التربية تقتضي أن لا يرى المريد أكمل من شيخه، فليس له –إن ذُكر الأئمة الأولون– إلا أن ينظر إليهم صورا لشيخه، متعاقبة في الزمان، حيث اقتضت الحكمة الإلهية عدم استغراق صورة واحدة للزمان كله.

هذا أقرب للحقيقة التي ذكرناها لك سابقا، وهي أن الأئمة عليهم السلام جميعا، هم صور لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متعاقبة في الزمان (على قدرهم لا على قدره)، كما يظهر نور الشمس في الأقمار. وبهذا وحده، كانت أمتنا لا تحتاج وجود نبي بعد نبيها صلى الله عليه وآله وسلم. فنبوته مستمرة فيها بالأئمة الوارثين المجددين. لكن هذه النظرة (الاعتقاد) هنا، لا يتمكن منها المريد، إلا إذا عرف أن شيخه هو مظهر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. نعني أن هذه النظرة في متناول طبقة مخصوصة من المريدين، لا كلهم.

كل هذا، وكلامنا عن الأئمة، أما إن كان الأمر متعلقا، بخلفاء داخل مختلف الطرائق، فالأمر سهل لمن رُزق التصديق بشيخه. وهو أنه لا يرى في الوجود شيخا إلا شيخه، ولا مريدا إلا نفسه. فإن هو دخل في معاملة شيخه بصدقه ذاك، وجد من التفاصيل في التكاليف والأحكام ما يأخذ عليه عقله وحِسّه. فكفاه الله مؤنة المقارنة والترجيح. فإن لم يكن على هذه الحال، فليعلم أنه ناقص الصدق، لا إرادة له على التحقيق؛ وإنما هو من العوام الذين قبل شيخه أن يُنسبوا إليه فضلا منه. فإذا عرف قدره، وأنه لا يبلغ درجة المريد، استحيى من المقارنة بين الشيوخ؛ وإلا نزل إلى درك السفهاء والحمقى.

وإن المريدين المنتسبين إلى مختلف طرائق أهل الله، لو وزنوا أنفسهم بها ذكرنا، لعرفوا الحق والتزموه؛ لكن المصيبة في المتشيخين، الذين يضلونهم بدل أن يهدوهم. ويزينوا لهم الوقيعة في أهل الله بدل أن يعلموهم تعظيمهم. ومع ذلك، على المريد أن يزن الأمور بميزان الشرع أولا، ثم بميزان الحقيقة إن كان من أهلها ثانيا، فإنه لا عذر له عند ربه. وإلا كان مثل من قال الله فيهم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابًا ضِعۡفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾ الأعراف: ٣٨ . قالت أخراهم لأولاهم: أي قالت جماعة التابعين للأئمة المضلين. قال لكل ضعف: أي ما أحدُكم بأولى بالتخفيف من الآخر؛ لأن التابع لا يقبل إضلال المتبوع إلا لهوى في نفسه؛ به يستحق أن يكون مساويا له في العذاب. والعذاب قد يكون من باب التفسير عذاب النار، كما قد يكون عذاب الحرمان والحجاب من باب الإشارة. فإن كلامنا عن مسلمين لا نجزم بدخولهم النار. بل نرجو أن لا يدخلوها.

٤. تسخير الطريقة لما ليست له:

هذا أقبح ما أصاب الطرائق الصوفية. فهي في أصلها وعند تأسيسها على أيدي أئمتها، ما كان وجودها منوطا إلا بالدعوة إلى الله. هي عمادها، وهي غايتها. فلما غاب الإمام عنها (حسا)، ثم غاب الوارثون الربانيون (فغاب عنها معنى)؛ أصبحت محلا للعب اللاعبين، وتجارة المتاجرين، و...

لما غاب روح الطريقة، سُخرت لمآرب دنيوية؛ منها ما هو سياسي بسبب كون العدد الغفير من الناس ينتسب إليها، والسياسة لا تعتبر اليوم في الناس إلا العدد؛ ومنها ما هو نفعي، من

أجل تحصيل الأموال الطائلة من غير وجه شرعي أحيانا. وقد يصير للطريقة ملحقات تجارية ومشاريع استثمارية في البلد المخصوص أو في العالم.

ومن حيث الوظيفة السياسية، فقد أصبحت الطرائق تُنظَّم تنظيم الهيئات السياسية. وقد تسهر على تنظيمها جهات خارجية (نعني من خارج الطريقة نفسها)، لأغراض تتعلق بوضع بلد معين أو إقليم. بل قد تنضوي مجموعة من الطرائق داخل تنظيم صوفي سياسي تحت إشراف نظام معين. ومن غريب الأمر أن يكون لهذه الطرائق شيخ مشايخ، يتم تعيينه من قِبل الجهات الحاكمة. فأي تصوف هذا؟؟

بل لقد صارت للطرائق الصوفية مهام دولية، وصارت مخاطَبة لجهات دولية من أجل تحديد معالم التدين الذي ينبغي أن يحوز رضى تلك الجهات؛ فصارت الطرائق تُستدعى إلى السفارات، وصارت تحضر المؤتمرات المحلية والدولية؛ كما صارت هي الأخرى تستقبل موفدين إليها من قِبل مخاطِبيها عند الحاجة.

إذا عدنا إلى أصل الطريقة، وقارنا بين ذلك الوضع الأصلي والوضع الحالي، فإننا سنجد بَوْنا شاسعا، لا نكاد نعثر فيه على مشترَكات إلا الاسم. وإن كان هذا يدل على شيء، فإنما يدل على غياب الأساس الأول الذي تقوم عليه كل طريقة: ألا وهو معرفة الله. ثم قد يتفاقم الوضع، فيغيب عنها التدين الصحيح أيضا. فإذا صار بها الأمر إلى هذا الدرك، فستصبح عشا للفساد الظاهر والباطن. وستصبح عالة على الأمة بعد أن كانت مؤسسات استشفائية قلبية.

ويزداد الأمر غرابة، عندما تجد جهات دولية نافذة (غير مسلمة)، تسهر اليوم على "حركة التصوف في العالم". تسهر على تنظيم مختلف "الطرائق"، وتمدها بالمال من أجل تجديد مقراتها، وتسهل عليها مخاطبة الناس في محيطها واحتوائهم تنظيميا. كل هذا بواسطة الأنظمة

المحلية، بسبب كون دساتيرها لا تسمح بإقامة علاقات مع منظمات دينية، حيث أنها تنص على علمانية الدولة عندها.

فانظر إلى هذا الخليط غير المتجانس (في الظاهر، أما في الباطن فهو كذلك)، وانظر إلى موضع الطرائق الصوفية منه (إن بقي للتصوف منها نصيب).

الفَصْلُ التَّاسِعُ

نتائج الانحراف

إذا كان أئمة الطريق (أصحاب الطرائق) من أولياء الله المقربين، فإن الطرائق كانت ملجأً للتائبين، الفارين إلى الله من ظلمة الأكوان وضنك العيش وسط الغافلين. فكانت هذه المؤسسات التربوية تعمل على تخريج أجيال الطائفة القليلة، التي تُعد بحق رأس الأمة وقلبها.

ومع فساد حال أغلبها، وتحقق غفلة المنتسبين إليها، ستصبح من مغذيات الفتنة لدى الأمة. وإذا كان فساد الفقهاء قد أدى إلى انطماس الأحكام، وضياع التوجه العام من جل المسلمين؛ فإن فساد المؤسسات التربوية القلبية، قد أوصل الأمة إلى حال يقارب الموت الحُكمي. يستدعي "عناية مركزة"، نرى أن المعنِيّين ما زالوا غير مستشعرين لضرورتها.

نتائج الحالة المَرَضية التي أصبح جل المنتسبين إلى التصوف يعانون منها كثيرة، لكننا سنعمل على ملامسة مفاصلها، حتى نخرج منها برؤية واضحة للحاضر، نستشرف من ورائها مستقبلا نرجوه زاهرا.

١. معاداة أئمة الهدى فعلا:

قلنا فعلا، لأن المنتسبين لا ينفكون يعظمون أئمة الطرائق بالكلام؛ ويعملون على جعل غيرهم يتبعهم في ذلك، بأساليب تخلو من شروط الحِجاج وحسن العرض. يظنون أن هذه المراوغة، تعفيهم من خصومة أئمة الطريق عند الله. وهو غير الحق.

إذا كان لأهل الله من خصوم يوم القيامة، فهم المنتسبون إليهم بالباطل أولا؛ لأنهم ضيعوا نهجهم، وساروا على خلافه مع إبقاء النسبة. وهذا هو البهتان والزور!

إن أئمة الطرائق "فرضوا احترامهم" على أعتى الفقهاء في زمانهم وفي الأزمنة التي بعدهم. فلم يجدوا بدا من الإقرار بفضلهم، وبالسبق الذي لهم في ميادين الصدق والصديقية. انظر إلى إقرار ابن تيمية بفضل سيدي عبد القادر الجيلاني قُدس سره، وبفضل الجنيد إمام أهل الطريق رضي الله عنه. ثم انظر بعد ذلك كيف أصبح أتباع ابن تيمية ينظرون إلى الصوفية عموما. ليس الغلط منهم دائما، وإنما في أكثر الأحيان ممن يظن نفسه من "الصوفية".

رأيت مرة مناظرة على إحدى الفضائيات، بين "شيخ طريقة" مشهورة وسلفي معروف. فلما ذكر "المتصوف" أن الصوفية اعتنوا بجانب الأخلاق، سأله المذيع: هل أضاف التصوف إلى الإسلام شيئا في مجال الأخلاق؟ فقال المتشيخ: نعم، الصوفية أضافوا إلى أخلاق الإسلام. فأنكر السلفي عليه ذلك، لكن دون تعنيف. كنت أتمنى أن يوبخه ويجعله يعلن توبته على رؤوس الأشهاد! ووجدت نفسي سلفيا أكثر من السلفي. كيف يكون مثل هذا شيخا في المستوى الإيماني والعلمي العالي الذي يزعمه لنفسه، وهو لا يعلم أساسيات الإسلام؟ فهل كان أئمة الطريق إلا أتباعا (كل على قدره) لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟! تكون درجة رفعتهم، بقدر تحققهم بالاقتداء به صلى الله عليه وآله وسلم وحسب! إن من يقول قولا كهذا، أو يظن صحة ما يذهب إليه فهمه السقيم، لهو أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان! فكيف يكون من المقربين؟! أم أن المشيخة بلغ بها الهوان، أن تورث نسباً كما يورث المتاع؟! لا والله ما هكذا كان أئمتنا، ولا هكذا كان أصغر أتباعهم!

كيف لا يكون هؤلاء المتصوفون الجاهلون أعداء لأهل الله؟! وهم (أي الأئمة)من أحيى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرا وباطنا، وحملوا همّ الأمة على كواهلهم؛ واحتملوا من الأذى في سبيل ذلك ما لا يُطيقه إلا من كان حقا على قدم الأنبياء عليهم السلام.

إن المصيبة، تعظُم إذا كان الهادم للدار من أهلها؛ أما الغريب فقد يُتوقع منه ذلك إن كان من عديمي الأخلاق!

٢. إضلال المسلمين:

يُضل المتصوفة (نحن دائما نميز بين المتصوفة والصوفية) المسلمين بنوعين من الإضلال:

ا – الإضلال المباشر: وهو إمرارهم لضلالاتهم إلى عامة المسلمين، حتى إذا أخذوها عنهم كانوا مخالفين للحق.

ب – الإضلال الحجابي: بأن يظن من له علم بضلالاتهم، أن أئمة الطريق كانوا على ذلك من غير تثبت. فيصير منتقدا لهم ولمنهاجهم، وهو لا يعلم أنه بذلك يُعادي لب الإسلام الذي يتوهم أنه عنه ينافح.

ولعل هذين النوعين من الضلال ما تركا أحدا من المسلمين لم يصيباه. فلا تكاد تجد مسلما، إلا وهو إما من أعداء الصوفية الألداء، حتى ليرى أن التخلص منهم هو أُولى خطوات التصحيح؛ وإما هو ممن يجتر أنساقا معرفية مجتزأة لا يعلم وجه نِسبتها إلى الدين؛ وإنما أخذها بمجرد التسليم عن جهلة فاسقين.

قد أوهم النوع الثاني من الإضلال الناس، أن التصوف منظومة خرافية لا تمت إلى العلم بصلة. وأوهمهم أن الجماعة الصوفية تقوم على الاستلاب والطاعة العمياء من غير احتكام إلى

شرع أو عقل. وأوهمهم أن التصوف من عمل الشياطين المضلين، ومؤسسات المستعمرين الحاقدين، وأذنابهم ممن يريد أن يبقينا للكفر خاضعين.

نعم، إن كثيرا من النماذج يصدق عليها ذلك! لكن الأصل في التصوف غير ذلك! إنما كان الصوفية الأحقاق للشرع حافظين، وبالسنة عاملين، وللدين والأمة مخلصين. عملوا على إبقاء نقاء المعاملة لله، عندما التفت غيرهم إلى الفانية، ونالت من إدراكهم الزخارف، وتلبسوا بالأهواء وعبادة العباد.

كيف نقبل –من باب الإنصاف لا غير– أن يبلغ التزوير عندنا كل هذا المبلغ؟ كيف نقبل أن نعمم الأحكام، إلا إذا كنا مغرضين؟ فهل يُداوى فساد العمل (الممارسة)، بفساد في الحُكم؟ وفي عُرف من يكون ذلك؟

وهناك إضلال آخر أكبر مما مر، هو إضلال الشياطين:

الشياطين تعلم أسباب النفع للمسلمين، أحيانا أكثر مما يعلمونها هم أنفسهم. فتقطعهم عنها، بأن توهمهم أنها من ورائها.

نَفَر بعض المسلمين من مجال التصوف لمجرد أن بعض المستشرقين اعتنوا بدراسته، وأثنوا على أهله بحق أو بباطل. ونفر آخرون لمّا سمعوا بعض النصارى يثنون على التصوف الإسلامي في مقابل مذاهب أخرى. وظنوا أنه ما وقع منهم ذلك إلا لوجود ما هو مشترك بين التصوف والنصرانية. وينفر آخرون اليوم، لما علموا أن الولايات الأمريكية (غير المتحدة إن شاء الله) خلف تشجيع التصوف في العالم. توهموا أن أمريكا لا تؤيد إلا ما هو منها وإليها.

ومرة أخرى نقول: نعم! قد يصدق كل ذلك على بعض المظاهر الشاذة! لكن، لمَ لمْ يخطر في بالنا أن الشياطين تسبقنا إلى ما فيه نفعنا، حتى تقطع الطريق علينا بنوع إضلال غير مباشر، وتلبيس محكم؟

لمَ لا ننظر في جميع الاحتمالات، حتى نضمن أن لا يخدعنا أحد، سواء أعلمنا عداوته لنا، أم لبس لنا لبوس الضأن وهو من جنس الذئاب؟

كل ما يمكننا قوله، هو أن التصوف تعرض لعمليات هجوم أرادت النيل منه في كل مرة باستعمال ما يناسب الأعصار والأمصار؛ ونحن ما زلنا أغرارا، نصدق كل من أظهر لنا التودد، أو أوهمنا أنه يخشى علينا، حتى أكثر مما نخشى على أنفسنا. فلنلق عنا هذه السذاجة، ونتسلحْ بالعلم الحق، ونتثبتْ من أمورنا بأنفسنا، ونستمعْ إلى صوفية زماننا حتى نعلم منهم –مباشرة– الحق والباطل؛ فنقر بما نجده حقا، ونعلن عداوتنا بوضوح للباطل، إن تيقّنّا.

٣. ترسيخ جزئية الدين:

إن الريب الذي أحاط التصوف، بوصفه الجانب الباطني للدين والموصل إلى الشق المعرفي المقابل للشق التعبدي الشعيري، قد حجب شطرا من الدين عن المسلمين؛ مما أدى إلى ترسيخ النظرة الجزئية للإسلام، بما يوافق غرض الفقهاء الجاهلين (نعم، لأن الجهل أنواع)، وبما يُطمئن الأعداء الحاقدين.

إن الله تعالى أخبر عن دينه فقال:﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ المائدة: ٣؛ لكن المسلمين اليوم (في عمومهم)، من الواضح أنهم لا يدينون إلا بدين ناقص. لا ينقض ما قلناه إيمانهم بكمال الدين، بل المعتبر هنا الإدراك الكامل للدين المؤدي إلى كمال التديّن.

قد تقول: إن الإدراك الكامل للدين ليس في مقدور كل أحد! فنقول لك: أجل، لكن من الواجب على الأمة أن يكون تدينها كاملا! فهو واجب كفائي إذا خرج عن دائرة التعيين. بل نقول: إن هذا الواجب لا يتخلف أداؤه أبدا. وهذا من فضل الله على هذه الأمة الشريفة. لكن كلامنا يعتبر هنا النسبية (الجزئية). فبالمقارنة إلى أزمنة مضت، كان الفقهاء عاملين فيها بعلمهم، مقرين بفضل خواص الأمة؛ والعامةُ متبعين لهم بإحسان، لا يجاوزونهم في صغيرة ولا كبيرة؛ صرنا بوجه فقهاء منكرين لأصل أصيل من الدين، وعامة على القول برأيهم في الدين مجترئين.

اليوم، الأمة على بقايا من الدين! لنكن صادقين في التوصيف! انظر إلى الفقه كيف أصبح منفصلا عن معاش الناس وهمومهم. وانظر إلى غياب التزكية الشرعية في صفوف المسلمين. أليست التزكية الشرعية فرضا شرعيا؟!

من عجيب الأمر –ولا عجب– أن أحد كبار فقهاء زماننا، أفتى (فهو اعتاد أن يفتي في كل شيء) أن المرء يمكنه أن يتزكى وحده؛ أي أن يزكي نفسه بنفسه! ماذا كان ليقول فقيهنا، لو أخبرناه أن المرء في وسعه أن يفتي نفسه بنفسه؟ كنا نتمنى أن يجيب بالإيجاب، حتى يرتاح منه ومن أمثاله المسلمون. ماذا كان ليقول لو أخبرناه أن المريض يمكنه أن يداوي نفسه بنفسه؟ ليت شعري، إن كان الفقه قد ولّى، فهل من بقية عقل؟!

لما غابت التزكية عن جل الأمة، دخلنا مرحلة التدين الناقص. فصرنا نقطف ثمارا غير طيبة. ولا غرابة، وقد صار الماء ملحا أجاجا!

من العجيب أيضا، أننا لا نقيس أنفسنا إلى أسلافنا، حتى نقارن بين حالنا وحالهم، وثمارنا وثمارهم؛ وكأننا على دينين مختلفين، لا تجوز معهما المقارنة. لمَ لا يقوم "الفقهاء" بدراسة

موضوعية لأسباب ما انتهينا إليه من هوان وفساد؟ فإن لم يستطيعوا، أو لم يؤذن لهم (لأنهم مطيعون في هذا، إلا لربهم)، فلمَ لا يعلنون عدم أهليتهم، فيظفروا بأجر أضعف الإيمان؟

نقول بوضوح: إن الاستمرار في مثل هذه الحال، لا يليق بفرد ولا جماعة؛ ولا عامي ولا عالم. دخلنا مرحلة الجنون الجماعي، والحمق الكلي! تتقدمنا فيها قلنسوات وعمائم وطيالس. فمرحى! وقد نلنا السبق والتفرد فيما تأنف باقي الأمم من أن يمس طائفة قليلة منهم. ولله في خلقه شؤون!

الباب الثالث

التعرف على التصوف

الفصل الأول

شروط التعرف

للتعرف على التصوف شرطان:

الأول: أن يكون المرء راجح العقل.

الثاني: أن يكون صادق التدين.

١. من حيث العقل:

لا بد للإنسان عند بلوغ سن التمييز، أن يتساءل عن كثير من الأشياء التي تعترضه. لكن التربية التي يتلقاها في البيت أو في المؤسسات التعليمية المعهودة، إما تسير به في اتجاه الجواب، وإما تأخذه بعيدا إلى ما يخدم عقله المعاشي وحده. فإن كان نظره إلى عاجل أمره، فإنه سيغرق في تفاصيل معاشه، وتحصين موقعه فيه بين أمثاله، والدفاع عنه إن اقتضى الأمر ذلك. كل هذا

يستغرق منه عمره، خصوصا إن تزوج وصار له بيت وأولاد؛ فإنه سيزيد هموم أفراد أسرته على همومه. ولن يستفيق إلا والموت يطرق بابه.

من كان مِن هذا الصنف، فلا كلام لنا معه!

أما إن كان من الصنف الآخر –وهو النادر– فسيستمر في الاستماع إلى تساؤلاته إن لم تكن هي التي تلح عليه وتطارده. وسيحاول أن يعثر على أجوبة، بحسب ما يتيسر له. فإن كان متعلما، سيقرأ ما كتبه من سبقه في الدنيا من الأشخاص الذين حملوا نفس همه. وسيجد إجابات غير دقيقة؛ أحيانا تقارب التفسير، وأحيانا تكون تلفيقا يسكّن من ثائرة النفس عند القائل بها. قد يستمر بعد ذلك في رحلته الفكرية، ويصبح مدمن تأوّلٍ فكري. وقد تتوقف رحلته هنا من غير أن يظفر بطائل؛ كما قد يُوفق في تجاوز هذا الحد.

وقد لا يتبع طريق الفكر بداية، وإنما يتوجه إلى الفن، لما يجده له من أثر في النفس. فيقول: لعل الأجوبة عن التساؤلات المحيرة، لا يكون بالطريق المباشرة، وإنما بالإيحاء والوجدان. وقد يمضي عمرَه يتلمس دروب الفن حتى يكاد ينسى فيها منطلقاته الأولى؛ فيكون ممن قعد به الطريق فيه؛ كما قد يجاوز هذا الحد إلى ما وراءه.

ورُجحان العقل الذي جعلناه شرطا أول، عنينا به مجاوزة كل الحدود التي تعترض السائر. أما التساؤلات فتكون عند نظره إلى الكتاب، كتاب الوجود؛ فيتساءل:

— ما هي حقيقة ما أرى؟ وما موضعي في الوجود؟

— هذه الأنانية التي أجدها من نفسي: إن كانت حقا، فينبغي أن أكون محور كل شيء؛ وإلا فلمَ هي موجودة لدي؟

— لمَ الوجود على هذه الصورة على التعيين؟ لمَ السماء فوقنا والأرض تحتنا، وليس العكس؟

— لِمَ يوجد التقابل في الأشياء؟ الشر مقابل الخير، أو الصلاح مقابل الفساد؟ أو الجمال مقابل القبح؟ لِمَ لم تكن الأشياء على نمط واحد: خير وحده، أو شر وحده؟ فساد وحده، أو صلاح وحده؟ جمال وحده، أو قبح وحده؟ مع العلم أن الإنسان لن يعلم حقيقة كون العالم خيرا أو شرا مثلا! هل التقابل هو لمعرفة المتقابلَين فحسب؟ فإن كان، فلمَ تراد هذه المعرفة؟

— لِمَ الناس لا تتطابق صفاتهم الحسية والمعنوية؟ حتى يكون كل واحد منهم فريدا في الوجود؟ هل كل واحد مقصود لعينه؟ فإن كان الأمر كذلك، فلمَ له هذه القيمة الكبرى، ونحن نراه إن عاش أو مات لا يُغير شيئا من الوجود؟ أم هل هذه التفاصيل التي يعيشها كل واحد من الناس، هي المقصودة؟ فإن كان الأمر كذلك، فلمَ هي متشعبة إلى ما لا نهاية، حتى تخرج عن الحصر؟

— لِمَ لا يتحكم الإنسان في مسار حياته، رغم وجود الإرادة لديه؟ فإن كان المتحكم غيره، فما فائدة إرادته؟ وهل إرادته حقيقية أم هي متوهمة؟

— لِمَ يخرج شخصان من بيتيهما مثلا: فالأول تصدمه سيارة فيموت، والثاني يصل إلى مقر عمله. فيكون موت الأول سبب اضطراب كبير في حياة كل من له علاقة به كأسرته مثلا؛ بينما الثاني يمضي يومه رتيبا، ويبقى معارفه دون أي تغيير أصابهم. فهل موت الأول خروج عن مسار (انفلات) أحدث اصطداما بين مسارات أخرى، كان يُفترض أن تبقى على التوازي؟ فإن كان الأمر على هذا، فما سبب الاصطدامات بين مختلف المسارات؟ وما الذي يحمي الوجود من احتمال حدوث صدام كبير متشعب ينتج عنه دمار شامل للعالم؟

— لمَ وجدت المعايير المختلفة التي يقيس الناس بها الأشياء؟ وما أصلها؟ هل تعود إلى الإنسان، وهو لم يثبت عند نفسه بما يجعله مرجعا وجوديا، أم أنها تعود إلى غيره؟ فإن كان غيره، فمن هو حتى يتخذه سندا في رحلته المعرفية؟

— إن كان المقصود إيجاد الأشياء والإنسان منها، فلمَ وجود الموت والفساد؟

— هل العالم أزلي، بحيث يكون التغير في صوره فحسب، أم هو موجود يسبقه العدم؟ وهل هو أبدي في المقابل، أم يلحقه العدم؟ فإن كان مسبوقا بالعدم، فلم إيجاده؟ ومن أوجده؟ وإن كان يلحقه العدم، فلمَ إعدامه بعد إيجاده؟ وهل موجده هو معدمه؟ أم هو غيره؟

— فإن كان للعالم موجد، فهل هو منه؟ أم هو خارجه؟ فإن كان منه، فكيف يتصرف في العالم بالتغيير وهو منه؟ أم أنه متغير معه؟ فإن كان الأمر كذلك، فلم لا يخرج التغيير به إلى الخروج إلى سياق آخر لا يكون ضمنه إيجاد وعدم مثلا؟ وإن كان من خارجه: فكيف يتصرف في العالم وهو خارجه؟ وهل هو بواسطة، أم بغيرها؟

هذه أمهات الأسئلة التي ترد على العقلاء، فمن بقي ضمن الحدود السابقة، فسيشتغل بها عمره كله؛ وكلما قطع مراحل، عاد إلى ما منه انطلق. فإما أن يعتقد أن هذه الأسئلة لا إجابة لها؛ أو –إن كان رفيع المقام– يعتقد أن لها إجابات تفوق مستطاع كل إنسان؛ فيستسلم لعجزه. وفي الختام، لا بد أن نشير إلى أنه ليس من الضروري أن يكون العاقل قد اشتغل بالنظر بالفعل؛ وإنما المقصود أن يتوافر له الاستعداد بالقوة فحسب.

أما إن كان من الموفقين، فسيهديه الله إلى الدين، الذي جعلنا الصدق في اتباعه شرطا ثانيا.

٢. من حيث الدين:

الدين في الوضع الأصلي، وسيلة إلى الله. والله يقول في كتابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ المائدة: ٣٥. وابتغاء الوسيلة هو التدين من أجل الوصول إلى الله. ومعلوم أن هذا الوصول، علمي؛ لأنه لا مسافة تفصل العبد عن ربه. تعالى الله! وفي هذا المعنى يقول سبحانه:﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الزمر: ٩. أي الذين يعلمون الله، والذين لا يعلمونه سبحانه؛ لذلك أعقب بالتذكر وجعله من نصيب أولي الألباب. ولب الشيء باطنه. فالدين في هذا المستوى لب. واتخاذ الدين وسيلة، هو ما عنيناه بالصدق في التدين؛ فإن من لا صدق له، لا يهدف إلى الوصول الذي ذكرناه. بل لا يخطر على باله! فهو بالمقارنة إلى الجانب العقلي الذي مر، كالمنشغل بالمعاش، لا يهتم للأسئلة التي ذكرناها.

فإن لم يكن المتدين من أهل الصدق، نزل إلى المستوى الثاني من التدين؛ والذي ما هو الأصل فيه؛ وإنما الله فتح بابه لرحمة عباده الذين ليس لهم الاستعداد الخاص الأول. فجعل تدينهم (الذي هو في مقابل العقل المعاشي)، إن صدقوا حسب مرتبتهم، يفضي بهم إلى الجنة. والجنة هي معقول العقل المعاشي في الآخرة. وهذا الصنف من أهل الدين هم الأكثرون عددا. بل إن الخطاب الديني الذي أسسه الوحي أغلبه متوجه إليهم، بسبب أنهم الأحوج إليه. أما أولو الألباب فأقل إشارة تكفيهم. فافهم عنا يرحمك الله!

فلما كان الأمر على هذا، وكان الفقهاء أغلبهم من مرتبة العامة، غلب تصور المستوى الثاني على التدين؛ حتى صار جل الناس يُنكرون المستوى الأصلي. وهذا خلل علمي خطر، تنشأ عنه انحرافات عملية، تجعل من الدين حجابا مانعا لا وسيلة.

ومسمى التصوف الذي ندل عليه، ما هو إلا المستوى الأول من التدين، لا غير! فإما أن يكون المرء من أهله، أو –على الأقل– يذعن له، ويعلم أنه شرعي أكثر مما يعتقد في تدين نفسه، إن لم يكن من أهله.

وليس للمرء أن ييأس إن وجد نفسه من عامة الناس في إدراكه للدين، كما ليس له أن ييأس من تحصيل أعلى مراتب العقل، إذا وجد نفسه من أهل العقل المعاشي؛ لأن الله فتح أبواب الترقي من طور إلى آخر في المجالين. لكن الترقي ما يكون بالأماني والظنون، بل بالتلمذة لأئمة الفريقين مع توافر الشروط الموضوعية، كما هو معلوم.

يغلط كثير من الناس، فيظنون أن المرء حتى يسير في طريق التعرف، لا بد أن يشتغل بالعلوم العقلية والنقلية ويكون من أمهر أصحابها؛ والحق غير ذلك! وإننا لما اشترطنا شروطا للطالب، ما عنينا ما قد يتوهمه هو من كلامنا بحكم العرف، وإنما قصدنا أن يتوافر له الاستعداد الخاص فحسب؛ الذي هو كالتربة الصالحة للزراعة. بل على العكس من المظنون، قد يكون الاشتغال بالعلوم، فوق الحد الضروري، شَرَكا يعلق فيه المرء كما يعلق من يقع في الرمال المتحركة. وقد أشرنا إلى هذا الانقطاع، في مجالَيْ العقل والدين معا إن كنت تذكر.

فلما كان التصوف بهذا السمو، ولم يكن كل الناس من ذوي الاستعداد الخاص؛ لجأوا إلى الطعن فيه، رفضا للإقرار من أنفسهم بالقصور، ورفضا لسواهم، أن يصنفهم في مراتب أدنى من الكمال. وذلك لأن الكمال معشوق للنفوس بفطرتها؛ وإن هي لم تُحصّله حقيقة، ادعته وكرهت أن تُنعت بسواه. هذا هو الأصل في إنكار المنكرين. أما السبل التي يتبعونها في إنكارهم، فذاك شيء آخر؛ يعود إلى الصفات الغالبة على المنكِر، وإلى مجال تخصصه إن كان ممن يباشر العلوم.

الفَصْلُ الثَّانِي

جدلية الوسيلة/ الغاية

عندما يكون الدين الذي جُعل في الأصل وسيلة لاستنقاذ الإنسان من جهله المقابل للمعرفة الحق، فكيف سيعود إذا استُحدثت له غايات غير الغاية الأصلية؟

الكلام هنا يعني الفرد كما يعني الأمة. ففيما يرجع إلى الفرد، فحتى يحقق غايته في نفسه؛ وفيما يعود إلى الأمة فحتى تعلم مكانها من الوضعية الأصلية، وتعلم سمات المرحلة التي تمر بها بالمقارنة إلى مسارها كله.

لا شك أن الدين كان عند الصحابة رضي الله عنهم وسيلة إلى غايتين لا تتمايزان إلا من حيث المكانة الإدراكية التي لكل منهم (المقام). فكانت الغايتان متصلتين. هذا الاتصال، هو السبب في وحدتها، رغم ما ظهر من اختلاف في الرأي أواخر الخلافة الراشدة مثلا. وقد سبق أن تكلمنا عن معنى ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ الواقعة: ١٣ – ١٤، و﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ الواقعة: ٣٩ – ٤٠؛ بما يوضح أن الدرجتين من التدين، كانتا موجودتين معا، بنفس العدد تقريبا. هذا ما يجعل مجتمع الصحابة رضي الله عنهم نموذجيا، إليه تقاس كل مجتمعات المسلمين الذين يأتون بعدهم.

ثم صارت الغاية الأصلية، تحل محلها غاية أخرى. حدث هذا بدرجات مختلفة بين أجيال الأمة. بها صارت تمتاز بعضها عن بعض. حدث استبدال الغاية في المرتبتين الأساس معا.

فبالنسبة إلى الخواص، حيث كانت الغاية الله، صارت الغاية الدين، الذي كان في الأصل وسيلة؛ وفيما يخص العامة، صارت الغاية الدنيا، بعد أن كانت مَعبرا إلى الآخرة. حدث هذا بطريقة متداخلة ومتماوجة. فدخلت الأمة –بحسب كل مرحلة– في وضعية استثنائية، ستظهر نتائجها جلية في آخر الزمان.

ذكرنا أن الطائفتين (طائفة الخواص وطائفة العوام) كانتا مرتبطتين. هذا الارتباط سينفصم بالتدريج، عندما تبدأ طائفة الخواص تتناقص عددا. وسيحل محله ارتباط بين العامة ومن سينحرف من "الخواص" عن الغاية الأصلية التي هي الله.

من هم الجزء المنحرف من الخواص يا ترى؟ إنهم الفقهاء! ستبدأ طائفة الفقهاء قليلة بحسب ما كانت تدعو الضرورة إليه، ثم ستتكاثر في اتجاه عكسي لطائفة الخواص الأصلية. وبسبب أن الدين أصبح غاية عندها، فإن الرؤى المختلفة للدين نفسه، ستكون أول عامل مؤسس للمذاهب بنوعيها: العقدية والفقهية.

أما العامة، فبارتباطهم بالفقهاء الذين حلوا محل الربانيين السابقين، فإنهم سيوفِّقون بين التدين "الفقهي"، والانهماك في الدنيا. فنتج عند الأمة تدين محرف عند الطبقتين: العليا (الفقهاء) والدنيا (العامة). هذه الحالة هي ما أوصل الأمة الآن إلى نقيض ما كانت عليه في أول أمرها.

سيقول قائل: كيف تقول ما قلت، والفقه قد نص عليه الكتاب والسنة؛ وتدارس العلم ثبتت أفضليته عند الجمهور؟ أيكون الجهل والسير على غير هدى هو المطلوب؟!

فنقول: كل ما قدمته صحيح! لكن ما ربطته بالغاية منه كما دللناك. وبذلك يكون الفقه في الدين من أجل تصحيح الوسيلة إلى الله لا غير؛ ويكون تدارس العلم، من أجل الوصول إلى

المعلوم لا غير. أما مع غياب الغاية المشروعة، فإن الوسيلة غير معتبرة. مَثَلُ هذا كمَثَلِ من صار يحمل المحراث معه أينما ذهب. فمن غير قيامه بحراثة أرض (التي هي الغاية من صنع المحراث)، كيف تراه؟ هل نقول عنه: نعم الحارث هو، لمجرد حمله للمحراث؟ هذا لا يكون! وقد ضرب الله مثلا لمن يحمل العلم بالوحي ظاهرا من غير أن يتخذه وسيلة إلى الله، بالحمار الذي يحمل الكتب؛ فقال جل من قائل: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا ﴾ **الجمعة: ٥**. فهل سيتحول الحمار عن صفته بمجرد حمل الأسفار؟! كلا! وإياك أن تظن أن هذه الصفة خاصة ببني إسرائيل! فلو لم تكن من الأمة طائفة على هذه الصفة، ما جاء ذكرها في القرآن. وكل ما ذُكر في الوحي من صفات الأمم السابقة، إلا وأمتنا فيها من هو عليها. فافهم عن ربك في خطابه، ولا تكن من الغافلين.

وانظر إلى تدين الصحابة رضي الله عنهم، كيف كان بسيطا، ومع ذلك أوصلهم إلى ما لا يدانى من الثمرات: فمن علم وهبي شائع، إلى أخلاق رفيعة، إلى جمع (توفيق) نادر بين مختلف وجوه التدين. وانظر بعد أن صار الدين غاية، كيف أصبح أقل يُسرا، وكيف أنتج ثمارا أجنبية عنه من حيث الأصل. انظر إلى محاججة كل فقيه عن مذهبه وكأنه وحده الدين. وانظر إلى اشتغال الناس بفروع تدعو إلى السخرية أحيانا.

والعجب –عملا بمذهب الواقعية– كيف لا نجرؤ على إعادة النظر في تديننا، حتى نعلم (من غير عمل في البداية) مواطن الخلل عندنا. ما رأينا من يدلل بالاستمرار في الخطإ على كونه مصيبا، كأمتنا! صدق أو لا تصدق!

الفصل الثالث

لِمَ صار التصوف منكرا؟

بحسب التقسيم الذي مر معنا للأمة، عبر تاريخها، فإننا سنجدها في الأزمنة المتأخرة، تتكون من:

ا – طبقة الخواص بالمعنى الأصلي.

ب – طبقة الخواص بالمعنى المستحدث.

ج – طبقة العامة، في الوضع الاستثنائي.

وإذا كان التصوف دعوة إلى الله، فحتما لن تنكرها الطبقة الأولى، مما يجعل الإنكار ينحصر في الطبقتين الأخيرتين.

فإنكار الفقهاء، يأتي من كونهم نظروا إلى الوسيلة غاية. فأنت إذا خاطبتهم، قد يفهمون من كلامك غير ما تقصد، بسبب اختلاف محل النظر. هذا وهم لا يشعرون! عدم شعورهم، هو ما يجعلهم يشكون في مخاطِبهم لا في نظر أنفسهم. بل إن من أعجب العجب، أنك تجد من الفقهاء من لا ينكر التصوف، لكن يُنكر على الصوفية (دائما الصوفية عندنا غير المتصوفة). نعني ينكرون على بعضهم، أو ينكرون في شيء دون شيء. وحتى نقرب إليك مسألة الحكم مع اختلاف محل النظر، نضرب لك مثلا: خذ شخصا قتل شخصا آخر بمسدس. فعرضنا الشخص المجرم على قاضيين: أحدهما نظره إلى الشخص القاتل ودوافعه وظروفه، والآخر نظره إلى المسدس: ما نوعه وما عياره، و... فحكم القاضي الأول سيكون بقتل القاتل

قصاصا، وحكم الثاني سيكون بإتلاف المسدس، ومنع الشركة من مواصلة التصنيع. رغم أن المثل بعيد في الواقع، لكنه من حيث المعنى، هو نفس ما كنا نتكلم عنه، من اختلاف محل النظر. نعني بالنظر التوجه القلبي لدى جماعة المقربين وجماعة الأبرار وأصحاب اليمين.

أما العوام، فما أنكروا إلا بإنكار الفقهاء، وإلا لو تُركوا وشأنهم لكانوا من أشد المعظمين للصوفية، كما كان أسلافهم. فهم محرومون بسبب فعل الغير. ولما كان الفقهاء قد فتحوا باب الجراءة على الحق للعامة، حتى يَخلُصوا لهم، فإن الله قد ابتلاهم –جزاء وفاقا– بجراءة طائفة من العوام عليهم. وقاسوا عليهم، بنفس ما قاسوا هم به على الصوفية؛ فكانت النتيجة انقلابهم عليهم ورميهم بأشنع النعوت. وصلت في الأزمنة المتأخرة إلى حد التكفير والحُكم بإهدار الدم. كفّروهم لأنهم جهلوا ما غاب عنهم من وجوه حق يعلمها الفقهاء دونهم؛ كما كفروا هم بعض الصوفية، لأنهم جهلوا وجه الحق الذي في كلامهم.

كان هذا تنبيها من الله لهم، حتى يعتبروا بأنفسهم، لكنهم قليلا ما يفعلون؛ لأسباب من أهمها أن الله يغار على أحبائه. لذلك لا تجد من يقع فيهم يفلح أبدا، وإن كان علمه (فيما يبدو) يساوي علم الثقلين.

ولعلك تقول: فلمَ أفلح فقهاء كانوا ينكرون على أهل الله، وصاروا بعد ذلك منهم؟ كما وقع للعز بن عبد السلام مع أبي الحسن رضي الله عنهما؟

فنقول: الإنكار نوعان:

١ – إنكار شرعي: فهو يكون منكرا، بحسب ما يعلم (لأنه لا يمكن غير هذا، ومن هذا الباب أنكر موسى عليه السلام على الخضر عليه السلام)، فإذا أفدته ما لم يكن عنده رجع في الحال.

فإنكاره كان للحق ورجوعه له. فهذا النوع من الإنكار لا يعده الله جالبا إلى المقت منه سبحانه.

ب – إنكار بالهوى يتخذ الشرع مركبا له: فهذا تكون صورته في البداية كالأول، لكنه لا يعود إلى الحق إن أوقفته عليه. فهذا هو الذي يكون سببا في المقت من الله. ومن مقته الله لا يفلح أبدا.

الفصل الرابع

مسألة التوحيد

إذا كنا قد علمنا أن الأمة في تدينها طبقات، فالتوحيد لا شك يختلف من طبقة إلى طبقة. ولما أمر الله بعلم "لا إله إلا الله" في قوله سبحانه: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾محمد: ١٩، كان العلم في هذه الكلمة من غير شك سيختلف باختلاف درجات المأمورين به. وتعميم نمط واحد من الفهم في التوحيد على كل الأمة، هو من البدع المخالفة للأصل الشرعي والمنطق العقلي. فلا يجوز للمقربين أن يلزموا العوام بفهمهم، ولا للعوام أن يشترطوا على المقربين بما يعطيه علمهم.

نعم، يصعب تبيّن الأمر، لأن طبقات الأمة ليست بينها حدود واضحة (حسية)، حتى نعلم العامة من المقربين؛ ولكن رغم ذلك فلا بد لمن ينظر بإنصاف أن يعثر على صفات مميزة تعينه على إيفاء المراتب حقها.

وإن مما وقع فيما مضى من الأيام من فتنة الخواص للعوام في مسألة التوحيد، مخاطبة الحلاج رضي الله عنه لعامة المسلمين بما لم يُطيقوا، رغم نهي شيوخ الصوفية له؛ مما ينبئ أنه كان مغلوبا. وهو ما جعل الجيلاني رضي الله عنه يُنبه إلى حاله بقوله في زمانه: "عَثَرَ الحلاج، ولم يكن في زمانه مَنْ يأخذ بيده، ولو أدركته لأخذتُ بيده." وبهذه الفتنة فُتح باب لن يُسد إلى يوم القيامة.

ثم جاء بعد ذلك قوم متكلمون، يخوضون في مسائل التوحيد بفكرهم. فجرّأوا العوام على الكلام، بعد أن أنس هؤلاء من أنفسهم نوع قدرة على الفهم.

ثم صار التوحيد مباحا للعموم، يتكلم فيه كل أحد. بل جاء قوم -يزعمون أن ذلك من حرصهم على الأمة- يجعلون له ضوابط بحسب مبلغ إدراكهم، وتشددوا فيها حتى عدوا المخالف لهم مشركا. فصاروا فتنة من الجهة المقابلة للفئة الأولى. وحوصرت الأمة من جهتيها بالفتنة في التوحيد، التي ما زالت نامية إلى الآن.

كل هذا الوضع، مخالف للسنة النبوية، وسنة الخلفاء. فالصحابة ما كانوا يتكلمون في التوحيد بعقولهم، ولا ألزموا أحدا بفهومهم؛ لأنهم كانوا يعلمون أن التوحيد له بداية وليست له نهاية. كيف تكون له نهاية، والله لا يُحيط به أحد من عباده مهما بلغ من العلم! بل إن الزيادة من العلم التي أُمرنا بسؤالها من الله اقتداء بنبيه عليه وآله الصلاة والسلام، في قوله سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه: ١١٤، لن تكون إلا منه. وسبب هذه الزيادة المطردة هو ما كان يجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر الله في اليوم مائة مرة. وأمر لم يُحط به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كيف يحيط به غيره؟! فكيف يأتي قوم بعد هذا، يجعلون لهذا العلم سقفا؟ أيكون الأدنى حجة على الأعلى؟! ومن الأعلى؟ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم!

لذلك، فأول ما ينبغي للمتعرف على التصوف، أن يتوب من هذه البدعة؛ وأن يتهيأ لقبول ما لا يعلمه في الحال. ولا معين له في ذلك إلا حسن الظن بالله ورسوله، والوثوق بشيخه، حتى يسلك به لجج بحره.

وحتى يعلم المقيدون للتوحيد في مَداركهم بنقصهم، فإنا سنسألهم أسئلة تنبههم إلى مواطن عجزهم، وتوقفهم على جهلهم. لا نكلفهم إيجاد أجوبة عنها؛ لأن الجواب عنها يكون تعليما من الله لعباده المصطفين.

من هذه الأسئلة:

— ما الفرق بين الوجود الحق، والوجود المخلوق؟ وهل الوجود وجود واحد في الأصل أم هما وجودان؟ فإن كان وجودا واحدا، فهذا هو القول بوحدة الوجود؛ وإن كان وجودين، فهذا هو الشرك الجلي من أول قدم.

— فإن كنت تقول بوحدة الوجود، فكيف يكون العابد هو عين المعبود؟ وما الذي يبقى من الشرائع بعد فقد الحدود؟

فإن قلت: إن كان الأمر لا يصح من الجانبين، فما بقي للتوحيد حد، به يُعرف عند الناظرين؛ قلنا هذا هو حده! فإن كنت تجيد السباحة في هذا اليم فتقدم، وإلا فسلِّم تسلم.

— ثم إن التوحيد بصيغة "تفعيل"، يفيد جعل الكثير واحدا. فما هو الكثير الذي يجعله الموحد واحدا؟ فإن كان ذوات، فالذات لا تتعدد؛ وإن كان صفات، فالصفات معانيها مختلف بعضها عن بعض. والمختلف لا يوحّد! فإن كان التوحيد هو الجمع، فهل يُجمع ما لا يتحقق تجانسه. فإن كانت المجانسة من وجه، فما هو؟ ونفس المقولة تصدق على الأفعال. ومعلوم أن التوحيد متعَلَّقه الذات والصفات والأفعال؛ أما توحيد العوام، فهو مدخل إلى التوحيد في الحقيقة فحسب، نافع لمن لم يتطاول على مرتبة غيره من أهله.

— ثم، لو كان التوحيد (نعني الخوض فيه) من أساس الدين، لكان الصحابة والتابعون أول من عقد المناظرات فيه؛ أو على الأقل، أول من أسس للكلام فيه. فتركهم لهذا الخوض دليل

على أن التوحيد ضوابطه من خارج العقل. وكيف يكون المخلوق حاكما على الحق، حتى يقول عنه: ينبغي أن يكون كذا، ولا يجوز أن يكون كذا.. تعالى الله عما يقوله الظالمون!

ثم لنعد إلى أهم ما يتعلق بالتوحيد عند الناظرين إلى التصوف من خارج، وهي مسألة الوساطة بين الله وعباده التي سبق أن مررنا بها مرورا خفيفا في فصل سابق؛ والتي لا يكاد منكر يسكت عنها. فيقولون: إن الصوفية يتخذون وسطاء بينهم وبين الله، ما أمر الله بهم ولا شرع سبحانه لعباده ذلك؛ وهو القائل سبحانه:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ البقرة: ١٨٦.

وعلى هذا، فكل من يدعو إلى التمسك بشيخ فهو مشرك مخالف لصريح الكتاب والسنة!

فنقول:

أولا: أنت انتبهت إلى قول الله: "فإني قريب" وأخذته بحسب ما يعطيك فهمك السقيم؛ وتجاوزت قوله سبحانه: "وإذا سألك". فهل أنت ممن سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه؟ حتى نشهد لك بالنسبة الخاصة إليه سبحانه التي ذكرها في قوله: ".. عبادي ..."؛ أم أنك تحكم بهواك؟!

فإن قلت: أنا لا أجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معي حتى أسأله، ولو كنت زمنَ الصحابة رضي الله عنهم لسألت!

نقول: هذا عذر أقبح من ذنب، كما يقال! وذلك أنك نسبت إلى الله أنه يدلّك على ما لا يتيسر؛ فتكون دلالته سبحانه لك ولأمثالك عبثا. تعالى الله! فإن لم تكن تعلم وجه سؤال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ربك، فاسمع منا:

ا- تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه، إن وُجدت زمن الصحابة رضي الله عنهم كما قلت. هذه أوضح صورة لذوق هذه الآية. وليس بيننا هنا خلاف.

ب- أن تكون ممن جاء بعد زمن الصحابة رضي الله عنهم، كما هو حالنا اليوم. فالسؤال هنا هو: كيف ستسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الآن؟ فاعلم أن الجواب: هو أن تسأله في وارثه الرباني؛ والعلامة: أن يجيبك منه:"فإني قريب". فإن لم تسمع الجواب، فإما أنك لم تسأل حقيقة، وإما أن المسؤول غير رباني. وبهذا ستكون مضطرا إلى العودة إلى ما أنكرته في البداية من اتخاذ الوساطة. فهل ترجع إلى الوحي بعد هذا، أم ستبقى مع وهمك؟

والوساطة، لا بد أن نفرق فيها بين معنيين: مطلق ومقيد. فلو كانت الوساطة مذمومة مطلقا، لانتفت حتى وساطة الأنبياء عليهم السلام، وعلى رأسهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا مخالف لصريح الوحي؛ لأننا نأخذ ديننا عنه صلى الله عليه وآله وسلم! ولا وساطة أوضح من هذه!

أما بالمعنى المقيَّد، فهي الوساطة الحاجبة عن الحق، والتي هي من غير إذن رباني فيها؛ كاتخاذ الفقيه وسيطا على الإطلاق، ومن غير ربط حتمي بين وساطته ووساطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ أو كاتخاذ الحكام (بالمعنى الواسع الذي يشمل النواب المشرعين) وسطاء كما نرى في زماننا؛ أو كاتخاذ الوالدين (ومن في معناهما) وسطاء من غير التزام بطاعة الله في المرتبة الأولى، وهكذا...

أما وساطة الشيخ الرباني، فهي من وساطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقد دللناك على الجمع بينهما في الحُكم كيف يكون، بسبب أن الوراثة استمرار للنبوة. وهو ما ذكره الله في قوله سبحانه:﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الجمعة: ٢ - ٣ ؛ وكل من جاء بعد عصر الصحابة فهو من الآخرين. فإن فهمت عنا ما نقول، فاعلم أن القائل بحذف وساطة الشيخ الرباني، هو قائل بحذف وساطة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لكن في مرتبة أدنى. فإن أصر على إنكاره بعد كل هذا التوضيح، فاعلم أنه غير معظم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا موقر. وقد يكون منافقا، يتستر خلف توحيده المزعوم، ويُضل بكلامه من لا خبرة له بهذه الأمور. إلا إن كان يتكلم عن توحيد مِن وضعه، ما جاء عن الله ولا عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم! فوقتها سنقول له ولأمثاله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ الكافرون: ١ - ٦ .

أردنا أن ننبهك إلى أن التوحيد توحيدان:

- شرعي، وهو المعتبر عند الله وعند عباده.
- ووضعي، وهو ما تولّد عن العقول المحجوبة القاصرة. وهذا لا يعبأ الله به ولا بأصحابه.

فإن كنت يا ولدي، تريد أن تتكلم في التوحيد، فعليك أن تعلم بابه أولا؛ ثم إن كنت تظن أن لك باعا فيه، فبعد ذلك نسمع منك. أما هذا التوحيد الذي صار سمة لسفهاء زماننا، فما هو التوحيد الشرعي، ولا هم موحدون كما يزعمون. نعم، كان يُمكن أن نتجاوز عن قصورهم كما تجاوز الشرع الحكيم، لو أنهم تأدبوا ولزموا مرتبتهم؛ أما والحال غير هذه فلا.

ومثلهم في هذا كالإنسان الذي لا خبرة له في فنون القتال؛ هو في مأمن ما لم يدخل إلى حلبة النِّزال؛ أما إن ظلم نفسه ودخل، فلا لوم على من يصرعه من أول ضربة!

نقول هذا من غيرتنا على التوحيد وأهله، في زمن صار الكلام فيه مهزلة لا تُنبئ إلا عن "إعاقة عقلية"، وخلل في التدين. وما كانت المظاهر التي ينخدع لها العوام، بحاجبتنا عن حقيقة الأمر، ولله الحمد. فمن شاء أن يسلك طريق التوحيد، فإنا قد أبنّاه له؛ ومن لم يشأ، فأقله أن يكون صادقا مع نفسه ويسكت عما لا يُحسن. وإلا فهو أحمق ينبغي أن يبحث عن الدواء في مستشفيات الأمراض العقلية لا عند علماء الدين.

كل هذا، واعلم في النهاية أنه لا وساطة بين العبد وربه؛ ولكنه الحجاب، يتوهم معه المتوهمون وجود ما لا وجود له، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ الحج: ٤٦. "لا تعمى الأبصار"، لأنها مؤدية لما تبصره، و"تعمى القلوب" لأنها محجوبة عما تنظره. وكل كلام بعد هذا، فسيصير حشوا من جملة الحشو. والله الهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الخامس

نماذج من كلام أئمة الطريق

سنعرض لأقوال أهل الله التي استشكل فهمَها كثيرٌ من الناس، والتي بسببها اشتد النكير على هذه الطريق. ونحن إذ نفعل هذا، فإننا لا نَعِد بجعل تلك المقولات في متناول الجميع؛ لأنها مقولات سامية، لا يتمكن من مسها إلا من زكت نفسه. ولكننا سنعيدها إلى أصلها من الكتاب والسنة، حتى يرتفع إشكال ادعاء أنها من خارجها.

وقبل ذلك، لا بد من أن نتكلم عن المعاني في نفسها، فنقول: إن تداولها بين أهلها يكون بأدنى إشارة، وذاك هو لسانها؛ لأن الإفصاح يضيق عنها ويخرج بها إلى غير المراد منها. أما غير أهلها، فيكون الكلام معهم فيها أعجميا لا يُبين. فيكون بذلك ظلما لها بكشفها لغير أهلها، وظلما لهم من حيث كونها تعود فتنة عليهم، قد تضر بهم أشد الضرر.

فإن قلت: إن القرآن الذي هو كلام الله، والذي هو أبلغ من كل ما سواه، وأسمى منه معنى من غير شك، قد خاطب الجميع دون تمييز لطبقاتهم. فكيف يزعم بعد ذلك قوم أن معانيهم قد أعجزت الأفهام؟

نقول:

اعلم أن القرآن الكريم معجز في لفظه، وهذه الصفة ليست لسواه. فهو وإن اطلع على لفظه كل أحد من الناس، فإنه لا ينال منه إلا ما يناسب مقامه وهذا هو مدلول تسميته: القرآن

الكريم. فتجد الإنسان المحجوب يأخذ منه الأحكام الظاهرة على قدر فهمه، وتجد العارف يأخذ منه المعارف على قدر قدمه. ويبقى منه ما لا يعلمه إلا الله ورسوله.

والدليل على ما نقول، هو أن العامي إذا قرأ القرآن، لا يدرك منه أغلبه، ويأخذ ما لا يدركه بالتسليم والإيمان فحسب. وإننا عندما نطلق صفة العامي، فإننا نعني بها عامة الناس ومعهم الفقهاء المترسمون.

وقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتاب الإحياء كلاما عن أحد الحكماء يشير إلى كون الله قد خاطب الناس بحسب ما يدركون، فأنزل معانيه في ألفاظ معهودة لديهم. وضرب لذلك مثلا من تنزل الإنسان إلى فهم الدابة إذا أراد منها أمرا بالأصوات التي تؤدي عندها ذلك المعنى. ولو أنه خاطبها بلغته هو، لما فقهت عنه شيئا من مراده. انتهى معنى الكلام. ونحن وإن كنا نؤيد هذا الكلام فيما ذهب إليه لا من جميع الوجوه؛ فإننا نؤكد على أن للقرآن بابا منه يدرك العبد المصطفى معانيه على ما هي عليه. وفي هذا الباب يتفاوت المتفاوتون. ونرى أن المثل الذي ضُرب، إنما ينطبق أكثر، على كلام أهل الله في محضر العامة؛ بحيث لا يُدرَك من كلامهم سوى الألفاظ ومدلولاتها الحسية. فيكونون كمن يخاطب الدواب بلغة الإنسان. وإياك أن تظن أننا نبالغ في تعظيم أهل الله على غير ما يستحقون، أو أننا نبالغ في تحقير العامة بأكثر مما هم عليه؛ لأن نظرنا هنا هو إلى المعاني لا إلى الطرفين اللذين يتناولانها.

إذا تبين هذا، عدنا إلى ما كنا بصدده:

قد تكلم أهل الله فيما بينهم أو مع المستشرفين من تلاميذهم بكلام، أو كتبوه في كتبهم فانتهى به الأمر بين أيدي العامة، فأنكروا لفظه لمّا فهموا منه ما تواضعوا عليه في لسانهم.

وهم محقون في ذلك (أي العامة)، لأنهم ما أنكروا إلا الباطل الذي أدركوه. لكنهم ما علموا أنهم أدركوا ما لم يرده المتكلم بذلك الكلام. فنشأ عند المهتمين ما يسمى الشطحات. فمنهم متأول لها بعلم أو بغير علم؛ ومنهم الراد لها بعلم أو بغير علم. وصار من يبغي التشويش على أهل الطريق، يركب هذا المركب، يستهوي به أصحاب النفوس المريضة، ناسيا أنه في أغلب الأحيان، يرد معاني قرآنية، يُحرم منها هو ومن اتبعه ما دام لم يتب إلى الله من سوء صنيعه.

ما بقي الآن إلا أن نعرض لجملة من كلام أهل الله المشهورين، حتى نوقفك بإذن الله على أصله من القرآن أو السنة النبوية؛ والله المستعان.

١. الجنيد بن محمد إمام الطائفة:

يُعد رضي الله عنه إمام الطائفة؛ ومن كلامه:

* "**التوحيد إفراد الحدوث عن القِدم**"[١٦]: علق عليه ابن تيمية رحمه الله فقال: "فبيّن أن التوحيد أن تميز بين القديم والمحدث وبين الخالق والمخلوق، وصاحب الفصوص أنكر هذا". يعني الشيخ الأكبر رضي الله عنه.

كل من يظن أن بين كلام أئمة الطريق تعارضا، فليعلم أن فهمه أدرك ما أقره، وجهل ما غاب عنه فأنكره. وذلك لأن أهل الله لا اختلاف عندهم في المعاني، وإنما كل واحد يتناولها من وجه. وقد يُعبر عنها أحدهم بألفاظ اعتاد عليها الناس فألفوها، كما قد يعبر عنها نفسِها آخر بكلام صادم يهز من يسمعه. وكل ذلك يعود أولا إلى مدى تمكن القائل في المعرفة، ثم ثانيا إلى الحال (الظروف) التي قيل فيها الكلام.

---

[١٦] . مجموع الفتاوى لابن تيمية - ٢٤٠/١١ - الطبعة : الثالثة ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.

وتعبير الإمام الجنيد عن التوحيد، بأنه إفراد الحدوث عن القدم، هو قول متشابه. وذلك لأن التوحيد في اللغة ضد الإفراد. فالتوحيد جمع ما تكثر، والإفراد الفصل المانع للجمع. ويعني بكلامه تمييز صفات المخلوق من صفات الخالق. هذا الكلام في ظاهره فرق. أي هو من قبيل كلام المحجوبين الذين لا معرفة لديهم (نقصد المعرفة الخاصة). لكن ما غاب عن ابن تيمية وأمثاله، هو أن الجنيد كلامه في الفرق الثاني الذي يأتي بعد الجمع الذي أنكره على الشيخ الأكبر. ومقصوده رضي الله عنه، في عبارته الجامعة، أن حقيقة التوحيد هي إفراد الحدوث عن القدم في عين الجمع. وما ندلك عليه من معنى هو إدراك الفرقان في عين القرآن. أما كلام الشيخ الأكبر رضي الله عنه، الذي أنكره ابن تيمية وغيره، فهو من التحقيق الصرف، ومن فرقان القرآن من وجه القرآن، الذي لا يعلمه إلا الخواص من عباد الله. وقبول كلام دون آخر من كلام أهل الله كما سبق أن ذكرنا، إنما يعود إلى اعتبار اللفظ دون المعنى، بما أن المعنى واحد في الأصل. يدل على ما نقول، ثناء الشيخ الأكبر رضي الله عنه عن الجنيد وأمثاله في الفتوحات المكية، حيث يقول: " وطائفة أخرى من علماء هذه الأمة يحفظون عليها أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأسرار علومه كعلي وابن عباس وسلمان وأبي هريرة وحذيفة، ومن التابعين كالحسن البصري... ومن نزل عنهم كالجنيد والتستري، ومن جرى مجرى هؤلاء السادة في حفظ الحال النبوي والعلم اللدني."[١٧]

ومستند هذه المقولة من كتاب الله هو: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ محمد: ١٩. فأمْر الله بعلم لا إله إلا الله، هو العلم بصفات الحق وتمييزها عن الخلق. ومن أخص صفات الحق، الربوبية. فمن

[١٧] . الفتوحات المكية ج٢ ص ٣٦١ فقرة ٥٦٥ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢ م.

علم الربوبية وأنها لله وحده، فقد ميز. وعلامة إدراكه لهذا العلم، أن يستغفر لذنبه الذي هو نسبة بعض صفات الربوبية إلى نفسه بأن يعود بها إلى أصلها ويتعرى منها؛ ويستغفرَ للمؤمنين والمؤمنات بالدعوة لهم إلى ما علمه، وبالدعاء. فالأخوة الإيمانية تقتضي أن يحب المؤمن لأخيه ما يُحب لنفسه. نفهم من هذا أن كثيرا من المؤمنين والمؤمنات (طبقة العامة) ليس لهم علم التوحيد المأمور به، وإنما عندهم علم ظني تقليدي. أما العلم حقيقة فيقينيٌّ كشفي أولا ثم تحقيقي ذوقي فيما بعد. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ **محمد: ١٩**: من الصفات خصوصا، أي متقلبكم فيها (بين عبيد وأرباب عند أنفسكم)، ومثواكم إلى أيِّها؛ حيث يختم لكم بها وتُنسبون إليها. وعلى المثوى، يستند المصير: فمن كانوا أربابا (تغلب عليهم صفات الربوبية) فمآلهم النار، ومن كانوا عبيدا فمآلهم الجنة.

* "**عِلمُنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا أو قال: لا يُقتدى به**"[١٨]: هذه العبارة يستدل بها المنتسبون إلى التصوف على صحة علوم القوم، كما يستدل بها المنكرون على فساد ما أنكروه عليهم. وكل منهم إنما يُعبر عن فهمه الخاص.

فإذا أخذنا كل طائفة أو مذهب، فإنا نجد أصحابه يزعمون أنهم ملتزمون بالكتاب والسنة، ربما أكثر من غيرهم؛ ويشترطون على الغير أن يعود في أقواله إلى الكتاب والسنة حتى يُستمع إليه. إن كان الأمر كذلك، فالخلاف ليس في اتخاذ الكتاب والسنة مرجعا، بل في الفهم وطريقة الأخذ من الكتاب والسنة.

---

[١٨] . مجموع الفتاوى - ٢١٠/١١. -الطبعة : الثالثة ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م.

كل مذهب مقيد بعقيدته في التعامل مع الوحي، ولا يتمكن من معرفة وجهة النظر المخالفة من موقعها، لأن العلم المجرد والتصور عن بعد لا يفيدان في هذا. لكن هناك من الأمة من يتمكنون من رؤية الأمر من جميع الزوايا كما يراه أصحابها، وهم المحققون الذين هم في أعلى مرتبة إدراكية ممكنة. وهؤلاء هم خواص الخواص. لكن من يأخذ عنهم؟ معلوم أن من ينظر إليهم من داخل مذهبه، لن يقبل منهم إلا ما يوافقه. إذن، فلا بد لمن يريد أن يأخذ عنهم أن يتسلح بالتسليم.

ولنعد إلى كلمة الجنيد الذي هو من أكابر المحققين، فتأكيده على أن علوم القوم لا بد أن تكون موافقة للوحي حتى تُقبل، هو بفهمه هو وفهم أهل الله فيه؛ وإلا ما كانوا ليختلفوا عن مذهب مخالفهم. وواضح أن كلامه موجه إلى المخالفين في المرتبة الأولى. يريد أن يُسهّل عليهم الاستماع إلى ما يقول، بحسن ظن. فإن سوء الظن سريع التسرب إلى النفوس المرتَّبة في أدنى سلم الإدراك. ودليلنا على ما نقول: هو اشتراطه قراءة القرآن وكتابة الحديث في الصوفي. هذا ينطبق عليه وعلى من على شاكلته؛ لكنه ليس شرطا عاما لدى الصوفية! فكم من صوفي مقتدى به كان أميا! خذ على ذلك مثلا، أبا يعزى المغربي، شيخ أبي مدين، والذي أثنى عليه الجيلاني وذكره الشيخ الأكبر في كتبه؛ ما كان يُحسن العربية بما أنه أمازيغي، وما كان يحفظ من القرآن إلا سورة الإخلاص والمعوذتين، يصلي بها. وغيره رضي الله عنه كثير. فالجنيد عند اشتراطه، ما كان ينظر إلى محل الشرط، وإنما كان نظره إلى المشترط له (المخاطَب). ومثل هذا معرفته ضرورية حتى يُعلم وجه الكلام، ويُعلم موضع التخصيص فيه من موضع التعميم.

وإذا ذكرنا أن من أئمة الطريق المعتبرين أميين، فهذا لا يعني أن علومهم لم تكن مقيدة بالكتاب والسنة؛ وإنما يعني أن طريق الأخذ منهما لم يكن من الطريق المعهودة المعلومة للعامة، بل من طريق خاصة يعلم فيها العلم من الله العليم. وما بقي إلا أن يؤمن المرء بوجود هذه الطريق أو أن ينكرها. فإن أنكرها، فلا سند له في إنكارها، إلا سوء ظنٍّ بالآخذ منها، أو اتهامٌ لله بعدم قدرته أن يُعلّم عبدا من عباده من طريق خاصة. وكلاهما دليل على ضعف في الإيمان وفساد في العقل. وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٨٢، فنسب سبحانه التعليم إلى نفسه. ولا شك أن تعليمه سبحانه يشمل الطريقين: العام والخاص.

* "**إذا أراد الله تعالى بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية، ومنعه صحبة القُراء**"[١٩]: الهداية كما الضلال منها عام وخاص. فإذا أراد الله بعبد خيرا بعد هدايته إلى الإسلام، يُتم عليه الهداية الخاصة بتحقيق الإسلام. فيكون إسلامه بالظاهر وبالباطن. وهذا لا يتأتى -بحسب الشائع- إلا إن أوقعه إلى الصوفية يربونه ويبصّرونه؛ ومنعه صحبة القراء (أهل العلم الظاهر)، الذين عندهم تضخم في جانب الظاهر على حساب الباطن. فإنه بصحبة القراء تترسخ عنده الغفلة المؤدية إلى قلة الإخلاص وعدم مراقبة الله في الأعمال. ومن صاحب قوما كان منهم. وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ التوبة: ١١٩. وقد رأينا كثيرا من القراء، فوجدنا الصادقين منهم يُعدّون على رؤوس الأصابع. ومن لم ينتصح بوصية الله، فما نصح لنفسه! ولو شئنا أن نخوض في

[١٩] . الرسالة القشيرية، ص ٢٣٨.

التفاصيل، والأدلة من الواقع لطال بنا الكلام وخرجنا عن نمط الكتاب؛ فإنا نريده موجزا، حتى يظفر منه القارئ برؤية واضحة.

* **"المْريد الصادق غني عن علوم العلماء، يعمل على بيانٍ يرى وجه الحق من وجوه الحق، ويتوقى وجوه الشر من وجوه الشر"**[٢٠]: هذه المقولة، تتمم سابقتها؛ فقد يسأل سائل: لمَ يحذر المريد علماء الظاهر، وأخذ العلم ضروري لتبيّن الأحكام؟ فالجاهل لا بد له من الوقوع في مخالفة الحق وإن لم يقصد! قلنا: إن الجنيد رضي الله عنه، اشترط في المريد الصدق، وهو عزيز! فإذا تحقق الصدق للمريد، وقع له تعلق بالحق لا ينفك عنه. ومن وقع له تعلق بالحق، فقد صار في حماه؛ ومن صار في حماه لا يُحوجه إلى غيره. فيعلمه وجه الحق من وجه الباطل فيما يَعرض له من أمور؛ فيكون فيها على بينة من ربه. فإن كان صاحب علم ظاهر، تبيّن له بعد ذلك الدليل الشرعي الذي يستند إليه؛ وإن لم يكن، لم يَضره عدم العلم بالدليل. وقد جربنا في نفسنا هذا الباب من التربية الربانية، حتى كنا نعلم الدليل بالكشف قبل أن نعلمه بالظاهر، فنجده مطابقا ولله الحمد؛ ورأيناه أيضا من غيرنا من إخواننا. وإن هذا الباب من أخذ العلم يعسر قبوله عند أهل الظاهر، بل يتهمون في أغلب الأحيان من يقول به. والسبب أنهم متعلقون في أخذ العلم بالسبب، والمريدون الصادقون متعلقون برب السبب. وشتان بين المقامين والحالين! ومن هنا قيل: "نهاية العالِم، بداية الفقير (المريد)".

وقد أشرنا في فقرة سابقة إلى تعليم الله لعباده، الذي يكون من طريقين: عام وخاص. بقي أن نميز العام من الخاص الآن. العام: هو الذي يكون بواسطة الأساتذة والوالدين، ومن في معناهما؛ والخاص: هو الذي يكون من الله بواسطة الملك، أو يكون من دون واسطة.

[٢٠] . حلية الأولياء (١٠/٢٧٠).

فالتعليم العام لا يُجزم بصحته مطلقا، لما يقع له من تأثّر بالأسباب؛ والخاص، معصوم من الباطل. من هنا كان المريد الصادق الذي يتلقى العلم الخاص، يعلم الخير من الشر حقيقة من غير احتمال تلبيس. هذا على العموم؛ لكن يبقى للمريد تخليص المقام الذي يصدق عليه ما يصدق على العام، لكن بكيفية أدق.

٢. أبو يزيد البسطامي:

*** "رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك!! فقلت: زيّنّي بوحدانيتك وألبسني أنانيتك وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هناك**"[٢١]: قال رفعني، وما قال ارتفعت. وقال أقامني، وما قال قمت. ليدل على أن الفعل لله، وهو يشهده كذلك؛ بخلاف من قد ينظر إلى كلامه فينكر عليه. يُنكر عليه لأنه يظن أنه صاحب الفعل، ولو تنبه إلى حقيقة ما دله عليه الشيخ في أول الكلام، لسلم. وقوله: "قال لي...أن يروك" يدل على أنه صاحب الصورة الخلافية (من الخلافة) في زمانه. وبما أن كل الخلق متطلعون إلى ربهم بأسرارهم، فإن العبد المتحقق بالصورة يكون هو المطلوب لهم، وإن لم يعلموا. فلما أخبره الله بهذا الأمر، قال:"زيّنّي بوحدانيتك" أي اجعل الظاهر مني صفتك الواحدية لتتحقق النسبة بين الناظر والمنظور؛ بسبب أن الصورة في الظاهر تعطي الكثرة. "وألبسني أنانيتك": أي كن أنت أنا حتى تكون الظاهر مني لهم، وتكون أنانية الشيخ غائبة حتى يأمن على نفسه من أن يظهر بها ولو طرفة عين، فيكون من أتباع فرعون. "وارفعني إلى أحديتك" حتى ينقطع عنه شهود الغيرية من الجهتين. "حتى إذا رآني خلقك...هناك" يريد لمن يراه، أن يرتقي في الشهود إلى الحق، بالخاصية لا بالعلم؛ فإن

[٢١] . اللمع لأبي نصر السراج الطوسي. ص: ٤٦١.

العلم قد يوجد وقد ينعدم عند الشاهد. فهو يسأل للناس أن ينالوا حظهم منه على قدر الحق، لا على قدرهم. وهذا أفضل أصناف الدعوة إلى الله.

وسند هذه المقولة من كتاب الله: ﴿ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ الأعراف: ١٩٨. فالعبد الرباني ينظر إليه الناظر، فإما يبصر وإما لا يُبصر. فإن أبصر فسيبصر الحق كما سأل أبو يزيد؛ ومن لم يبصر، فلن يعدو في نظره أن يكون الشخص فلانا بن فلان. وهذا كان نصيب مشركي مكة عند النظر إلى سيد الربانيين عليه وآله الصلاة والسلام.

❋ **"أول ما صرت إلى وحدانيته فصرت طيراً جسمه من الأحدية، وجناحاه من الديمومة فلم أزل أطير إلى أن صرت في ميدان الأزلية، فرأيت فيها شجرة الأحدية"**[٢٢]: في قوله "أول ما صرت إلى وحدانيته" يعبر عن رحلته من الأكوان إلى الحق. وهذه أول مرحلة في السلوك يقطعها المريد. وعندما يقطع هذه المرحلة يصير روحانيا. وهو ما عبر عنه بقوله "فصرت طيرا جسمه من الأحدية" يعني بجسمه جذعه أي أصله. فالأحدية أصل الواحدية التي كانت نهاية المرحلة الأولى. أما الآن فهو يصف المرحلة الثانية من سلوكه، وهي السلوك في الحق. "وجناحاه من الديمومة" لأنه ينظر في الاتجاه الذي كان عليه من أول سيره. "فلم أزل أطير...الأزلية" ارتفع عنه وهم القبل والبعد؛ فوجد الكل في نقطة واحدة عبر عنها بالأزل. والأزل هنا ليس الأزل المقابل للأبد. "فرأيت فيها شجرة الأحدية" يقصد أنه رأى جذع الشجرة، فهو الأحدية.

---

[٢٢] . اللمع - ٤٦١ -

وقد ذكر الله الشجرة في المثل الذي ضربه في قوله سبحانه: ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ النور: ٣٥. فإذا علمت جذع الشجرة ما هو، فاعمل على أن تعرف الأغصان التي هي الفروع وفروع الفروع.

وهذه المشاهد التي يصفها أبو يزيد وغيره، هي معانٍ علوية، تنزلت في قوالب صورية خيالية. يراها الولي إما يقظة وإما مناما. وحتى الله سبحانه أنزلها في قالب تمثيلي، كما في الآية السابقة، حتى تنضبط لأهلها. فإن المعاني، لا تتمكن جل العقول أن تدركها مجردة.

* "**سبحاني سبحاني**"[٢٣]: الكلمة المشهورة هي: "سبحاني سبحاني، ما أعظم شاني!".

هذا الكلام لا يصدر إلا عن عارف محقق، ولكن في حال دهش. بمعنى أنه في حال نطقه كان جديدا عليه معناه. فمن أنكره من حيث ظاهره، فهو معذور؛ لأن إدراكه لا يعطيه قبول مثل ذلك؛ وأما أهل الله فيعلمون مقصده فيقرونه عليه دون أن يحجبهم قالبه.

ونحن سنقرب لك هذا المعنى بقدر الوسع حتى تتعلم التوقف أمام كلام أهل الله أدبا غيبيا، في انتظار أن تنخرط في سلكهم إن كنت من أهله عند الله.

فاعلم أن التسبيح هو التنزيه في اللغة. والمعنى المراد هنا، هو أن تسبيح العبد ربه، يكون على قدر معرفته به. ومعلوم أن الناس متفاوتون في هذه المعرفة، حتى إن منها ما هو باطل، ولكن صاحبها على ظن منها بأنها الحق. كما قد تكون حقا لكن ليس من مرتبة تمام المعرفة والإيمان، بل من مرتبة الإيمان المخلوط بالظن.

ومعلوم أن المنزه لله من مرتبة نقص،لا بد أن يكون تنزيهه ناقصا. فوجب حينئذ على هذا العبد عند علمه بهذه الحقيقة أن يسبح الله عن تسبيحه. وهذا نظير ما وقع لرابعة العدوية

---

[٢٣]. اللمع - ٤٦٤ -

رضي الله عنها عند قولها: "إن استغفارنا في حاجة إلى استغفار". فعاد التسبيح على العبد لأنه ناقص. ومعنى عودة التسبيح على العبد هو طلب هذا العبد الكمال لنفسه.

أما إن قلت: فلم إذن أُمِرنا بالتسبيح إن كان فيه هذا التفصيل؟

فاعلم أن الأمر وإن كان عاما، في هذه المسألة أو في غيرها، لا يأتي به إلا أهله على التحقيق؛ أما غيرهم فيأتون بصورته. وهم على خير في ذلك، لأنهم يحصلون بذلك التشبه الأجرَ على حسب نيتهم وصفائهم. وعلى هذا فخذ التشريع كله إن كنت ممن يفقه ما نقول.

أما المسبحون على التحقيق عند الله، فهم من يسبحونه بتسبيحه نفسه سبحانه بما يليق به، لا بتسبيح أنفسهم. فافهم عنا يرحمك الله. وهذا المعنى هو ما يشير إليه قول الله تعالى:﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ **الصافات: ١٨٠**. وضمير الغائب هنا عائد على الغافلين الغائبين عن الحضور. وقوله تعالى عقب هذا:﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ **الصافات: ١٨١**. أي أن المرسلين مبرؤون من تسبيح الله بأنفسهم، فهم سالمون مما يقع فيه غيرهم. وقوله تعالى بعده: ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ **الصافات: ١٨٢**. أي أن السلامة من القصور في هذا المقام، هي من فضل الله على العبد الرسول أو على ورثته. ما نالها بحوله ولا قوته. فالحمد الخاص بها يعود لله؛ لأنه مسبح نفسه بنفسه.

ثم إن هذا العارف لما تحقق بالحق وعرف حقيقة نفسه، وجب عليه تسبيح نفسه عما كان ينسبه إليها من الصفات المغايرة. فلذلك قال: سبحاني، سبحاني. وليس المقصود من العارف النطق بمثل هذه الألفاظ، إنما المقصود ذوق هذا المعنى. والدليل على ما نقول، هو قوله ما أعظم شاني، بالإفراد. ما قال ما أعظم شؤوني! فالشؤون لله وهو لا يحيط بها؛ بينما شأنه، لله ولنفسه. فما تحقق إلا بحقه، لا بالحق.

واعلم أن هذا البحر عظيم اللجج، والخوض فيه منوط بالذوق وحده. وما هذه إلا بارقة يضيء لك سناها ظلمة وهمك عند سماع القول المذكور.

* " **ضربت خيمتي بإزاء العرش**"[٢٤]: هذا القول يدل على أنه رضي الله عنه رحماني المشهد؛ وبالتبع، كامل المعرفة. يقول الله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ طه: ٥، ويقول سبحانه: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ مريم: ٩٣ . لأن مستوى الرحمن، يقتضي مجاوزة كل أسماء الجلال والجمال. وذلك لأن معرفة الجلال أو معرفة الجمال، هي معرفة نصفية؛ أما معرفة الكمال فهي تامة. فهو رضي الله عنه يكني بـ"ضربتُ خيمتي" عن المقام الذي له؛ بخلاف ما يظنه العوام من أنه جراءة على الله. فهو ما قام إلا بالتعريف عن مقامه لا غير. وبالإفصاح عن مقامه، علمنا أنه من عباد الرحمن الذين ذكرهم الله في كتابه: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ الفرقان: ٦٣ . يمشون على الأرض هونا لأنهم عباد خالصون، ما فيهم أدنى ربوبية. وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، لأنهم مطلعون على مقام كل ناطق. فعلمهم لا يعطيهم الاعتراض على أحد، وإن كان كلامه في ظاهره جهلا. فكل جهل له أساس في العلم، وإنما الاختلاف في التنزيل والإلحاق. ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾ الفرقان: ٦٤. كلمة يبيتون، تدل على أنهم من أهل الباطن، مجهولون عند بني جنسهم. عبادتهم باطنة في كل أحوالهم، مع بقائها في الظاهر على ما الناس عليه. ونسبة العبادة لربهم قبل ذكرها، تدل على أنهم أهل اختصاص فيها. اجتباهم ربهم لهذه الدرجات، واصطنعهم لها. ﴿ وَٱلَّذِينَ

---

[٢٤] . اللمع -٤٦٤ -

يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ الفرقان: ٦٥. جهنم عند الخواص الحجاب، وجهنم التي يعلمها العوام هي مظهر له. فالعامة يسألون النجاة من المظهر؛ والخواص يسألون رفع الصفة (الحقيقة). إن عذابها كان غراما، أي حاصرا لأهله ملازما لهم. ولا منجي من الحجاب إلا الله! فالحجاب يرفع بالإذن، لا بالأعمال. فالله لا يكون جزاء لعمل! ﴿ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ الفرقان: ٦٦. أي ما أسوء أن يقيم العبد في مقام الحجاب، ولا يتطلع إلى رفعه؛ إذ ما للعبد غنى عن ربه!﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ الفرقان: ٦٧. لم يسرفوا من هوى نفسي، ولم يقتروا من شح طبيعي. والإنفاق هنا يشمل جميع أصنافه، وليس متعلقا بإنفاق المال وحده. فالإنفاق منه الإنفاق من العلم، والإنفاق من الحال وجميع ضروب الإمداد. فهم عادلون في إنفاقهم، قائمون فيه بربهم لا بأنفسهم.﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴾ الفرقان: ٦٨. "لا يدعون مع الله إلها آخر" في مظاهره، بخلاف العامة الذين يدعون في كل مظهر إلها، وإن كانوا لا يشعرون. هذا عندهم من الشرك الخفي. "ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق": قتل النفس نوعان: نوع قتلها بالهوى، ونوع قتلها بالحق. الفاسقون يقتلون أنفسهم بالقتل الأول؛ وأهل الله يقتلونها بالحق. والإشارة في الآية هنا إلى الشيوخ الربانيين منهم الذين يقتلون نفوس مريديهم بالحق المتجلي فيهم. "ولا يزنون": أي لا يربطون بين شيئين إلا برباط شرعي له أصل من حقيقة إلهية. فالزنا عندهم هو التلفيق الذي ينهجه غيرهم في عالم المعاني. وهذا المعنى يوسع المعنى الظاهر المعلوم لدى العموم، ولا ينقضه كما قد يتوهم من يقرأ كلامنا. "ومن يفعل ذلك يلق أثاما" أي جزاء لإثمه ومخالفته، فالأمور ليست مهملة وإن

كانت دقيقة. ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ الفرقان: ٦٩ – ٧٠. "إلا من تاب"، أي رجع إلى ربه بعد طروء غفلته، عن قريب. "وعمل عملا صالحا"، بأن أعاد ترتيب الأمور على نور من ربه، وأصلح ما كان فاسدا في نظره. "فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات": تعود السيئات حسنات بمجرد تغيير النسبة. فالإثم ما نسب إلى النفس وإن كان في الظاهر طاعة؛ والحسنات هي الأعمال المنسوبة إلى الحق، وإن كان ظاهرها معصية. والنسبة تقع من الشهود؛ مشهدك هو الحاكم عليك. وكان الله غفورا، يغفر كل شيء لأنه محيط به وجودا، رحيما بغفره هذا للمغفور له. ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ۝٧١ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ الفرقان: ٧١ – ٧٢: "لا يشهدون الزور"، الذي هو ما سوى الحق؛ فإذا مروا به مرور عبور من المظهر إلى الظاهر، جاوزوه كراما لا يعتدّون به. ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ الفرقان: ٧٣. آيات ربهم هي المظاهر نفسها لكن بنسبة ثانية (الفرق الثاني). يحدث لهم تذكير إذا أغفلوها إغفالا باستغراقهم في الحق. فإذا ذُكّروا، ذكروا وأعطوها حقها العلمي. ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ الفرقان: ٧٤. الأزواج هي النفوس، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾ النحل: ٧٢. يسألون أن يخرج الله لهم من أنفسهم وما يُنسب إليها (الذرية) قرة أعين. وهو السر الإلهي الذي يختص به الربانيون دون غيرهم. ويسألون أن يجعلهم أئمة للمتقين: أي شيوخا مربين للمؤهلين من الأبرار. وقد ذكرت الآيات في البداية معرفة الحق

بالنفس، ثم جاءت الآن بذكر معرفة الحق بالحق بعد تحصيل السر. وهي حكمة إلهية في ترتيب مراحل السلوك. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ الفرقان: ٧٥ – ٧٦. "أولئك" (أي عباد الرحمن، والإشارة لبعد المكانة) "يُجزون الغرفة"؛ والغرفة هنا العلِّيّة، ويقصد بها السماء العليا السابعة التي دون العرش، أي أعلى الجنة. وهذا نفسه ما ذكره أبو يزيد في كلمته السابقة! "يُلقون فيها" من الملائكة "تحية" بسبب مكانتهم العالية. فالملائكة تستقبل كل صنف من الناس بما يُناسب مكانته عند الله. ويلقون سلاما، وهو تمام التحية في الرفعة، مناسبةً لسلامتهم من شَوْب نفوسهم. "خالدين فيها"، أي خارجين فيها عن حكم الظروف، لأن حقائقهم صارت دهرية. "حسنت مستقرا ومقاما"، بالمقارنة إلى ما دونها من مراتب. هذا يدل على أنها أعلى ما يصل إليه بشر من مكانة. ففيها يجتمع الأنبياء عليهم السلام والورثة الكرام إلى حقيقة سيد الأنام عليه وآله أزكى الصلاة وأتم السلام.

*** "ومر يوماً بمقبرة للمسلمين فقال "مغرورون" و.. لليهود فقال "معذورون!"[٢٥]:** يتوهم أصحاب سوء الظن أنه إما يساوي بين المسلمين واليهود، وإما يفضل اليهود على المسلمين. ولم يسألوا أنفسهم: كيف يمكن أن يكون هذا قصده، مع العلم أن آخر العوام لا يقول به؟! كان الأجدر أن يسأل المرء: ما مقصوده، وغاب عني فهمه؟ هذا أليق بصفة الإيمان!

اعلم أن هذا الكلام، تربوي من جهة؛ وتحقيقي من جهة أخرى. ولا يجمع بين الجهتين في نفس الكلام، إلا المحمديون من الورثة.

---

[٢٥] . اللمع - ٤٦٣ -

فمن جهة التربية: هو ينبه السامع إلى رؤية الأفعال لله، وهي أولى درجات الخواص. وذلك أن العامة يرون أن ما أتوه من صالح الأعمال، هو من أنفسهم وحسن تدبيرهم وحذقهم. ومن يكون هكذا فهو مغرور! لأن المرء إذا علم نسبة الفعل لله، وجد نفسه محاطا بفضل الله المحض؛ فكان صحيح العلم، وحسن الحال؛ لأن هذا العلم يُنتج حال الشكر. وقد أمر الله بشكره في مثل قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾لقمان: ١٢. ومن عرف أن القدَر حاكم، عرف أن اليهود كانوا يهودا قبل ظهور أعيانهم المشهودة، وأفعالهم المنسوبة إليها. فهم من هذا الوجه معذورون، ولا يحق لسواهم رؤية فضلهم عليهم. ومعلوم أن طريق محو النفس يتطلب أن لا يرى السالك في العالم شخصا دونه. هذا خطاب للعامة من أجل التنبيه فحسب؛ أما صريح التحقيق فهو ما نذكره الآن:

أما من جهة التحقيق: فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:«لمّا خلق الله عز وجل آدم ضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرّيته بيضاء كأنهم الذُّر، ثم ضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنّهم الحمم، فقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي.»[٢٦]. قول الله تعالى في الحديث: ...ولا أبالي، يعني أن الحكم في البداية كان للمشيئة. هي التي جعلت قسما سعداء وقسما أشقياء. ثم بعد ذلك جاءت الأسماء الأخرى تحت إمرة الاسم "الحكيم"، لأخذ كل فريق إلى داره، عبر طريق من سلوكه الخاص. بهذا الاعتبار، لا فضل لمسلم، ولا مذمة لكافر؛ لأن الفضل والمذمة تظهران في مرتبة تأتي بعد مرتبة المشيئة. والحكم للمراتب في كل أمر. ومن أجل هذا، وتعبيرا عن نفس المعنى الذي نبه إليه أبو يزيد لكن من وجه آخر، قال بعض أهل الله: "العامة يخافون الخاتمة، والخاصة يخافون

[٢٦] . أخرجه الطبراني في مسند الشاميين.

السابقة". كل هذا بحسب إدراك كل فريق: ففريق العوام يعتبر سلوك كل فريق وما يميزه؛ وفريق الخواص يقدم اعتبار المشيئة الحاكمة الأولى على نتيجة كل فريق.

* **"ما في الجبة إلا الله"**[٢٧]:

هذا قول مستشنع لأنه لم يرد به الشرع. وقول مثل هذا أمام العموم نقص مذموم؛ أما قوله للمستشرفين فمتجاوز عنه إن كان القائل ربانياً، يعلم ما يقول. ونحن نحسب أن القائل هنا من العارفين لأمرين:

— أولاً، لأن القول على ظاهره شرك جلي، لا تقع فيه العامة فضلا عن الخاصة.

— ثانياً، لأن هذه المقولة -إن لم نقف عند ظاهرها- تشير إلى علم جليل.

فالجبة المقصودة هنا، هي صورة العارف العدمية، التي دخلت إلى الوجود بأمر "كن". والإشارة التي يريدها العارف بقوله السابق تفيد أن ظهور تلك الصورة العدمية لا يكون إلا بالله؛ وهو معنى من معاني القيومية. فالله هو الظاهر بها وإن كانت هي الظاهرة. والأصل القرآني لهذا المعنى هو قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النور: ٣٥. أي ما ظهرت السماوات والأرض إلا بنوره الظاهر فيها. ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ النور: ٣٥. المشكاة، هي ما أشار إليه العارف بالجبة. والمصباح هي ما عبر عنه بقوله: الله. ومثل هذا التعبير عن هذا المعنى، لا يصدر إلا عن مشاهِد أو مكاشَف.

فإن قلت، فلِمَ عدل المتكلم عن اللفظ القرآني، إلى هذه العبارة المنكرة؟

قلنا: لا يكون ذلك من حكيم إلا لحكمة. هذا مع التأكيد أن اللفظ القرآني لا يعدله لفظ.

---

[٢٧] . تاريخ الإسلام للحافظ شمس الدين الذهبي (١١٢/٢٠).

والحكمة هي كون الأسماع قد ألفت لفظ القرآن، فهي إن سمعته فإنما تسمعه بحكم العادة في الغالب؛ فتمر على الآيات دون أن تتوقف عندها. واللفظ الذي عدل إليه العارف صادم لها، فهي ستتوقف عنده لا محالة. فإن كان السامع من أهل الاستشراف، نبهه اللفظ إلى ما كان يجهل، ودله على ما كان يأمل. وعلى السامع بعد ذلك، إن استنصح لنفسه، أن يبحث عن أصل المعنى في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ وسيجد من جملة ما يجد، آية النور التي أوردنا. هذا لأن كل معنى يخرج عما جاء في الكتاب والسنة مردود عند أهل الله بالإجماع.

٣. أبو بكر الشبلي:

*** " لو كان أبو يزيد ها هنا، لأسلم على يد بعض صبياننا وقال: لو أن أحداً يفهم ما أقول لشددت الزنانير**"[٢٨]: هذا الكلام يصدر كثيرا عن أهل الله، حتى يظن من ينظر في كلامهم أنهم يُنقصون من قدر بعضهم؛ أو أن لديهم عُجباً مما يُذم عند المريدين. فكيف يتصف هؤلاء الكبار، بما ينهون عنه تلاميذهم في بداياتهم؟**!**

أولا ينبغي أن نؤكد أن هذا الكلام، لا يصدر إلا عن عارف محقق. وقد يكون صادرا عن صاحب وقته. والذي يكون مرتديا لحلة الخلافة، لا يرى نفسه إلا المتصرف في كل المملكة. لذلك إذا سمع عن ولي آخر، يغار على رتبته، ويُبيّن حقيقة الأمر حتى لا يختلط على السامع. فإن قلت: قد يكون الولي المذكور بحضرته (أبو يزيد هنا رضي الله عنه)، صاحب وقته هو الآخر؛ فكيف يجوز التعالي عمن يكون في نفس مرتبته؟ فنقول: الحكم للخليفة صاحب الوقت في الحال، وليس لمن رحل إلى البرزخ وخلفه غيره بعده. هذا يشبه في أعرافنا، من له

[٢٨]. اللمع -٥٠-

الرتبة في وظيفة ما (كان فيها ثم استقال أو أحيل على المعاش)، مع من يزاول الوظيفة فعلا. فلا شك أن التصرف يكون لمن هو في المنصب في الوقت.

ومعنى كلام الشبلي رضي الله عنه: "لو كان أبو يزيد...صبياننا"، هو أن الحق لا يعرفه عارف مثل ما يعرفه الخليفة؛ لأن المعرفة متجددة مع الأوقات؛ وقد يفتح الله على المتأخر بما لا علم للمتقدم به. خصوصا إذا علمنا أن الخليفة في وقته، يكون تحت حكمه أهل الدنيا، وأهل البرزخ معا. فهو يتكلم عن تحقيق وذوق. أما من حيث التربية، فالشيخ المربي، إذا صدر عنه مثل هذا، فإنه يحمي مريده من الالتفات عنه إلى غيره (حيا أو ميتا)، حتى لا ينقطع عنه الإمداد. فتكون الوسيلة الوحيدة القدحَ في الولي المذكور أمامه، حتى لا يتعلق باطن المريد به؛ خصوصا إن كان من كبار أهل الله الذين لهم عند العموم المكانةُ العالية. وإياك أن تظن أنه يفعل (أي الشيخ) ذلك بنفسه ومن منطلق الغيرة المذمومة؛ بل هو يفعله بالله! فيكون محقا في كل ما يقول.

أما نهاية كلام الإمام الشبلي "ولو أن أحدا....الزنانير"، فهو إشارة إلى ما ذكرناه لك من أن الخليفة يرى الكل تحت حكمه. فتحدى بكلامه أن يفهم كلامه في التوحيد أحد، وآلى على نفسه أن يشد الزنانير على وسطه إن فهم واحد ما يقول. كأنه يقول: إذا فهم أحد ما أقول، فأنا لا أعد نفسي من المسلمين. وهذا أبلغ ما يكون في الدلالة على مقامه، عند من يفهم إشارته.

* " **لو خطر ببالي أن الجحيم نيرانها وسعيرها تحرق مني شعرة كنت مشركاً**"[29]: يعني أنه لو نسب الفعل إلى غير الله، في أي مرتبة لكان مشركا. وهذا صحيح عند أهل الطريق قاطبة. فأول درجة عندهم في التوحيد، أن لا يرى فاعلا في الوجود إلا الله شهودا، لا إيمانا.

وفي الكلام معنى آخر، وهو أنه من الربانيين. يشير إلى مرتبته من وراء مقتضياتها. فالرباني لا تطيقه النار، فلو دخل النار هو أو أحد أمثاله، لأفنى النار بحقيقته. لذلك فمن مصلحة النار من حيث وجودها، أن لا يقترب منها من له هذه الرتبة. فكلامه يكون تحديا للنار إن هي استطاعت أن تحرق منه شعرة! وعبر بالشعرة ليدل أن الحقيقة حكمها في أصغر أجزائه، كحكمها في كله. وكل هذا الكلام حتى يشير إلى مقامه عند سامعه، من أجل أن ينتفع به. وقد ذكر الشبلي رضي الله عنه، نفس هذا المعنى في قوله: " إن لله عباداً لو بزقوا على جهنم لأطفأوها"[30].

وإعلان بعض أهل الله عن مقامهم الخاص، هو من السنة النبوية التي لا يعمل بها غيرهم. نقول لا يعمل بها غيرهم مع علمنا بدلالة كثير من الناس على مراتبهم؛ لأننا نشترط في العمل بالسنة هنا، الحال. فمن حيث الحال، لا قدم له في هذه السنة إلا هم. وقد شرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك بمثل قوله:«أنا سيدُ وَلَدِ آدم يوم القيامة، وأوّل من ينشق عنه القبر، وأولُ شافع، وأولُ مشفع.»[31]؛ حتى تميز أمته مرتبته المنيفة من بين مراتب سائر الأنبياء، صلى الله عليه وآله وسلم، فتنتفع بهذا التمييز. وإننا نرى في زماننا أن كثيرا من

[29]. اللمع - ٤٧٩ -
[30]. اللمع - ٤٩٠ -
[31]. أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المسلمين، ما عادوا ينظرون إلى نبيهم إلا كما ينظرون إلى باقي الأنبياء؛ وهذا نقص كبير في حقهم. فاعلم لمَ كانت الدلالة على المرتبة مهمة إلى هذا الحد!

* **"لو عرضتُ ذلي على ذل اليهود والنصارى لكان ذلي أذل من ذلهم"**[٣٢]: صدق رضي الله عنه؛ فإن ذل اليهود عارض، وذله ذاتي. ومن لم يذق ما ذاق لا يستطيع أن يفهم ما يرمي إليه! ولكن، سنقرب إليك المعنى بما يتيسر إن شاء الله.

وذلك أن الذل المعروف عند الناس هو الحقارة التي يتصف بها الشخص بين أقرانه والمجتمع عموما. وهذا الذل لا بد أن يستند إلى صفة نقص، تحط من قدر الذليل عند الناظرين إليه؛ كأن يكون أجهلهم، أو أفسقهم، أو أقلهم صدقا وأمانة، أو حتى أكفرهم،وهكذا...هذا هو الذل الذي يشير إليه الشيخ بذل اليهود، لأنه نهايته. أما الذل الذي ينسبه إلى نفسه، ولا يعلم السامع حقيقته ما لم يكن حاله مثل حال القائل، فهو ذل العدم. فهذا أذل الذل. وإذا سقط العارف في العدم، وجد كل شيء فوقه؛ بغض النظر عن حكم الشرع فيه، بالكفر والإيمان وغيرهما؛ لأنه لا يخفى أن الموجود الناقص أعلى في المرتبة من العدم. هذا كله من حيث الشهود لا من حيث الحقيقة.

والعدم الذي يتصف به العارف، هو نفسه سبب بقائه بربه. فإن كان له من جهة أذلُّ الذل، فله من الجهة الأخرى أعز العز. لكن الحكم في هذا القول للحال الغالب في الوقت، والشهود كما قلنا.

* **"حُكي عنه أنه أخذ من يد إنسان كسرة خُبْز فأكلها، ثم قال: "إن نفسي هذه تطلب مني كسرة خبز، ولو التفت سري إلى العرش والكرسي لاحترق"**[٣٣]: يفرق رضي الله عنه بهذا

---
[٣٢]. اللمع - ٤٧٨ -
[٣٣]. اللمع - ٤٧٩ -

القول، بين الفقر الطبيعي والفقر الأصلي. فنسب الفقر الطبيعي للنفس، وهو عام. أما الفقر الأصلي إذا اتصف به العارف وتم له، فإنه الباب إلى الغنى الحقيقي. فنسب الغنى إلى سره الذي ليس هو إلا الحق. فدل على حال كماله من جهة بكونه فقيرا أشد الفقر، ومن جهة أخرى بكونه غنيا أتم الغنى؛ حتى أنه لا يلتفت إلى العرش والكرسي اللذين هما أكبر مظاهر الغنى والملك. وتعبيره بالاحتراق الذي يلحقه عند الالتفات، يدل على الامتناع؛ فإن السر ممتنع عنه أن يشهد غير الحق. وقد كان رضي الله عنه يحض تلاميذه على عدم الالتفات بمثل قوله: "إن مرَّ بخاطرك ذكر جبريل وميكائيل عليهما السلام أشركتَ"[٣٤]. يريد أن يمكنهم في مقام السر. وهذا هو طريق التوحيد عند خواص الأمة.

٤. الحسين بن منصور الحلاج:

❊ "**الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم، فأما من حيث الحقيقة، فلا فرق بينهما**"[٣٥]: هذا كلام غير دقيق! لأن الكفر والإيمان من حيث الدلالة اللغوية مختلفان. فلما عدل القائل إلى معنى لا يتفق مع اللغة، علمنا أنه فعل ذلك لأحد أمرين:

— إما لأنه يريد أن ينبه المؤمن السامع، إلى أن إيمانه يكاد يكون كفرا؛ وهذا لا تخفى مظاهره عند العامة. فهم يثبتون الإيمان لأنفسهم، ومع ذلك يتوكلون على سوى ربهم. وهذه حال الكافر لا حال المؤمن. وإن شئت أن تتبيّن هذا بوضوح، فانظر إلى أحوال الناس عند الشدائد تر العجب. فهذا إيمان كالكفر. وهذا المعنى نستبعد أن يكون مقصودا للمتكلم، بحسب سياق الكلام.

---

٣٤. اللمع - ٤٨١ -

٣٥. سير أعلام النبلاء للذهبي. ٣٥٢/١٤.

— وإما هو لا ينظر إلى الإيمان والكفر، بل نظره إلى المُؤْمَنِ به والمكفور. بمعنى أن كل ما آمن به قوم، كفر به آخرون. فمن هذا الوجه لا فرق بين الإيمان والكفر، لأنهما متساويان عقلا.

ومن هذا الباب قول الله تعالى:﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٢٥٦ ، وقوله سبحانه:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ البقرة: ٢٥٧. فالإيمان والكفر قد تعلقا معاً بالله وبالطاغوت. لكن التعبير بذلك الكلام عن هذا المعنى بعيد.

أما إن كان يريد الإشارة إلى وحدة الأفعال، بحيث ينظر الناظر إلى نسبة فعل الإيمان وفعل الكفر إلى الله، فيكون هذا أفضل الوجوه التي يُحمل عليها الكلام، لكن مع قصور في التعبير. ووجه كون الإيمان والكفر هنا لا يفترقان، هو لأن الفرق لا يقع إلا باعتبار الشرع. والشرع هو من مرتبة الفرق. بينما الموحد نظره بعين الجمع والوجود. لكن مع هذا، فمثل هذا الكلام لا يجوز أن يصدر عن أحد إلا لتنبيه مستشرف على علم خاص. فإن صدر عن مغلوب فهو دليل على ضعفه وكونه قاصرا. أما الكامل من الرجال، فهو من لا يخرق ظاهرا، ولا يُغفل باطنا. والاستقامة تأبى عليه أن يُغلّب جانبا على حساب الآخر.

لعل في إيراد بعض كلام هؤلاء الرجال الأربعة ما يدلك على طريق تناول كلامهم، وعلم ما يرومونه من معانٍ. فنحن لا نريد أن نجعل هذا الفصل نقدا لكل ما جاء في هذا الباب من كلام؛ وإنما مرادنا التنبيه إلى خصوصية ذلك الكلام، حتى لا يخوض فيه كل خائض، فيخرج منه بما يَبعد به عن الحق في العلم والعمل؛ أو أن يعترض على المتكلم عن جهل، ويأثم إن ظن فيه ما يخالف حقيقته. والمرء لم يُكلّفه ربه أن ينظر في أحوال الناس، ويحكم عليهم: هذا صاحب هدى، وهذا إمام ضلال! بل كلفه أن يستقيم في أحواله وأعماله، وأن يتورع عن

الدخول فيما لا علم له به. وإننا نرى في زماننا، قوما اتخذوا الجهل طريقا، وجعلوا التألي على الله عبادة. فما أقبح ما كلفوا نفوسهم حيث لم يُكلفوا، وما أسوء ما اتخذوا إلى الله من وسيلة، وقد أمرهم بمراعاة الأدب مع أهله! نسأل الله العافية والسلامة.

٥. الشيخ الأكبر ابن العربي الحاتمي (ق.س):

ينظر كثير من الناس في كتب الشيخ الأكبر، فيخرجون منها لا يبصرون شيئا؛ فلا يجدون بدا من الإنكار عليه ومن تكفيره أحيانا، رضي الله عنه. وما يعلم المساكين أنهم يعرضون أنفسهم لأكبر الضرر. فإن سألت عن سبب ما يجدونه عند النظر في كتبه رضي الله عنه؛ فاعلم أن مَثَلَ ذلك، مثل من يحدق في مصدر للنور قويٍّ؛ فإنه لا يطيق ذلك ويجد ألما في عينيه. فإذا صرف عنه بصره بعد ذلك، صار لا يرى إلا الظلمة لفترة من الوقت.

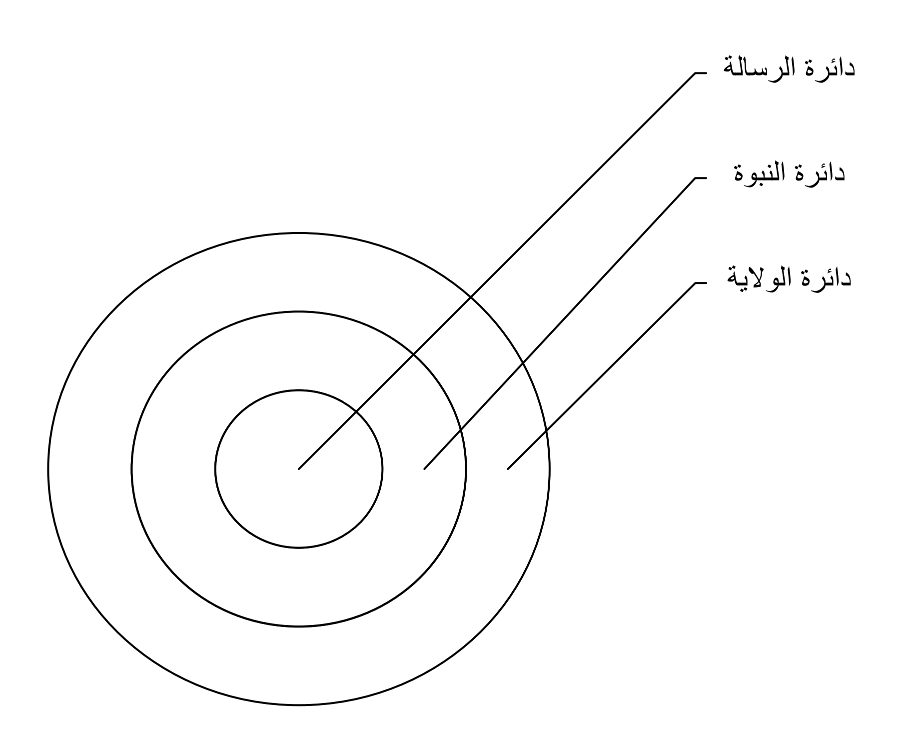
فالشيخ رضي الله عنه لم يكتب كتبه للعامة، بل للخاصة يُعلمهم ما لا يعلمون، ويرشدهم في سلوكهم الثاني حتى ينالوا ما لم يكن في طيّ استعدادهم. ولهذا لقبه الشيوخ رضي الله عنهم بالشيخ الأكبر. وإن كان العامة لا يُطيقون كلام الشيوخ الذين هم في مرتبة تلاميذه، فكيف سيقفون بين يدي كلامه؟!

لهذا السبب، فإننا لن نتناول من كلامه رضي الله عنه، إلا بيتا من شعره فُهِم على غير مراده؛ نُبيّن المعنى الصحيح تأكيدا لما قلناه وبرهنة عليه. ونوصي كل طالب للحق أن لا يطالع كتبه إلا بإذن الشيخ الرباني وتحت نظره، حتى يأمن المرء على نفسه ويضمن سلامته.

❋ "مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي":

ولكي يدرك المرء مرمى هذا السيد الجليل، لا بد أن يعلم حقيقة الولاية ونسبتها إلى النبوة والرسالة. وذلك أن دائرة الولاية مشتركة بين الأولياء والأنبياء والرسل عليهم السلام.

بمعنى أنها واحدة من حيث جنسها وإن اختلفت مرتبة ولاية النبي عن مرتبة ولاية الولي. من هنا يمكن أن نقول: إن النبي ولي قبل كونه نبيا؛ لأن النبوة اصطفاء في الولاية. وعلى هذا تكون النبوة دائرة داخل دائرة الولاية. ثم تأتي بعد ذلك دائرة الرسالة، التي هي خيار من داخل دائرة النبوة. كما هو مبين في الرسم أسفله:



فالرسول إذن، ولي نبي رسول؛ والنبي: نبي ولي؛ والولي: ولي فحسب. فبعد هذا كيف يمكن أن يقال إن المراد هو جعل الولي فوق النبي؟!

أما من جهة أخرى، وبحسب قول الشيخ الأكبر رضي الله عنه، فولاية النبي أو الرسول، أعلى من نبوته ورسالته نفسه. ذلك أن ولايته حقيقته؛ وهي في المرتبة أعلى من وظيفته. لذلك كانت نبوته ورسالته منتهيتين بانتهاء تكليفه، أما ولايته فلا نهاية لها. ونعني بانتهاء التكليف هنا، الخروج من الدنيا. والمعنى الذي ندلك عليه، يشير إليه اشتراك الاسم " الولي" بين العبد وربه، وحسبك هذا.

وإن شئت قلت: حضرة الولاية حضرة جمع، وحضرة النبوة حضرة فرق. والجمع أعلى من الفرق في المرتبة، لأنه لله وحده؛ أما الفرق فهو للحق والخلق معا، أي كلا على حدة. وهذا المعنى بعينه هو ما أشار إليه القول المنسوب إلى أبي يزيد رضي الله عنه: "خضنا بحرا وقفت الأنبياء على ساحله". فهو يعني بالبحر، الإحاطة الذاتية المستهلكة لجميع الصفات والأسماء. ويعني بالساحل الحد الجامع بين بحر الحق وبر الخلق. وهذا الحد أو البرزخ هو متعلَّق النبوات. ولولا أن الأنبياء وقفوا على هذا الساحل يعرّفون الخلق بربهم، ما تمكن أحد من معرفته، ولا حتى أبو يزيد وأمثاله رضي الله عنهم.

نخلص من هذا، إلى القول بأن الولي ذاق بعضا من ولاية النبي مع بقائه أجنبيا عن النبوة التي لا ذوق له فيها البتة. هذا هو مراد الكلام على التحقيق! لكن الكلام إذا بلغ إلى غير أهله، فإنك لا تضمن أن ُيفهم منه مراد القائل على الوجه الذي أراد. ولولا سوء الظن الذي يسبق إلى النفوس المريضة، لتوقف السامع إن لم يدرك المعنى ولنزه القائل عن مثل ما نزه

نفسه عنه، على الأقل. وإن ظن المرء أن أهل الله، وهم من هم في القرب، لا يوفون المراتب حقها؛ فما أتى بشيء! نعوذ بالله من الخذلان.

الفصل السادس

هل يدعو الرباني إلى غير الله؟

لا بد للمتابع أن يتساءل: لماذا يُتهم أهل الله، وخصوصا منهم من يكون شيخا مربيا، بادعاء الألوهية أو الربوبية؛ ولا يُتهم بذلك غيرهم من أهل الدين، سواء أكانوا فقهاء أم غيرهم؟

لا شك أن لمقام الناظر (مكانته الإدراكية) مدخلا في ذلك. وغالبية الناظرين من حيث العدد، من عامة المؤمنين. وقد قال الله عن هذه الأكثرية: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف: ١٠٦. الآية بحسب أهل التفسير تبيّن حال من يؤمن بالله قولا، ويشرك به عملا من القوم الذين إذا سألتهم من خلقهم، ومن يحييهم ويميتهم، قالوا: الله؛ ثم بعد ذلك يعبدون الأصنام والآلهة المزعومة؛ ويجعلون لله ولدا، وغير ذلك من مظاهر الشرك المعروفة. وقد ذكر الزمخشري عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنهم الذين يشبهون الله بخلقه. ومن تفسير ابن عباس للآية، نتوسع في المعنى حتى نصل إلى مظاهر الشرك الخفي التي يتلبس بها عامة المؤمنين. وإذا كان العامة لا ينفكون عن الشرك الخفي وهم لا يشعرون، فكيف سينظرون إلى كلام خواص الموحدين من الأمة؟ و"الفيزياء المعرفية" تقتضي أن يستوعب الأعلى الأدنى، وليس العكس. فيكون العامة من غير شك رافضين للكلام في التوحيد، الذي يُجاوز مقامهم.

إذا فهمنا هذا، عرفنا لمَ يتعرض أهل الله لانتقاد العامة دون غيرهم. فإن سألت: فلم لا يعترض العامة على الفقهاء، مع كونهم أعلى منهم إدراكا بلا ريب؟

قلنا: لا يغرُرْك ما تراه من تنميق للكلام عند الفقهاء، أو تفصيل وتفريع يوهمان بخروجهم من دائرة العوام. ونحن عندما نصنف الناس إلى عوام وخواص، لا نتخذ حسن التعبير معيارا، بل المعيار سلامة الإدراك وعلوّه. ومن حيث هذا، فالفقهاء من العامة عندنا ولا شك! رغم ما يظنونه لأنفسهم، أو يتوهمه فيهم غيرهم. ودليلنا على ما نقول: هو قبول كلام الفقهاء (في العقائد على الخصوص) لدى غالبية العوام من غير مشقة. وما ذلك إلا للاشتراك الحاصل منهم في نفس المرتبة.

أما أهل الله، فلهم إدراك أعلى في التوحيد؛ إذا سمعه منهم غيرهم، غاب عنه المعنى الذي يقصدون. وإن هو أراد استنطاق ألفاظهم من أجل فهم مرادهم، بحسب العُرف عنده، بَعُد أكثر. فإن هو سأل فقيها، يظنه من الخواص وهو مثيله، أكد له مُعوجّ فهمه وحذره ممن يصدر عنه مثل ذلك الكلام.

فيتصدى العوام (بجميع أصنافهم) لخواص الأمة، يُنكرون عليهم، ويُحذرون منهم؛ ظانّين أنهم في ذلك منافحون عن الدين، قائمون لله في أقوالهم وأفعالهم. وقد يتمادون في التجريح ويحسبون أنه من غيرتهم على الدين؛ وإبليس يتلاعب بهم في كل ذلك، ليجعلهم من الخاسرين.

نحن لا نطالب العامة بفهم كلام الخواص، وإنما نطالبهم بالتريث في الحكم، واعتبار المراتب. فإما تسليمٌ إن خلُص الإيمان؛ أو توقّفٌ حتى يفتح الله بما شاء.

وحتى نُبيّن لك أن كثيرا من كلام العامة في هذا الشأن معلول، نأخذ معاملة بعض الفقهاء لأهل الله، بالمقارنة مع الحكام وأهل السلطان (أهل الجاه والمال عموما). وقد رأينا من أهل زماننا من نذر نفسه لحرب أهل الله زعما أنه يذب عن الدين، بينما هو يُمالئ ذا الجاه ولا يكاد يُسمع له قِبَلَه كلام إلا همسا. فهل يكون أصحاب السلطان من غير شائبةِ مخالفةٍ للدين، ونحن في آخر الزمان؟ أم هو الهوى؟! وهل يكون هؤلاء الموقَّرون عند فقهاء السوء أكثر مراعاة لحقوق الله من أهل الله؟ لا، والله!

فإن قلت: فكيف لا يتنبه سائر المؤمنين إلى هذا الأمر، إن كان حقا؟ قلنا: إن الأهواء تؤيد بعضها. فالعامة لا يحبون من يحوِّلهم عن دنياهم؛ والفقهاء ما عادوا يبتغون بفقههم وجه الله. فالتقت الأهواء على توجّه واحد. وما وجدوا من يصبون عليه نقمتهم جميعا إلا قوما باعوا الدنيا والآخرة؛ حيث لم يتمكنوا هم من الالتفات عن الدنيا إلى الآخرة! وهم بهذا الفعل، يصيرون أعداء أنفسهم، ويقطعون أسباب نجاتهم. فانظر ما أقبحه من صنيع!

فإن قلت: الناس معذورون في سوء ظنهم بأئمة الطريق، حيث أن كلامهم غريب، وألفاظهم أحيانا منفرة!

قلنا: ليس لهم عذر في هذا! ذلك أن حسن الظن من صفات الإيمان، حتى يتبيّن الدليل. وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه:« حسن الظن من حسن العبادة»[٣٦]. وحسن الظن في الله لا يتحقق مع سوء الظن في عباده، لأنه يبقى دعوى من غير بيّنة؛ والمعاملة بين العبد وربه، لا يمكن أن تتحقق من غير اعتبار لغيره من العباد. فتفطن!

[٣٦] . أخرجه أبو داود في سننه.

والرباني، مهما بلغ كلامه من الغرابة، لا يمكن أن يدل على غير الله؛ لأنه لا يعرف غيره ولا يشهده. فهو ما يتكلم إلا عنه، سواء أَعَلِم السامع ذلك أم لم يعلم. فتلوينه لا يُخرجه عن تمكينه. والناس يغلطون عندما يقيسون أحواله بما يعلمون من أنفسهم. يظنون أنه يغفل عن ربه كما يغفلون. هذا هو سبب سوء ظنهم به! وفي الحقيقة ما حكموا إلا على صفتهم، لا عليه؛ وهم لا يشعرون.

لو علم الناس أن الرباني مختلف عنهم في كل شيء، ما أنكروا عليه. حجبهم ظاهره الذي يشبه ظاهرهم، فظنوا أنه من حيث الباطن كأحدهم. فدخل عليهم الجهل من هذا الجانب.

قد يتعجب الناس إن قلنا لهم، إن الرباني لا يتمكن من الدعوة إلى غير الله؛ على فرض أنه يريدها! وكيف يدعو إلى عدم محقق عنده؟! أم كيف يشير إلى غير من له الوجود وحده؟!

واعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أعلى مظهر لهذه الخاصية الربانية. فإنه صلى الله عليه وآله وسلم، لا يتمكن من الدعوة إلى غير الله؛ بخلاف ما فهمه بعض المحجوبين من متأخري الفقهاء؛ حتى ظنوا أن من يتوجه إليه، أو يتوسل به أو يشهد له بسيادة فإنه يكون معرّضا للشرك. وما علم المساكين، أن التوجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إن كان بصدق)، لا يمكن إن يجمعك إلا على الله. فاعرف الأصل في الربانية، حتى تعلم حكم التابعين له. فإن من لم يحط بالترابط الذي بين الأحكام، لا يُعتدّ بكلامه عند أولي العلم.

ومن الأدلة التي وردت في هذا المعنى، آيات الجمع الواردة في القرآن الكريم. ومنها قول الله تعالى في البيعة التي هي أول توجه إلى الحق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾الفتح: ١٠، والمبايَع المشهود هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلو كان

هناك شرك، لكان هذا أول مظاهره. والأمر بعكس هذا! فانظر ما أبعد حكم "الموحدين" بعقولهم، عن حكم الله الذي له الأمر كله سبحانه.

فإن جمعك الله على شخص رباني، فأرح نفسك من جهته؛ واهتم بما يخصك في نفسك فقط. واسأل الله أن يجعلك أهلا للأخذ عنه؛ فإن الاستمداد منه لا يكون إلا لأهل العناية وحدهم. فاجهد أن تكون منهم.

الفصل السابع

الطرائق التبركية وأهل الكتاب

لا نريد أن نُخرج أحدا من الملة كما يفعل الجاهلون، ولكن نريد أن ننبه إلى صفات مشتركة نهى الله عنها عباده المؤمنين؛ فمنهم من اعتبر ذلك ومنهم من سها عنه.

وبعد أن تكلمنا عن الربانيين، لا بد أن نتكلم عمن ينتسب إليهم بحق أو بغير حق. ولعلنا ذكرنا فيما مر من الكتاب، أن الطرائق التربوية حُكمها مع وجود الرباني (سواء أكان مؤسسا أم خليفة) غير حكمها مع فقده. وهذا ما يجعلنا نسمي الطريق مع وجود الرباني "طريقة سلوكية"؛ ونسميها عند غيابه "طريقة تبركية".

هذا يعني أن الطريقة التبركية لا سلوك فيها؛ وكل أعمال البر –من ذكر وغيره– التي يلتزم بها المنتسبون إليها، إنما يُبتغى من ورائها الأجر. ونحن قد فرقنا في كتبنا[٣٧] بين ذكر الأجر وذكر النور، حتى لا يقع المرء في خلط مفهومي يؤديه إلى خلط في الأحكام.

يظن كثير ممن ينتسب إلى طرائق تبركية، أن مجرد الانتساب إلى طريقة كان إمامها ربانيا، يكفي لأن تتحقق شروط السلوك لديهم. وهو غير الحق. فالسلوك له أركان ثلاثة أساس:

١. الشيخ الرباني.

٢. المريد الصادق.

[٣٧] . راجع كتابنا: المنهاج القويم في التزكية.

٣. التقيد باتباع الشرع ظاهرا وباطنا، بفهم نوراني لا بفكر وهوى.

فإن غاب أحد هذه الأركان، انتفى معه إمكان تحقق السلوك، إلا أن يشاء الله. وكلامنا هنا فيما هو الشائع عند الناس، لا مطلقا.

وإذا عرفنا أن الشيخ الرباني هو خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من حيث التربية القلبية والدلالة على الله في جماعته، فإنه بفقده لا بد أن نعلم أن السبيل تنقطع بأصحابها. فكل من بقي من تلاميذه وراءه –إن لم يكن خلّف ربانيا– عليهم أن يبحثوا عمن يُكمل بهم الطريق، في بلدهم أو في خارجها.

ولو كانت النسبة المجردة إلى أهل الله تكفي، ما كان الله يتخذ في كل زمان أولياء جددا يوكل إليهم ما كان يضطلع به الأولون. لكن الإنسان أمره عجيب! فقد ينسى الغاية الأولى التي هي الله، ويصير متمسكا باسم (من أسماء أحد أهل الله) لا يرى عنه محيدا، ولا يقبل به في الله بديلا. بينما الأصل أن المريد يصحب الشيخ لله لا لنفسه (ذات الشيخ)؛ وإلا صار الأمر معكوسا، هو للشرك أقرب منه إلى التوحيد. وقد جاء في الحديث ما يجعل المرء يتوقف كل مرة من أجل تصحيح وجهته. فعن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الأعمال بالنِّيَّةِ ولكل امرِئٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٣٨]. فالهجرة في السلوك لا بد أن تكون إلى الله ورسوله؛ وإن كانت كذلك، فلا تأثير لحضور شيخٍ بعينه فيها أو غيابه عنها.

---

[٣٨]. متفق عليه.

وأقرب مثل نجده لأصحاب التبرك، مثَل أهل الكتاب: فهم رغم كونهم أتباعا لرسول، (يفترض أن يكونوا اتبعوه إرضاء لله)، إلا أنهم يُحجبون عن رسول جديد إذا جاءهم، ويصيرون له ألد أعدائه. هذا لا يستقيم مع النية الأولى للهجرة! لا بد أن أمورا قد طرأت، جعلتهم ينسون أول نيتهم، ويصيرون متمسكين بمظاهر ما كلفهم الله الوقوف (التوقف) عندها؛ وهو القائل سبحانه: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ النجم: ٤٢. فنهاية السلوك (الوصول) تكون إلى الله، لا إلى رسول ولا إلى شيخ!

يتبيّن من هذا، أن أهل الكتاب الذين رفضوا الرسول الذي أتى بعد رسولهم، ما وصلوا إلى الله؛ بل حُجبوا برسولهم عن الحق. وعليك أن تُفرق هنا بين ما ذكرناه لك سابقا من كون الرباني (الأصلي أو الفرعي) لا يتمكن من الحَجب عن الله، وبين الحَجب الذي نذكره هنا. وذلك أن هذا النوع الأخير هو من نفس من يزعم اتباعه لا منه. والمنتسبون إلى شيخ رباني، إذا رحل عنهم وهم لم يصلوا بعدُ إلى الله، إن هم رفضوا اتباع رباني بعده –من داخل طريقته أو من خارجها– فما هم طالبون للحق. وما كلفهم الله سبحانه ما كلّفوا أنفسهم من بقاء مع الآثار.

ومن تمام المطابقة في الحال، أنك تجد المتبركين –إلا من عصم الله–، يتصفون بأوصاف أهل الكتاب التي نهى الله عنها، ومنها:

١. **الحسد:** فتجدهم يحسدون الرباني الذي جاء بعد شيخهم، ولا يحبون أن يروا عليه أثر نعمة. وقد ذكر الله ذلك عن أهل الكتاب فقال عز وجل: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ البقرة: ١٠٥ . كفر أهل الكتاب كفر أكبر، وكفر أهل

التبرك كفر أصغر؛ ولكن مع ذلك الصفة هي نفسها. والله يُذكّر عباده في آخر الآية، أن الأمر إليه سبحانه، يضعه حيث يشاء. فلا دخل للرغبات ولا للأهواء في مثل هذا.

٢. تمني ثني المحقين عما هم عليه: فقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ البقرة: ١٠٩. وقد يخرج المرء من دائرة التمني إلى دائرة العمل من أجل تفريق جماعة الحق، وقطعهم عما هم عليه؛ ولو بعودتهم إلى الغفلة السابقة؛ كما في قوله سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ آل عمران: ٩٩. يفعلون هذا بعدما تبيّن لهم أن الطريقة مؤسسة على دلالة على الله بالله. ولو أنهم تنبّهوا، لعلموا أنهم يُنكرون ما كانوا عليه من حال (أو على الأقل ما كانوا يزعمونه). ولكن نسبة الشيء إلى النفس تختلف عن نسبته إلى الحق. فكم من واحد تراه متبعا لطريقة مخصوصة، تظن أنه من أجل الحق هو عليها؛ وهو هناك من أجل نفسه. يظهر هذا جليا، إن تغيرت عليه النسبة. ونسي أن الأشياء هي التي تُعرف بالله، لا العكس. وقد نُسب إلى الإمام علي عليه السلام أنه قال: "لا يعرف الحق بالرجال، ولكن يُعرف الرجال بالحق. فاعرف الحق تعرف أهله!" فما أعظمها من كلمة، جدير أن تُذكر في كل مكان وزمان؛ حتى لا تنعكس الأمور عند الناس؛ فإنهم ما أسرع ما ينسون الأصول، ويستحدثون لها بدائل من الباطل!

٣. اتخاذ الأئمة أربابا من دون الله: يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٦٤ . يخبر الله أن سبب الافتراق بين

من ينتسبون إلى الحق من المسلمين (أهل التسليم) ومن أهل الكتاب (حسب زعمهم)، هو اتخاذ فريق أئمتَه أربابا من دون الله؛ وهو الخلل في النية الأولى (التوجه). ولفظة "من دون الله" تفيد هنا الخلوّ عن السر الذي ذكرنا مرارا أنه شرط الربانية. يُفهم أن أصل الغلط هنا هو اتخاذ أئمة غير ربانيين، أو فساد النية في اتباع من كان منهم ربانيا. لذلك أمر الله الدال عليه به، أن يدعوهم إلى تصحيح المُنطلق؛ فإنه إن صح انتفت أسباب الفُرقة بالتَّبع.

٤. الكفر بآيات الله: يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾ آل عمران: ٧٠. أي يعلمون أنها حق. إذ أن أهل الكتاب هم أقدر من غيرهم على تمييز الحق إن جاء؛ لكنهم بعد أن يعلموه يتولون عنه، للأسباب التي مرت بنا آنفا، أو لأسباب أخرى؛ وكلها تتعلق بمجاهيل النفس. فإن من لا علم له بغوائلها لا يمكن أن يكون مؤهلا لفهم منطلقات الناس في معاملاتهم. وهذا من أسس التربية. بخلاف من تجدهم يعترضون على أهل الكتاب وكل مخالف بالمنطق العقلي فحسب. ينسون أن أهل الكتاب ليسوا حمقى، ولكن مع ذلك يجهلون أسبابهم.

٥. إلباس الحق بالباطل: يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ آل عمران: ٧١. هم يعلمون أركان الطريق وشروطها، ويعلمون من يجمعها (تتوافر فيه) ممن لا يجمعها؛ لكنهم يلبسون على الناس حتى يجعلوهم والمسلمين على درجة واحدة. وأهل التبرك يعلمون أن السلوك له علامات قد تغيب عندهم، بل يترجح غيابها؛ ويعلمون أن غيرهم أولى منهم بها؛ ومع ذلك يرفضون أن يقال عنهم أنهم أهل تبرك، بينما يُنسب السلوك إلى غيرهم.

٦. دعوى الأفضلية على الغير: يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ آل عمران: ٧٥. الأميون هم الغير عند أهل الكتاب، وهم عامة المسلمين وأهل الطرائق الأخرى عند أهل التبرك. يعاملونهم باحتقار ولا يرون لهم حقا في حسن معاملتهم. حتى لتجد في زماننا من يقول (وهم كُثر): الطريقة الفلانية هي العليا، ومريدها أفضل من الأئمة من غيرها. وهكذا... وهو كذب على الله!

٧. عدم اعتبار نظر الله: هم يدعون أنهم أولى الناس بالله، وأخلصهم في عبادته؛ ومع ذلك لا يتبعون الحق وهم عالمون به؛ ويلبسونه بالباطل، ويحاربون أهله؛ وغير ذلك مما هو من صفاتهم. فيقول الله لهم: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴾ آل عمران: ٩٨. فلو كنتم حقا تعظمون الله، لرجعتم عما أنتم عليه، وخفتم من غضبه. ولكنها الغفلة المستحكمة!

٨. فشوّ الفسق لديهم: لا شك أن من أهل طرائق التبرك ناسا مؤمنين، باقون على أصل الفطرة وتحكيم الشرع في أنفسهم بما تعطيهم مرتبتهم؛ لكن أكثرهم فاسقون خارجون عن أحكام الشرع باتباعهم لمقتضيات أهوائهم وصدهم عن سبيل الله. وقد قال الله في هذا: ﴿ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ آل عمران: ١١٠.

٩. إخفاء معالم الطريق: التي هي أركانها وشروطها كما بيّنها الأئمة الأولون؛ حتى عاد الناس لا يذكرون منها شيئا، وسهُل ابتداع أركان جديدة لهم صارت دليلا على انحرافهم. وقد قال

الله في هذا: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾المائدة: ١٥. فالشيخ الرباني، هو مجدد لما اندرس من معالم الطريق. وأهل التبرك عليهم –لو عقلوا– أن يعودوا إليه في تصحيح ما هم عليه. هذا هو الأصل!

١٠. الاعتذار عن عدم اتباع الحق بعدم وجود الدال عليه: فيقول لك القائل من أهل التبرك، نحن نؤمن أن اتباع الربانيين واجب من أجل الوصول إلى المبتغى؛ ولكن أين هم الآن؟! هل يوجد اليوم من هو كسيدي الجيلاني، أو سيدي الرفاعي وغيرهما، رضي الله عن الجميع؟! وما علم القائل أن الله لا يترك عباده من غير هاد: فكما أنه ما أهمل السلف سبحانه، فلن يُهمل الخلف. إنما الخلل في من يدعي طلب الحق: أهو صادق في طلبه ذاك، أم لا؟ وقد قال الله في من هذه حاله: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ المائدة: ١٩. فإن كان مرادكم تبيّن المعالم والتزام الطريق فالأمر ميسر؛ وإن لم تتبعوا من يجعله الله دالا عليه في زمانكم، فما بقي لكم عذر إلى ربكم؛ وقد ظهر كذبكم.

١١. النقمة على المحقين: وهي قد تؤدي إلى إيذاء المنقوم عليه. وما فعل المنقوم عليه شيئا يستوجب النقمة، وإنما فقط وُفّق إلى اتباع الهدى وخالف من بقي على الخسران من الفاسقين الخارجين عن تعاليم أئمةٍ ينتسبون إليهم زورا. يقول الله في هؤلاء: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ المائدة: ٥٩. ولاحظ كيف جمع الله بين الحق المنزل الآن، والحق المنزل من قبل؛ ليدلك على وحدة مناط الإيمان، ويعرفك كذب من يدعي أنه على الحق وهو يُكذب صاحب وقته.

١٢. الغلو: حتى لتجد كل أهل طريقة يجزمون أن شيخهم هو إمام الزمان، وأن طريقتهم أقرب الطرائق إلى الله، وأن الختم منهم، وأن المهدي منهم، وأن المبطل منهم خير من المحق من غيرهم، وهكذا... يقول الله في مثل هؤلاء: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ **المائدة:** ٧٧. وليحذر المرء على نفسه صفة التّألي على الله، فإنها من أكبر الكبائر!

ليس مرادنا من ذكر الصفات المشتركة بين أهل الكتاب وأهل التبرك، أن نتهم أحدا في دينه أو ننقص من قدره كما سبق أن نبهنا؛ وإنما أردنا أن نشير إلى صفات مركوزة في النفوس، إذا أغفلها صاحبها ولم يزنها بميزان الشرع، فإنها تكون سبب ضلاله. ونحن لا نرضى الضلال لأحد كما لم يرضه الله.

وكما نحن اليوم –من حيث ما نحن مسلمون محمديون والحمد لله– في الوقت نفسه عيسويون وموسويون وإبراهيميون وغير ذلك (لأننا أولى بهم ممن ينتسب إليهم بسبب اتباعنا رسولَ الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الرسالة الخاتمة)؛ فكذلك نريد أن نكون جنيديين وقادريين ورفاعيين وشاذليين حقيقة، باتباعنا لمن جعله الله دليلا عليه في زماننا.

فإن قلت: فكيف نعرف هذا الإمام؟ وإذا عرفناه، كيف نعلم أنه من مرتبة مَن ذكرت؟ قلنا: كل ذلك متوقف على صدق طلبك الحق، فإن علم الله منك صدقا دلك عليه إن كانت لك قسمة عنده؛ وإلا فالزم التسليم ولا تخض مع الخائضين فيما ليس لك به علم.

الفصل الثامن

التصوف منقذاً للأمة

إن الأمة الإسلامية لا شك هي تعيش أزمة تدين لا تخفى عن ذي نظر نتائجها وآثارها، وإن كانت أسبابها قد تشابكت وتداخلت حتى ما عاد يميزها إلا المتتبع الماهر.

ولا شك أن أزمة الفقه العقدي في عصر العولمة وتكنولوجيا الاتصال، تُعد سببا رئيسا للأزمة العامة؛ بالإضافة إلى آثار الانفتاح القهري على كل الأديان والفلسفات العالمية.

جلي أن الأمة تعالج الأزمة من حيث ما هي أعضاء مختلفة، لا من حيث ما هي جسد واحد؛ مما أعطى تصورات غير متجانسة للحل. ومع سعي كل طائفة (بالمعنى العام) إلى العمل بما تراه مناسبا، ازداد الوضع تمزقا وتفككا.

فالفقهاء –على العموم– غارقون في تفاصيل لم يتمكنوا من مجاوزتها من أجل توحيد العمل فيما بينهم؛ حتى يستطيعوا مخاطبة الأمة بخطاب موحّد يسهل عليها الاستجابة له ولو في أدنى درجات الاستجابة. ما زالوا حبيسي المقولات التي أسسها الأئمة الأُول. نسوا أن الفقه المتجدد يمتح من الكتاب والسنة برؤية عصرية، يمكن أن تتجاوز بعض الصور السابقة، بعد تحصيل استعداد الاجتهاد وملكة الفقه. غفلوا عن كون الفقه نتيجة للتقوى لا إيغالا في الفكر والدراسات.

الفقه اليوم، صار فقها مجتزأً، يشكل دوائر غير متصلة فيما بينها. يشتغل داخل كل دائرة فقهاء مذهب مخصوص، بمنطق مخصوص؛ لا يتمكن من إعادة النظر في مسلمات كانت دعائم للمذهب على مر الأجيال.

وما زاد الوضع تفاقما، انعكاس الفقه العقدي المُختلَف فيه على فقه العبادات والمعاملات؛ مما قوى الحواجز بين الدوائر عموما. فصار الناطق من داخل دائرة ما، كأنه يتكلم من خارج المنظومة الإسلامية الشاملة. أكد هذه الحال وقوع الدوائر الفقهية كلها تحت التأثير السياسي، الذي صار الموجه الأول لأنساقها في غياب شبه تام لعلاقة وجدانية للفقيه بربه.

قد يستغرب منا القارئ مثل هذا القول، ظنا منه أننا متحاملون على الفقهاء، أو أن بيننا وبينهم ثأرا؛ لكننا نقول ما نراه حقا من غير أن نزيد أو ننقص. والغياب شبه التام الذي ذكرناه للعلاقة الوجدانية للفقيه بربه، أمر لا يختلف فيه اثنان إن كانا يميزان ثمار التدين السليم بالمقارنة إلى الآفات التي هيمنت عليه. فصار الفقيه الذي يظن نفسه ممرّضا للأمة، في حاجة إلى تمريض؛ بل إلى عمليات جراحية أحيانا؛ تستأصل منه الأورام المذهبية الموروثة.

دليلنا على ما نقول، هو الحوارات التي أجراها فقهاء مختلف المذاهب، ضمن ما أسموه "التقريب بين المذاهب"، الذي ما رأيناه في غالبه إلا مُذْكيا للفتن والأحقاد. ليس سهلا أن يتكلم كل أحد في التقريب أو التوحيد (توحيد الأمة)، ما لم تتحقق صلته بأصل الدين، مخترقا لحجاب الزمان، وخارجا عن هيمنته.

إذا شئنا أن نختزل صورة الأزمة الفقهية خصوصا، وأزمة التدين عموما، قلنا إن الجدل قائم بين نمط تدين تاريخي سائد، وآخر حي غابت معالمه عن المشهد العام حتى ظُنت به الظنون رغم أصالته وأحقيته.

أما أهل الفكر (بتجوّز) عندنا ومن يدور في فلكهم، فهم عمليا مفصولون عن الدين، وإن كانوا على صلة واهية به عقديا واجتماعيا. والمصيبة أنهم لا يرون إمكان تحكيم الشرع مَخرجا من الأزمة العامة. نقول الأزمة العامة، لأنهم لا يرون أزمة في التدين بالصورة التي ذكرناها سابقا؛ وإنما يرون أزمة سياسية اقتصادية بالدرجة الأولى. ولا يرون أزمة التدين إلا أزمة رافدٍ من روافد المظاهر الاجتماعية. أعانهم على ترجيح هذا الرأي أزمة الفقه التي نعاني من آثارها المتشابكة كثيرا. فظنوا أن الأزمة لا بد أن تُبحث خارج منظومة الدين المعرفية، وإن سلّموا بحرية تدين فردية أوجبها إيمانهم بالحقوق كما هو متعارف عليها عالميا في عصرنا.

بهذا، أصبحت لنا دائرة تكاد تكون تامة الانفصال عن دائرة الفقه الكبرى. لها منطلقاتها الخاصة، ووسائل عملها التي تهمل في تفاصيلها الجانب الأخلاقي إلى مدى كبير، رغم النّصّ عليه في مبادئها الكلية ومواثيقها.

أما الدائرة الأخرى الثالثة، فهي دائرة أصحاب المال والنفوذ التي ما لها غاية إلا اكتساب القوة التي تمكنها من التحكم في الدائرتين الأوليين ومجموع الأمة، بما يخدم أغراضها الخاصة أولا، وباستعمال كل الوسائل الممكنة. فهؤلاء لا مرجعية لهم، يُحاكمون إليها. بل يمكن أن يوالوا أعداء الأمة نفسها، وهم يظنون أنهم لا يرتكبون شيئا ذا بال.

أما عموم الأمة، فهم إما تبع لإحدى الدوائر سالفة الذكر، وإما غائبون حُكما؛ ليس لهم اعتبار إلا من حيث الإحصاءات و من حيث قابليتهم للاستغلال وعدمها.

يتضح من هذا المسح السريع، أن الأمة مفككة الأوصال، لا يمكن أن تسير في اتجاه واحد بكل محركاتها (هذا إن سلمت المحركات). مثَلها كمثل السفينة، يأخذها كلٌّ إلى الجانب الذي يريد. فهي إما متأرجحة مضطربة، وإما متوقفة قد تخلت عن وظيفتها بين الأمم.

في هذا المناخ، نقترح أن نعود إلى التصوف، بوصفه تحقيقا للدين؛ لا إلى ما يعلمه الناس من التصوف الذي هو "فولكلور"، تتباهى الأقطار في عرضه.

نقصد التصوف الذي يفتح للفقيه أبواب الاستمداد، التي تتحقق بها له العودة إلى أصل النبع المعرفي الصافي الذي ليس إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. يأخذ عنه -إما مباشرة إن رضي عنه، وإما بواسطة الرباني- ما يغنيه عن تتبع المسار التاريخي الذي أصبح حاجبا عن حقيقة التدين. ونقصد التصوف الذي يعود بـ"المثقف" إلى أصله من غير تقييد ولا تقليد. يفتح له بابا إلى الدين غير رسمي؛ يصحح من خلاله معاملته لربه، ويرى بعين الإطلاق -إن شاء الله- ما لم تكن تبلغه الأحلام من معارف تجاوز حدود عقله. فينطلق خارج سجنه يدعو الناس إلى فضل الله العميم.

نقصد التصوف العلم والمعرفة، الذي -وحده دون غيره له هذه الصفة- يستطيع أن ينتظم كل عناصر الأمة في دائرة واحدة كبرى، منسجمة ومتكاملة، تعمل لتحقيق غاية واحدة، هي عبادة الله حق عبادته.

لا نقصد بالعبادة التمسك بالمظاهر الجوفاء التي ما أغنت عنا شيئا؛ ولكن نعني العبادة الحق المرتكزة على معرفة بالمعبود، في تحرر من جميع القيود التي صنعناها لأنفسنا، أو صُنعت لنا من قبل غيرنا.

الباب الرابع

التصوف خطابا عالميا

الفصل الأول

المرجعية المعرفية

إن تعدد المشارب العقدية في العالم، المؤسِّسة لكل الاختلافات الملوِّنة لحياة الشعوب من جميع الجهات، ترجع إلى أصلين لا ثالث لهما؛ وهما: الله والإنسان، بحسب مستند المُعتقِد لا بحسب الحقيقة. فكل الأديان والإيديولوجيات التي هي بمثابة نَوَيات لما يُسمى الحضارات، تعود إلى هذين الأصلين. فالأديان "السماوية"، تنتسب إلى الله؛ أما الأديان الوضعية والإيديولوجيات فإلى الإنسان.

وكون المرء يأخذ بإحدى المرجعيتين، يعود إلى ما يشهده من الوجود. فالمتدين يشهد الله غيبا، وهو ما يُسمى الإيمان (لأن المشاهدة في الاصطلاح هي العيان، وهي أرقى من هذه)؛ ومعتنق الفلسفات مشاهد للعالم ومنه الإنسان. ومرجع الشُّهودَيْن إلى الوجود والعدم. وذلك بسبب كون العالم من مرتبة الإمكان (المتشابه)؛ فله وجه إلى الوجود، ووجه إلى العدم.

وقد جعل الله لكل وجه أهلا. فأصحاب الوجود يشهدونه غيبا وعيانا، بحسب مرتبة المتدين؛ وأصحاب العدم يشهدونه، فلا يرون إلا الصور العدمية التي كانت في علم الله، قبل خلق الخلق؛ ظهرت لهم لما تجلى الله بها، فظنوها شيئا يُتمسّك به. كل هذا والجميع ناظر إلى نفس المَشهد. وقد ذكر الله هذه الحقيقة في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ النور: ٣٩ . "الذين كفروا"، هم من يرون الصور العدمية؛ "أعمالهم" من جنس شهودهم؛ "كسراب"، لا حقيقة له وإنما يتراءى للناظر في صحراء الحيرة الفكرية؛ "يحسبه الظمآن" إلى معرفة الحقيقة "ماء" أي علما حقيقيا صادقا؛ "حتى إذا جاءه" في سلوكه المعرفي التحقيقي؛ "لم يجده شيئا" أي وجده عدما على أصله؛ "ووجد الله عنده" أي وجد الله هو القائم في الصورة العدمية المشهودة؛ "فوفاه حسابه" أعطاه ما يليق باستعداده من إمداد؛ "والله سريع الحساب" فلا دوام للكفر وما يجري مجراه إلا قليلا في عمر الدهر. والحق محيط بالخلق من الجهتين، البدء والمعاد. ولنعد إلى ما كان من الفريقين.

فالذين مشهدهم العدم من الناس، اعتبروا كونهم خُلقوا على أكمل صورة، واعتبروا ذوق الوجود الذي وجدوه من أنفسهم؛ فاتخذوا أنفسهم وأمثالهم مرجعا في نيل المعرفة الحق. ولما كانت عقولهم هي صورة أعيانهم فيما يتعلق بالصفة العلمية، أخذوا منها صور الحق التي أعطتهم حسب زعمهم. فكان منهم أصحاب الإيديولوجيات على الخصوص. وهؤلاء أغلب سكان الأرض اليوم، من أبسط أنماط الفكر العامي، إلى أكبر المفكرين ذوي الأنساق المكتملة في مرتبتهم.

أما الصنف الذين اتخذوا الله مرجعا، فمن أهمهم اليهود والنصارى. وهؤلاء لهم أنساق دينية مختلفة إلى جانب المسلمين وبعض الأقليات من الصابئة وغيرهم؛ رغم كون مرجعيتهم واحدة؛ وهي الله! فالاختلاف واقع عند أصحاب المرجعيتين فيما بينهما، مع كونهما على اختلاف بينهما من حيث الأصل.

والتصوف بوصفه أفضل من يعرض النسق المعرفي الكامل والمطلق للإسلام من حيث هو مظهر الكمال الذي انتهى إليه الدين الإلهي، هو أجدر منظومة بمخاطبة الحضارات العالمية، بسبب أنه لا ينبغي أن يخرج عن إحاطته شيء.

فمن جهة كونه دينا إلهيا، فهو وجودي؛ ومن جهة كماله المحمدي، فهو متعلق بكل مراتب ذلك الوجود العدمية، التي يعود إليها كل شيء في العوالم المخلوقة: سواء من حيث كلياتها أو من حيث جزئياتها. لذلك ورد في القرآن الذي هو الصورة الكتابية للوجود: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ المائدة: ٤٨. فتصديق القرآن للكتب السابقة، هو تصديق لنفسه من حيث أبعاضه؛ ووصفه بالهيمنة عليها هو بسبب كماله وجمعه. من أجل ذلك جُعل الحكم (ولا يكون إلا للأعلى) بين أهل الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ثم جُعل الإنباء فيما اختُلف فيه إلى الله مرجع الجميع. وبسبب شمول القرآن للمراتب كلها قال الله عنه أيضا: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ الأنعام: ٣٨ ، فعم كل شيء! لكن علم ذلك

اختص الله به من فتح عليه في الكتاب من أهل القرآن، الذين هم أهل الله وخاصته؛ الذين يعلمون ظاهر القرآن وباطنه، وآتاهم الله علم التأويل.

فأهل الله يعلمون الحق الذي عند أهل الكتاب؛ ويعلمون الانحراف الذي دخل عليهم إما من سوء تأويلهم لما عندهم، وإما مما كتبوه بأيديهم وقالوا هو من عند الله وما هو من عنده: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ البقرة: ٧٩.

وأما علمهم بما يعتقده أهل النظر، فهو من علمهم بالعدم وأثره في الوجود. فيعلمون مستند كل مذهب فكري، ويعلمون أوجه النقص فيه وسبلَ تكميلها. وبهذا يكونون مصداقا للإسلام نفسه وهيمنته المعرفية على كلا الفريقين.

الفصل الثاني

حوار الأديان

إن حوار الأديان (صارت أديانا لما انحرف بعضها عن أصله) الذي يُقصد منه في المرتبة الأولى حوار أهل الكتاب؛ ينبغي أن يكون ممن تحققت له المعرفة الإلهية من أهل الإسلام؛ لأنهم يعلمون الحق الذي عند أهل الكتاب كما يعلمون الباطل الذي لديهم. أما قيام الفقهاء بهذه المهمة نيابة عن الأمة، فهو من الإخلال بالمراتب؛ ذلك أن الفقهاء لا معرفة لديهم (نقصد معرفة الله التي للخواص) تمكنهم من النيابة عن الأمة، وفيها من هو أعلى مرتبة منهم. ثم، إن الفقهاء أنفسهم لا يسلمون من الباطل الذي يتسرب إليهم من إعمال فكرهم فيما لا يجوز إعماله فيه؛ أو أن يُمرَّر (الباطل) إليهم ممن يقتدون به من أئمتهم عند غياب التثبت. فهم وإن كانوا على حق في عموم الدين، لا يضمنون أن يكونوا عليه في جزئياته. وهذا مما لا يتنبه إليه أكثر الناس.

قال الله تعالى:﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ العنكبوت: ٤٦. أي لا تناظروهم وتغالبوهم بالحجة. "إلا بالتي هي أحسن" مراعاة للحق الذي معهم، فإن الحق أحق أن يُتبع. ولا ينفع في هذا أن الواحد على الدين الحق، والآخر على شرع منسوخ. فالشريعة وإن كانت منسوخة، فهي تستند إلى حقائق لا تتبدل. والحقائق هي التي

سماها الله في كتابه "سنة الله"؛ فقال جل من قائل:﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ الأحزاب: ٦٢. ينبهنا سبحانه أن الحقائق لا تتبدل، حتى نعتبرها عند المتقدم زمانا والمتأخر. وهذا الباب ما رأينا المشتغلين بالعلم يفطنون له؛ فهم ينظرون إلى الشرائع منفصلة عن بعضها. يظنون أن اختلاف الصورة يدل على اختلاف الحقيقة. كيف يكون هذا والشارع واحد سبحانه! هذا يعني أن الشرائع لها جانبان: جانب ينظر إلى الحق فهو واحد؛ وجانب ينظر إلى الأقوام، فهو محل الاختلاف والمتغيّر. ومجادلة أهل الكتاب تقتضي أن يراعي من يُجادلهم الجانب الذي يلي الحق، وإلا كان كمن يجحد الحق الذي معه، بسبب أن الحق غير متعدد. "إلا الذين ظلموا منهم" بتبديل ما أنزل إليهم، فإنه سيكون إذ ذاك من الباطل؛ لأن كل أمر أصله النفس، فهو باطل! وهذا الباب، يتطلب أن يعلم المناظر ما هو على الأصل من أقوالهم، مما وقع له التبديل. وهو علم جليل لا يتوافر عند كل أحد. فهو يستند إلى الكشف لا إلى التحصيل. وعلم الكشف أصحابه قليلون؛ ومن قلته سمِعنا كبار فقهاء عصرنا يُنكرونه وينفون عنه الشرعية. هذا يدل على غيابه عندهم، ذوقا وعلما مجردا. يجهلون (نعم يجهلون، فالفقيه لا يعلم كل شيء كما تعتقد العامة) أن علم الكشف من ثمرات الإيمان (المرتبة الثانية من الدين). ومن أنكر الثمرة، فقد أنكر الشجرة وهو لا يدري. "وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم" هو الحق الذي لا يتعدد. يؤكد هذا وحدة المصدر (المرجع) في قوله سبحانه:"وإلهنا وإلهكم واحد"، فهو نفس الإله. وقد رأينا جل المسلمين ينظرون إلى أهل الكتاب وغيرهم، كأنهم عباد إله آخر غير إلههم، بسبب غلبة شهود الحكم الشرعي القاضي بكفرهم. ذلك أنهم لم يفرقوا بين العبودية الطوعية والعبودية القهرية. وهو نفس ما وقعت فيه بنو إسرائيل عندما كانوا ينظرون إلى الأميين (غير أهل الكتاب) باستعلاء؛

حتى أنهم كانوا لا يتورعون عن ظلمهم. يعاملونهم كأنهم عباد إله آخر دون إلههم، أو أنه لا إله لهم. تعالى الله عن ذلك! ولا تُحجب عما ندلك عليه من صريح الحق، بمثل قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أحد، لما أمر بإجابة أبي سفيان عند قوله: "اعل هبل"؛فقال صلى الله عليه وآله وسلم:«قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم!»[٣٩]؛ فإن معناه هنا ولاية النصرة لا الربوبية! فإياك أن تكون من الجاهلين! وأما قوله سبحانه: "ونحن له مسلمون"، فهو تذكير لأهل الكتاب بوجوب الإسلام لله مع النبي الذي أدركهم وقته؛ إن كانوا حقيقة متبعين لنبيهم كما يزعمون. كل هذا بسبب أن الحق لا يتعدد، والشرائع لا ينبغي أن تحجب عن الشارع! وإلا صار التدين مجلبة للعمى بدل أن يكون وسيلة إلى الله.

من هذا المنطلق، علينا أن نُخاطب النصارى (لا المسيحيين)، بوصفنا المسيحيين حقا؛ حتى نردهم إلى المسيح، من وهم اتّباعه عليه السلام. وعلينا أن نخاطب اليهود من كوننا الموسويين حقا. من جهة نشترك معهم في النسبة لأنها عندنا واحدة، بسبب كون محمد صلى الله عليه وآله وسلم أب الأنبياء جميعا من جانب الروح؛ ومن جهة نردّهم إلى تحقيق نسبتهم عوض الاكتفاء بظنها.

أما أصحاب الأديان الوضعية، وعلى الخصوص الوثنية منها، فالحوار بيننا وبينهم يكون بتبصيرهم بأصل ما يعبدون من جهتين:

— الأولى: تبصيرهم بأن ما يعبدون (المظاهر)، عباد أمثالهم؛ والعبادة لا تصح من هذا الوجه لأن المرتبة واحدة.

[٣٩] . من حديث أخرجه البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنهما.

— الثانية: تبصيرهم أن ما ينسبونه من الصفات لمعبوداتهم، هي بالأصالة لله، الذي ينفرد بصفة الألوهية دون سواه. وبتمايز المرتبتين، تصح العبادة. لكن مع هذا ينبغي إتيانها من الوجه المأذون فيه.

١. الإذن:

إن الله مالك الملك، لا يقبل أن يأتيه عبده من نفسه، أي بما يرى ويظن؛ ولكن يجب أن يأتيه وفقا لأمره، حتى تكون أول خطوة (مجازا) إلى ربه عن عبودية. فيصيبه من بركاتها في كل طريقه. هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى، فإن الله عزيز، لا يتأتى لكل من يريد أن يتوجه إليه بلوغ مراده، حتى يكون الله نوالا له. بل عزته سبحانه تقتضي أن لا يُتوجّه إليه إلا بإذنه؛ حتى يظهر حكمه في البدء والختم. هكذا هو الأمر! وقد قال الله في الإيمان المأمور به جميع الناس: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾يونس: ١٠٠. فإن كان هذا حاصلا للعموم، فما ظنك بمن رام الدخول عليه سبحانه؟!

ثم انظر ما يتعلق بالإذن الإلهي في القرآن الكريم، لتعلم ضرورته القصوى:

— يقول الله تعالى:﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾البقرة: ١٠٢: في مقام الفعل، حتى لا يتوهم العبد حصول التصرف فيه من قِبل عباد آخرين، من أنفسهم؛ مما يُعد شركا، لا يسلم منه إلا من اعتنى الله به.

— ويقول سبحانه:﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ١٤٥: حتى لا يُنسب فعل الإماتة لغيره سبحانه. فإن صورة الفعل قد تحجب من لا قدم له في التوحيد الخاص، فيقول مثلا: لو ما حدث كذا، ما مات فلان، أو قتل نفسه أو... ويستند على حكم الشرع الظاهر، في الباطن؛ يأخذ الأمور على غير ترتيب ولا حكمة.

— ويقول سبحانه:﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾الرعد: ٣٨: حتى يعلم أن الهداية الظاهر بها كل رسول هي من عند الله وبإذنه. فلا يُشرك في عين ما هو توحيد في الظاهر.

— ويقول سبحانه:﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ المجادلة: ١٠: حتى لا ينسب الإضلال في الحقيقة إلى الشيطان فيكون من المشركين؛ وإنما ينسبه إليه بحكم الشرع والأدب. أما الضلال حقيقة فهو من الله باسمه "المضل" سبحانه.

— ويقول سبحانه:﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾التغابن: ١١: المصيبة كل ما يصيب الإنسان من أعراض: محمودة في العرف والشرع، أو مذمومة؛ وإن جرت العادة بإطلاق المصيبة على ما يضر فحسب. والمعنى الذي ذهبنا إليه جامع: فما يصيب العبد من خير أو شر؛ من ضلال أو هداية؛ من سعادة أو شقاوة؛ من إيمان أو كفر؛ إلى غير ذلك من الأعراض، فكله بإذن الله المتصرف من وراء المظاهر والأسباب.

فعلى المحاور أن لا يغيب عنه شيء من هذا، ثم بعد ذلك عليه أن يبيّن للعابدين على غير الشرع المحمدي، أن العبادة لا بد أن تكون عن إذن إلهي. والإذن الإلهي كان في كل زمن منوطا برسالة مخصوصة؛ فلما جاء خاتم النبيين عليه وآله الصلاة والسلام، ارتفع الإذن عن كل الشرائع السابقة، وبقي ملازما لشريعته وحدها. وذلك أن أغلبهم –خصوصا أهل الكتاب–، يصعب عليهم الإيمان بكون الرسالة الموسوية مثلا في زمانها حق، مع نسبة النسخ إليها الآن. يقولون: إن كانت حقا، فالحق لا ينقلب باطلا. يزعمون أنهم ينزهون الله عما

يتصف به المخلوق من تراجع في المواقف والأفعال! وما فطنوا إلى أن الله يأمرنا وإياهم أن نتبع إذنه، فنكون عبادا له، لا لرسالة ولا لرسول.

٢. دعوة الخواص:

إن أهل الكتاب على الخصوص عابدون لـ"الرب"، لكن من وجه "المضل". فدعوتهم تكون من الاسم "الهادي" إلى الاسم "الرب". وهذا لا يكون إلا للربانيين القائمين بالخلافة في الأسماء الإلهية. أما غيرهم فدعوتهم من وراء حجاب.

أما غير أهل الكتاب، فلا يعبدون "الرب"، بل يعبدون اسما من رؤساء الأسماء في الغالب كـ"الحي" و"العليم" و"القادر"... فيمدهم "المضل" بصور عبادات يُلزمون بها أنفسهم، يُملي لهم بها في طريقهم. ودعوتهم تكون من الوجه (الاسم) الذي يعبدونه في الصورة المعبودة لديهم إلى الوجه العام الجامع الذي هو "الله". وقد نبه القرآن العظيم إلى هذا المعنى في قول الله تعالى على لسان المشركين: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ الزمر: ٣ . فهم ما قصدوا إلا عبادة الله، لكن من وجه مخصوص قيدوه بمظهر مخصوص. والله أمرنا بعبادته من الوجه الجامع لجميع الوجوه، حتى لا نجهله في باقي الوجوه.

من هنا يتبيّن أن الصراط المستقيم (المأذون) هو وحده السبيل إلى المعرفة التامة. فانظر حكمة الله في كل شيء، واربط السبب بمسببه يظهر لك العجب.

الفصل الثالث

محاورة عابدي الإنسان

لعلك تتساءل عن عبدة الإنسان، من هم؟

عبادة الإنسان بالمعنى المعروف، هي أن يكون عبد تحت حكم عبد، لا يتحرك إلا بأمره ولا يَسكن إلا عن إذنه. وهذه العبادة كانت جلية مع الاسترقاق المعلوم؛ لكنها بعده خرجت إلى مظاهر قد لا يتبيّنها ضعفاء العقول. أما العبادة الأخرى –والتي نعنيها هنا– هي النظر إلى الإنسان من حيث ما هو مرجع للوجود. قد تُعلَن هذه المرجعية، وقد لا تُعلن ويُكتفى في التعمية عنها أن يُزعم أن كل شيء ينبغي أن يصب في مصلحة الإنسان. وحتى هذا المبدأ الذي نتفق معهم عليه؛ ينبغي أن يمحص. فبأي المعايير يُنظر إلى هذه المصلحة؟ هنا التلبيس!

عبدة الإنسان، بوصفه إلها اعتباريا، هم المفكرون الذين جعلوا الوجود كله تحت حكم الإنسان، بحسب إدراكه. ولا يخفى ما في الإدراك من تفاوت بين بني الجنس كلّه. لكن ما نريد التوقف عنده الآن، وإنما نريد أن نعود إلى أصل زعم الربوبية له من غير ذكر لفظها، متجاوزين المظاهر الواضحة التي سبقت في التاريخ، كفرعون ومن سار على نهجه.

طرأ الإنسان على الوجود، ولم يكلّف نفسه أن يسأل نفسه لمن هو (نقصد على الخصوص صنف المفكرين الذين نخاطبهم)؟ ثم بدأ ينظر في السبل التي بها يتمكن من تسخير كل شيء لنفسه، لهواه. ولم يسأل: بأي حق له أن يفعل ذلك؟

في زماننا صار هؤلاء، يضعون قوانين للإنسانية تسير عليها، فإن هي خالفت وجدت عقوبات في انتظارها؛ تقوم مؤسسات عالمية بتنفيذها. فإن تذمرتَ، أجابوك بأن إسعاد الإنسان هو بُغيتهم؛ ودليلهم "حقوق الإنسان" التي تحفظ حدود مملكة الإنسان الوهمية التي زرعوها في أذهان المستضعفين.

قبل هذا، وذاك: من خوّل للإنسان أن يشرع للإنسان؟ لا يمكن أن يُقبل هذا، إلا إذا ثبتت مرجعية الإنسان الوجودية! وهو ما ثبت عكسه قطعا.

ومحاورة هؤلاء "الإنسانيين" لا بد فيها من معرفة منطلقهم الشهودي، ثم لا بد بعده من العلم بتفرعاته في أنفسهم، التي تعطي هذه الصور "المعرفية" التي يُقدّمونها للعالم. نخص بالكلام هنا المفكرين، ونغض الطرف عن السياسيين الذين يُوظفون هذا الفكر في كثير من الأحيان من غير أن يؤمنوا به.

"الفكر الإنساني" دوران في نفس النقطة. نعم، له أصله في الحقائق لا يُهمنا عرضه الآن؛ لكن بموازاة الشرع الإلهي هو عبث قد يُتلذذ بممارسته حينا؛ لكن لن تُحصد من ورائه إلا المرارة والحسرة.

"الفكر الإنساني" لم يقدم معرفة، وإنما قدم تفسيرات في غالبيتها ملفقة. فمثلا الحق للإنسان في اعتناق ما شاء من المذاهب، واعتماد ما يختار من الأخلاق بالإطلاق، بدعوى الحرص على "ذاتيته"، لا يستقيم من أبسط الوجوه:

— أولا، لا خلفية معرفية لمثل هذه المقولات، وإنما هي من قبيل الاحتمالات. وكل بناء على ما لا أصل له معرفيا، فهو يلتحق بالخيال المصطنع.

— إن "الذاتية" الفردية لا يمكن التنظير لها بعيدا عن "الذات الجماعية"؛ وهنا يكمن "التحدي". فما أسهل أن يعتني المرء بجانب من جوانب أمر ما؛ لكن ما أصعب أن يوفق بين كل جوانبه!

ومرادنا بعد هذه اللمحة، أن نشير إلى التغييب الذي نال جوانب عديدة من الإنسان عند مدّعي "الإنسانية" أو "الأنسنة" كما أسموها. وبتغييب تلك الجوانب، وقع اختزال الإنسان ذي البعد المطلق، في جسد قهره الله بأمراض ما كان يعرفها الأولون؛ تنبيهاً إلى الإخلال الواقع في النظر.

كيف ينظر قوم إلى الإنسان الذي سماه أهل المعرفة عندنا "العالم الصغير"، يشيرون إلى كونه خلاصة الوجود والسِّفر المختصر للصورة الإلهية، كالدمية التي يصنعها نجار أو صانع فخار؛ فإذا شاء بعد ذلك أتلفها وكأنها لم تكن؟!

نحن عندما نحاور أهل الفكر "الإنساني"، الذي ينطلق من الإنسان بحسب إدراك الناظر العليل وإليه يعود، إنما نريد أن نفتح أمامهم طريق المعرفة الحق، التي إن أعادتهم إلى أنفسهم، فبَعد أن تصل بهم إلى الحق؛ حتى يعرفوا الإنسان بالحق؛ فيعرفونه حق معرفته كما أهاب الله بنا في قوله سبحانه: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ الذاريات: ٢١ ؟ فهل يكون الإبصار في الأنفس من غير بصيرة؟! وهل يكفي البصر في إدراك الحقائق؟ وقد قال الله تعالى: ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ** ﴾ الحج: ٤٦؟!

فإذا علمت ما قلناه، فلعلك قد تبيّنت أن "الإنسانيين" هم على التقابل التام مع الربانيين. ومحاورتنا لهم، ينبغي أن تكون دعوة للتحقق بالإبصار؛ فإن ما يروّجون له تخرّص عُميٍ لا يُبصرون!

الفصل الرابع

انهزام الفقهاء أمام الفكر

قد يستغرب المرء من العنوان، ويقول كيف يكون الفقهاء منهزمين أمام الفكر، ومنهم من يمارسه ضمن مجاله؟ بل منهم من يُعدّ من فرسانه؟!

لذلك وجب علينا أن نبيّن وجه اشتغال الفقهاء بالفكر أولا:

— الفقه في الأصل من حيث ما هو استنباط، هو فكر؛ رغم أن العرف لا يعتبره كذلك. وقد بيّنّا هذا في كتابنا "مراتب العقل والدين"، لذلك لن نكرره هنا.

— ثم، من الفقهاء المتأخرين من درس الفكر الفلسفي؛ ومنهم من جادل أهل الفلسفات والملحدين خصوصا، بالفكر حتى يُصحح لهم المقدمات والنتائج معا. فنفعوا الناس كثيرا بهذه المناظرات الفكرية. نفعوهم بتخليصهم من آثار الفكر الفلسفي الذي غزا البلاد الإسلامية، حتى ما سلم منه المتخصص ولا العامي. فكان الفقهاء بهذا الفكر خير مدافعين عن المسلمين وخير معينين لهم؛ بالخصوص مع الضعف الإيماني العام الذي أصاب الأمة.

غير أن هذا الصنف الأخير من الفقهاء، لم يسلم من الآثار المذمومة للفكر؛ فعاد عليهم بالسوء في خاصة أنفسهم. فحُجبوا به عن حقيق الإيمان، ووقعوا تحت حكمه فيما يعود إلى العقائد على الخصوص. وصاروا يتكلمون في الله ورسوله بما لا يليق، وما يشعرون. ورغم أن العامة قد أراحهم ذلك بسبب الوضوح في الرؤية الذي بدا لهم أنهم قد اكتسبوه؛ إلا أنهم مع ذلك ضُرب بينهم وبين الطريق الخاص سد لا طاقة لهم بمجاوزته إلا أن يشاء الله. فهُم

في نفس ما ظنوه مكسبا لهم في فهم الدين (العقائد على التخصيص)، صاروا أبعد عن أصل التدين الذي عماده التصديق.

ولقد حَجب الفكر الفقهاء أنفسهم في مجالات تخصصهم عينها، فتجد عالم التفسير مقيّدا بظاهر القرآن وفهم لا يتعدى فهم بعض السابقين (من حيث الزمان). أما باطن القرآن، فتجد جلهم ينكره لمجرد أنه لا قدم لهم فيه. ويقابلون كل من يقول بفهم في القرآن جديد على عقولهم، بسوء الظن وشديد الإنكار. ولسان حالهم يقول: كيف يكون لك علم ليس لنا؟!. نسوا أن الله هو من يعلم من يشاء ما يشاء! مبدأ أساس في التدين صار غريبا لمّا حدث الحجاب!

أما علماء الحديث اليوم، فقد غرقوا في الأسناد، وألهاهم التعديل والجرح اللذان لا ينقضيان؛ وحُجبوا بتحقيق المتون عن المعاني التي تزخر بها الكلمات النبوية. بل حجبوا عن معرفة القائل صلى الله عليه وآله وسلم، فصاروا ينظرون إليه كآحادهم، ويصفونه بما لا يليق. ووالله لقد رأينا من بعضهم تعظيما للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، يزهو به ويفاخر، وهو عندنا من سوء الأدب وقلة الحياء.

المصيبة أن مرض الفقهاء معدٍ، يصيب كل من يستمع إليهم من العامة الذين يرحبون بكل "علم" لا يمس دنياهم فيفسدها عليهم. فصارت رابطة الأمة –عموما- بنبيها تاريخية مادية ظاهرية. وويل لك إن فهت بما ينبئ عن إمكان اتصال بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وراء الحس، ثم ويل لك إن أشرت إلى معاني وراء اللفظ؛ فإنك ستصبح دجال زمانك وأشد أهله فتنة على المسلمين.

وطامة الطوام أن لا أحد يستقرئ الواقع ويتحرى أسباب الهوان الذي بلغته الأمة. بلغ بها أن صارت أمم كافرة (لا يُشك في كفرها) تصوغ لها برامج تعليمها، الدينية منها على الخصوص. ويفاجئك صف الفقهاء –إلا من رحم الله– بالصمت المطبق حيال ذلك؛ ويُبينون عن "دبلوماسية" لا تملك إلا أن تُسائل نفسك عنها: من أين اكتسبوها؟ وهل هي من أركان الدين؟ أم أن عقول فقهائنا "المعصومة" اختل عندها ترتيب الأمور حتى صار الكلام في جواز التوسل برسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه، والتوسل بآله وصحبه والتابعين أخطر من النظر في مصير أمة تؤخذ إلى الكفر الصريح؟! وستجد من يقول لك من غير حياء، لو أتقنّا التوحيد (توحيدهم العليل) لما سلطت علينا تلك الأمم! كلام حق غير ممحص، يريد به عُمي باطلا تشتهيه الأنفس.

أما موقف الفقهاء بين يدي أصحاب السلطة والنفوذ، فمهزلة المهازل! حتى لو سُئلوا عن جواز التوسل بهم، لما أنكروه؛ بل لأقبل بعضهم على السائل يهنئه على حسن توفيقه في الفقه في الدين. كل المذاهب عند فقهائنا، يؤخذ منها ويرد (من غير حياء) إلا مذهب الحاكم، فإنه الدين/ما فوق المذاهب، الذي لا يجوز أخذه بغير تمام التسليم.

أما الفكر الذي ينهزم أمامه جهابذة فقهائنا، فهو الفكر "الإنساني" الذي ذكرناه في الفصل السابق، المتجلي في الصورة السياسية منه. فكم رأينا من فقيه يقف أمام الفكر الديموقراطي مبايعا على رؤوس الأشهاد، حتى لا تبقى عليه تهمة عند أسياده؛ من غير أن يُطالبه أحد بدليل صريح من كتاب أو سنة؛ كما يُرهب هو من يتكلم في روح الدين التي لا يؤذن له بالاقتراب من عزيز حماها. فيقول منتفخ الأوداج لـ"متوسل" مسكين: هذا، ليس عليه دليل من الكتاب والسنة!

والله، إنا نتساءل بصدق، عن أي كتاب وعن أي سنة يتكلمون؟! لعله عن كتاب الوحي الشيطاني، وسنة الفراعنة المتجبرين! والله لعصاة الأمة المنكسرة قلوبهم بباب الله، أفضل منهم عند الله بما لا يُقارن!

أما انهزام الفقهاء أمام الفكر المادي، فجعلهم يفسرون كل شيء بما تُدركه الحواس البهيمية، حتى لا تسقط مكانتهم عند من يماثلهم في الإدراك. فصار الإيمان بعد خرسهم،"طاقة إيجابية"، وصارت العبادات "علاجا نفسيا"، وصارت الغاية "رصيدا بنكيا" مؤخرا (في الآخرة)، وصار الله "الحاكم الأكبر" (بالمعنى الحسي لا الإلهي)؛ أو هو"المدير العام لجميع الشركات". وصار الفقهاء "الشرطة الدينية" منها فرع المرور (فقهاء العبادات)، والفرع السياسي (فقهاء العقائد)، وأمن الدولة، والمخابرات... واستبدوا بالدين، كما استبد غيرهم في مجالاتهم.

صار لزاما على المتدين المسكين (المواطن) أن يُرضي كل الأطراف حتى يسلم من "التحقيق الفقهي" أو "التعذيب" المعنوي في دهاليز الفكر الديني المنغلق؛ إن لم يُحكم عليه بـ"القتل" المعنوي المُقصي له من الجماعة التي ما هي إلا التجمع البشري متبادِل الأغراض؛ بعيدا عن تدين صحيح حي يكون فيه العبد على صلة حقيقية، لا وهمية بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم. حقيقية أكثر مما تشهد له الحواس وحدها بالصحة؛ لأن البصيرة تعطي ما تعطيه الحواس في مجالها. ولولا ذلك لكان التدين خيالا من جملة الخيال. بل هو كذلك عند أصحابنا، وإن كانت درجات التخيل متفاوتة.

وينهزم الفقيه أمام الفكر الحداثي، فلا يستطيع إنكار منكَر شائع، ولا الأمر بمعروف معلوم عنده من الدين بالضرورة. فتجد المسكين يجلس في استوديو الفضائية قبالة المذيعة

المتبرجة المتغنجة بأدب جم؛ وهي تُقلبه بأسئلتها ذات اليمين وذات الشمال، وكلبة نفسه باسطة ذراعيها بالتسليم؛ وهو يحلق في سماء الفقه الفضائي ويعود منها بدقائق الفهوم التي لا ينبغي أن تنزل إلى مباشرة الواقع المُغْبَرّ، بتأفف يُشبه تأفف فلاسفة اليونان من العمل اليدوي في زمانهم. كل هذا، وهو لا يستطيع -من قلة إيمان- أن يشترط على القناة تغيير المذيعة، أو أن يشترط على المذيعة ستر مفاتنها بحضرته؛ حتى لا يكون مُقرّا لها على المنكر؛ أو أن يُغير المنكر بالقول بأن يُبيّن حكم الله فيما هو أمامه، قبل أن يذهب بعيدا في خيالِ عقلٍ مُدمن على المخدرات المعنوية التي لا تقل عن المخدرات الحسية سوءا.

لا يسأل فقيهنا نفسه، أو يسأله أحد عن دليله من الكتاب والسنة في جِلسته تلك. خوفا من أن يُتهم بمخالفته العصر (الإله)؛ أو أن يتهم بالدعوة إلى التخلف، أو أن لا يُستدعى إلى البرامج "الإعلامية الدينية" بعد ذلك؛ فيُحرم "الأجر" الذي قد يكون بالعملة الصعبة. فمن أي كتاب وأي سنة يغترف فقيهنا في هذا؟! وانظر معي كيف يكون حال المتلقي، وهو يعيش متناقضات الفقهاء، ويرى استهزاءهم بالدين! ألا يجعله ذلك أكثر جرأة على تعدي حدود الله؟! ...

أما الفتوى، التي صارت مظهرا من مظاهر العبث، فالحديث عنها لا ينقطع. فالفقيه لا يفتي بحِرمة إقامة مختلف العلاقات مع ما يسمى "إسرائيل" لاعتبارات فقهية "دقيقة" لعلها تتعلق بفقه الأولويات؛ أو فقه "التعليمات العليا" التي تعلو الشرع عنده؛ مع كون هذه المسألة مما لا يُحتاج فيها إلى فتوى فقيه؛ بينما تجده يُفتي في وجوب نصرة فريق كرة القدم "الوطني" الذي لعله طليعة الأمة الجهادية ونحن لا ندري. وتجده يفتي بحِرمة التعرض بالتنقيص (بحسب التأويل الديماغوجي لا بحسب الحقيقة) من "القداسة الوطنية" حرمةً مغلظة؛ بينما

الدين يُهان في بيته وجامعه ووزارته إن كان من موظفي الأوقاف. ولم يسأل نفسه: أي وطن يبقى بعد ذهاب الدين؟! وتجد الفقيه (ولا فقه) يفتي في حكم تناول حقنة الدواء هل هي من المفطرات في رمضان أم لا؟ والمجتمع الهرمي، كل صف يعبد فيه الصف الذي فوقه باعتبار الجاه والمال. فعن أي صوم يتكلمون؟ أم عن أي صلاة؟ أم عن أي حج؟ والمعبود عند العموم غير الله. أهما القرآن والسنة، جاءا بهذا؟ أم هو كتاب آخر وسنة أخرى؟!

كررنا في كلامنا لفظيْ الكتاب والسنة، لأنهما صارا وسيلة إرهاب نفسي وفكري بيد الفقهاء، يُرهبون بهما من له بقية تعظيم لهما في غياب فقه فيهما. ونحن بحمد الله نريد أن نفضح دعواهم التمسك بهما بأن نذكّرهم بقول الله تعالى لأهل الكتاب في جميع الأزمنة بما فيها زماننا: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة: ٨٥ ، وبقوله سبحانه: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ والسنة كما تزعمون، ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ﴾آل عمران: ٩٩.

إن فقهاءنا صار هذا حالهم؛ نستثني منهم قلة منبوذين آثروا آخرتهم على دنياهم وقنعوا بالقليل. تصدق عليهم الصفات التي ذكرها لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السنة التي ربما لا علم لهم بها؛ فقد جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:«إن اللّه لا يقبض العلم بأن ينتزعه انتزاعا، ولكن يقبضه بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالما، اتخذ النّاس رؤوسا جُهَّالا، فسُئِلوا فأفتوا بغير علم،

فضلوا وأضلوا»[40]. الرؤساء الجهال، هم الرؤساء في المراتب العلمية مع كونهم جهالا في الحقيقة. والعلم المذكور في صدر الحديث، هو العلم بالله أولاً، ثم العلم بالشرع الذي يؤتي الله أصحابه فقها في دينه. نعني أننا هنا نعتبر إجازة الله لهم، لا الإجازات الورقية التي قد يأخذونها عمن هو أجهل منهم. وانظر كيف جعل صلى الله عليه وآله وسلم صفة العلماء بالاسم، الجراءةَ على الفتوى؛ فيفتون في كل شيء جليل أو حقير، بغير علم. أي بغير علم من الله، وإن كانوا أخذوه عن بعض أئمتهم ويظنون أنه علم. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ النجم: ٢٨. وقد جاء عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:«لا تقوم الساعة وإمَّا قال: من أشراط الساعة، أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقل الرجال، ويكثر النساء، حتى يكون للخمسين امرأة، الْقَيِّمُ الواحد»[41]. وانظر كيف حكم صلى الله عليه وآله وسلم برفع العلم في آخر الزمان، مع بقاء أشخاص يسمون علماء عند العامة ولا شك. وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:«لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع. فقيل: يا رسول الله، كفارس، والرّوم؟ فقال: ومن الناس إلا أولئك؟!»[42]. واتباع الأمم السابقة لا يكون إلا بعد أن تُصاب الأمة بأدوائها؛ فيصيب علماءنا ما أصاب الأحبار والرهبان؛ حتى يمهدوا لإصابة العموم بها

[40] . أخرجه الذهبي في "سير أعلام النبلاء"، وقال عنه: هذا حديث ثابت، متصل الإسناد، هو في دواوين الإسلام الخمسة، ما عدا سنن أبي داود، وهو من ثلاثة عشر طريقا عن هشام، ومن طريق أبي الأسود يتيم عروة، عن عروة نحوه، وقد حدث به عن هشام عدد كثير سماهم أبو القاسم العبدي.

[41] . أخرجه البخاري.

[42] . أخرجه البخاري.

أصاب الأقوام السابقين. وإياك أن تفهم أن الأمة منفصلة عن علمائها، وإنما أصيبت بالداء لمّا لمْ تسمع لهم؛ فإن هذا من الفهم السقيم، الذي لا يراعي الحكمة وارتباط الأسباب بمسبَّباتها. ولو أردنا تتبع الآثار في فساد العلماء لتطلب ذلك منا كتابا خاصا، لكثرة ما ورد فيه. وحسبنا الإشارة إليه هنا.

نخلص من كلامنا هذا، إلى عدم أهلية الفقهاء في الكلام بالنيابة عن الأمة في زماننا زمان العولمة التي ما زال بعضنا لم يستشعرها؛ فكيف بالاستعداد لها فهماً وخطاباً، وبعد ذلك عملا راشدا.

الفصل الخامس

التصوف العالمي الدجالي

لما كان الفقهاء منفصلين عن صحيح الفقه (نعني به ما ينفع الناس في تدينهم)، ظهرت في الأمة أنماط تدين غريبة وشاذة، زادت من محنتها ومعاناتها. وكانت هذه الأنماط على طرف النقيض من الفقهاء المتعيشين من فقههم، المُفَرِّطين في واجبهم؛ فصار هذا التدين مُفْرطا في ردة فعله على الفقهاء والنمط التقليدي. أدى هذا الإفراط إلى حد المسارعة في التكفير، والعنف والتفجير. فصار التدين في جزء منه وبالا على الأمة وعلى العالم.

ولما علم السياسيون المحليون والعالميون عجز الفقهاء التوجيهي –إن لم يكونوا سببا مباشرا في هذا التشوه التديّني– صاروا يلتفتون يمينا وشمالا عسى أن يعثروا على فقه بديل، أو عن مذهب يمكن أن يتصدى للتيار العنفي من حيث التأصيل ثم التربية؛ إن لم يكن قادرا على مواجهته العملية. فتنبهت بعض الأنظمة إلى التصوف كما يعلمونه مهادنا طيّعا، إلى جانب كونه ذا أتباع كثر منضبطين؛ لا يخالفون شيوخهم، وبما يأمرونهم عاملين. فأرادوا توظيف الطرائق الصوفية سياسيا بعد أن كان التصوف معروفا ببعده عن السياسة وأهلها منذ ظهوره في القرون الأولى. أرادوا أن يكون التصوف في مواجهة التدين المشوه، وعلى عادتهم لم يجدوا ما يدعمون به الزوايا والطرائق إلا المال وتمكين المنتسبين من عقد مؤتمرات محلية؛ حتى يسهل عليهم التنسيق فيما بينهم، وفي الآن نفسه، حتى يكونوا بأعين النظام.

ولما كانت العولمة حتمية لا محيد لأحد عنها، صارت الدول الكبرى وعلى رأسها الولايات الأمريكية، تعمل على الإمساك بزمامها وسَوْق سحائب أمطارها إليها، بما تعطيه العقلية الإمبريالية الرأسمالية. وبعد هجوم الحادي عشر من سبتمبر **٢٠٠١**، صار الأمر أشد إلحاحا. فقرر الأمريكيون أن يُشجعوا التصوف في العالم كله، عبر الحكومات المحلية، بما أن دستور دولتهم علماني لا يسمح بإقامة علاقات بتنظيمات دينية كما سبق أن ذكرنا في موضع آخر من الكتاب. فاستُدعي بعض "مشايخ" التصوف إلى مقر وزارة الخارجية الأمريكية وإلى الكونجريس. وزار بعض السفراء الأمريكيين زوايا للتصوف و"موالده"، في بعض البلدان العربية. كل هذا أدى إلى بروز التصوف على السطح الاجتماعي، وبدأ لأول مرة يُنظر إليه بصفته فاعلا سياسيا. وصار الناس يرمقون التصوف بريبة أشد مما كانت لديهم. فقد كانوا لا يعرفون حقيقته، ولا يعلمون وظيفة الشيخ فيه؛ ولا ما يُحصله المريدون منه؛ فانضاف إلى كل ذلك،عدم معرفة غايته ولا وظيفته السياسية أو مَن يستتر خلفه. ما خرج من التيار العام، إلا الانتهازيون الذين سارعوا إلى إعلان تصوفهم بعد أن كان منهم من كان اشتراكيا متطرفا أو سلفيا متجَلِّفا (مهزولا: قليل الدين).

وكما أن الفقهاء فشلوا في القيام بما يتوجب عليهم نحو أمتهم، فإنا نخاف أن يؤدي "تصوف" ترعاه أمم كافرة إلى فتنة أعظم من الأولى. ومما نخشاه:

١. النزوع نحو وحدة الأديان:

لا ننسب وحدة الأديان إلى التصوف الأصيل أو إلى أئمته الربانيين، حاشاهم ذلك أو أقل منه؛ ولكن نخشى أن ينبري من صفوف المتصوفة المقطوعين عن التزكية الشرعية، سفهاء

يأخذون بعض كلام أهل الله بفهم كليل، يحملونه على ظاهره (أو على الأصح ما يعطيه ظاهره عندهم)، فيخرجون بمذهب فاسد يُهلكون به أنفسهم ومن يتبع نعيقهم.

ومن الأقوال التي يُساء فهمها من قِبل المنتسب الغالي، أو من قِبل المنكر غير المتبصر قول الشيخ الأكبر قُدس سره، في هذا البيت وأمثاله:

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه[٤٣]

فظنوا أنه يعني العقائد بما يعطيه مصطلح العقيدة في الفقه، وهو الإيمان الغيبي بالشيء المعتقد؛ وظنوا أن اعتقاده جميع العقائد، يعني الديانة بكل دين معروف. وأغفلوا:

ا – أن الشيخ الأكبر رضي الله عنه، مرتبته فوق مرتبة العقائد كما تعرفها العامة؛ فهو أكبر أهل الشهود من الأولياء المحمديين. وما يتكلم عنه، يفيد أنه على علم بحقيقة كل عقيدة في العالم، ويعلم إلى أي تجلٍّ تعود. فاعتقاده (بتجوز) من جهة الباطن، لا من جهة الظاهر كما هو الشأن عند عامة المؤمنين. ومن لا ذوق له في مثل هذا يصعُب عليه إدراك الفرق؛ لكن ما كلفه الله تكلف فهمه! وله في حسن الظن بعباد الله متسع، وفي معرفة قدر نفسه مُنتصح، إن كان يخشى العاقبة عند الله! فالأمور تؤخذ في الدين باليقين لا بالظن، وتُحمل على أحسن المحامل ما دام ذلك متيسرا. هذا هو مذهب المؤمنين.

ب – أن معنى العقائد، لو كان على ما تواطأوا عليه، لما تمكن تحقق ذلك للشيخ أو لغيره. وذلك أننا نعلم أن من العقائد ما هو متناقض، ونعلم أن الجمع بين المتناقضين في محل واحد محال. فإذا كانت العقائد محلها القلب، فكيف يجمع الشيخ في الوقت نفسه والمحلّ نفسه، بين عقيدتين متناقضتين، بل بين عقائد متناقضة؟! وخذ مثلا عقيدة التوحيد، وعقيدة الشرك:

---

[٤٣]. شرح الفصوص لعبد الرحمن جامي: شرح الفص الهودي.

فكيف يكون المرء موحدا مشركا في ذات الوقت؟! هذا يدل على أن المقصود من كلام الشيخ غير ما تفهمه العقول القاصرة.

ج – أن الكلام ورد في قالب شعري، ومعلوم عند أهل العربية أن الشعر يحتمل من الشطح في المعاني ما لا يحتمله غيره من أساليب البيان. وعدول أهل الله إلى صياغة معانيهم في قوالب شعرية يكون عن ضيق في القوالب الأخرى، إذا راموا تنزيل معانٍ عُلوية من وراء العقول. وهذا الكلام المنزل في القالب الشعري لا يُخاطبون به عامة الناس، بل هو خطاب خاص لأناس مخصوصين، وقع فيما بعد بين أيدي العامة فاتخذوه مطية لسوء ظنهم وجهلهم. وانظر مثلا إذا كان أحد الملوك يراسل وزيرا له برسالة "مشفرة"، قد تواضعا على معانٍ خاصة فيها. فمثلا: إذا كان المُلك يُرمز إليه فيما بينهما بـ "الدار" والقصر بـ"الخزانة" ومجلس الأنس بـ"الفاكهة"؛ وكتب الملك بعد ذلك رسالة للوزير يقول له فيها: ضع الفاكهة في خزانة الدار بعد العشاء. ثم سقطت الرسالة في يد خادم من خدام القصر، فهل تراه يفهم المعنى الحقيقي الذي يقصده الملك؟ وإذا هوأخذ الألفاظ على ظاهرها، فما أبعده عن فهم المراد من الرسالة!

فلا يقذف المرء بنفسه في مجاهيل لا يعلم عاقبتها. والعاقل ينظر لنفسه.

وخوفنا، أن يتناول متصوفة آخر الزمان، فارغو الباطن، من لم يتأدبوا على يد شيخ رباني، مثل هذا الكلام –وما أكثره– على ظاهره المنكر، فيَضلون ويُضلون؛ ويكونون هم أيضا من مظاهر التشوه التديّني لدى الأمة، فيزيدونها رهقا.

٢. جعل التصوف تنظيما بشريا:

نعني به هيكلا عالميا، كما جعلت منه بعض الدول العربية هيكلا محليا؛ حتى إن إحداها يُنصّب فيها شيخ المشايخ من قِبل رئيس الدولة، كما يُنصّب أحد الوزراء. فمثل هذا النوع من

التصوف الأجوف، سيكون مجمعا للنفوس السقيمة، تلتقي على الأهواء والأغراض. وهذا يُضر بالأمة أشد الضرر، لأنه يقطعها في غالبيتها عن التصوف الحق بما تشهده من صورة باطلة.

فالتصوف الصحيح، بالنسبة إلى الأمة كالمستشفى التخصصي الذي يظل مفتوحا على مدار الساعة، حتى يكون في عون العباد إن احتاجوا العون؛ فإن هو استُحدث في مقابله مكان آخر تُعلق عليه اللافتة زورا، فإنه يصير صارفا للناس عن الأول النافع؛ وبالتالي سيكون مضرا بهم، سواء أعلموا وجه الضرر أم لم يعلموا.

وإذا صار التصوف تنظيما بشريا (غير رباني)، فإنه يُخاف على أصحابه أن يكونوا معول هدم في أيدي الأمم المستكبرة؛ تعمل به في الأمة ما لا تتمكن من عمله بالطرق المباشرة. ونحن لا نرضى لمسلم، أن يكون عاملا ضد أمته؛ ونشفق على جميع المسلمين أن تكون الأمة خصم أحدهم يوم القيامة! فإنه موقف يتمنى المرء معه لو كان مداسا تطأه الأقدام في الدنيا ولا يكون له رأي معتبر في الناس. وفي الخلاصة، فإن التصوف الحق لا يُمكن أن يكون رسميّا أبدا!

٣. جعل التصوف في مواجهة باقي الفرق والمذاهب الإسلامية:

التصوف في أصله، تكميل للتدين لدى المسلمين، كما وضحنا ذلك في كتابنا "الكمال والتكميل" ضمن "مراتب العقل والدين". فإذا وضع في مواجهة فرقة إسلامية أو مذهب، فإنه يكون بمثابة الكل الذي يعادي بعضه. وهذا لا يكون إلا مما يمكن أن يُتوقع منه "تدمير ذاتي"، أو ممن يكون أحمق فاقدا لأدنى درجة من العقل.

ثم إنه بجعل التصوف في مواجهة بعض المسلمين (وإن كان مزورا)، سيتسبب الجاعل بقيام أولئك المسلمين بمعاداته وشن الحرب عليه. وإن هم وقعوا في هذا، فسيكونون قد حُجبوا حجابا تاما عما فيه خيرهم وخير الأمة جمعاء. وسواء أكان المتضرر هذا الفريق من الأمة أو ذاك، فإن الضرر عائد في النهاية على الأمة. والصوفية الأحقاق ما كانوا ليرضوا ذلك لأمة سيدهم صلى الله عليه وآله وسلم. ووالله لو خيَّرهم الله بين ذلك، أو أن يكونوا هم الفداء، لاختاروا أن يكونوا فداء للأمة، إكراما لها ومحبة في رسولها صلى الله عليه وآله وسلم! فإذا كان الأمر على هذا، فإياك أن تظن أنهم يحتقرون أحد المسلمين، أو يفرحون بمُصابه! إنما هم أحيانا يُغلظون القول لبعض الناس شفقة عليهم أن يستجلبوا لأنفسهم ما لا يطيقون من البلاء. فالقول الغليظ يكون من أجل إحداث الصدمة المنبهة فحسب؛ وإلا فما لهم ولغيرهم من الناس، وهم من اعتادوا الاشتغال بخاصة نفوسهم.

الفصل السادس

عولمة التصوف

إن الذين فهموا منطق العولمة وعلموا شروطها ونتائجها، سبقونا إلى محاولة جعلها تصب عندهم، بالخيرات الاقتصادية والسياسية أولا. فما لهم نظر من منطلق كفرهم إلى غير ذلك. لكن الله رب الكون ومليكه، يضع الأمر حيث يشاء. فكما أنزل القرآن على أمة ما كانت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فهو قادر سبحانه أن يجعل العولمة خادمة للإسلام.

ونحن المسلمين، ما ينبغي لنا أن نتطلع إلى سيادة على العالم، كما يتطلع غيرنا؛ بل يجب أن نكون خدما للإنسانية نُسهل عليها معرفة الحق. ندلها على عبادة ربنا وربها؛ لا نريد على ذلك جزاء من أحد ولا شكورا.

فرحنا يكون بعودة واحد من الناس إلى ربه إن عاد. ثم بعد ذلك ندله على سعة الإسلام التي أصبحت مجهولة عند المسلمين أنفسهم اليوم. سعة الإسلام التي تفتح أمام الإنسان أبواب الترقي إلى الإطلاق.

إن الذين يجعلون من الإنسان محور العالم، ويزعمون أنهم يعملون من أجل رفعته بكل الوسائل، لا يستطيعون الخروج به من سجن نفسه الضيق؛ ولا يتمكنون من جعله يخرج من حصر العالم له؛ بل لا يعلمون أن هذا في حكم المتاح له. فيزيدونه ضيقا وحرجا، من حيث ما هم يبغون التوسعة عليه، أو يزعمون أنهم يبغون.

والتصوف من حيث ما هو تحقيق للإسلام وجامع لجميع وجوهه، هو أوفق نظام تربوي يضع أمام الإنسان وسائل ترقيه إلى أعلى درجات إنسانيته.

ومن البدهي أن يتخطى التصوف من أجل تحقيق هذه الغاية السامية، كل الحواجز المذهبية والفكرية التي أصبحت مقيِّدة للإنسان ومانعة له عن تحقيق حريته بالمعنى الصحيح.

لا بد للدعوة الصوفية الربانية أن تخاطب المسلمين والمنتسبين إلى التصوف أولا، حتى يمكن أن نصحح المناهج على نور من الوحي وأن نرشّد الجهود؛ ثم بعد ذلك نتوجه إلى العالم، وندله على الطريق من غير عصبية؛ إذ نحن في غنى عنها. أما أهل الكتاب -كما مر- فعلينا أن ندعوهم إلى تصحيح علاقتهم بأنبيائهم عليهم السلام، من خلال الشرع المحمدي؛ وذلك لا يتأتى إلا إن علموا أن الدين عند الله واحد.

فالعولمة يجب أن نعلم أنها بيئة ملائمة لتحقيق التوحيد والوحدة على قدر ما يتيسر. فالتوحيد لله، والوحدة للإنسانية! فما من عائق دون ذلك إلا تصحيح المفاهيم وتقويم الإدراك.

وإذا كانت الأمم المستكبرة تبغي عولمة مادية، تُفاقم من أمراض الإنسانية، وتوسع انتشار أسبابها جسمية وقلبية؛ فلا بد لنا نحن أن ندل على باب الخلاص الحقيقي، الذي يسعد به الإنسان في دنياه وآخرته.

نريد أن ننبه من وراء هذا، إلى عدم الدخول في الصراعات السياسية الضيقة مع أيٍّ كان؛ لأنها ستشغلنا عن الأهم، وتنزل بنا في الخطاب. هذا لا يعني أن نبقى عُرضة لتلاعب السياسيين بنا؛ بل علينا أن نُحقق مَنَعة سياسية، تحول دون ذلك. وهو ما يعني أيضا، أن نفوز بالأمن السياسي دون بذل جهد جانبي.

الناس غالبا ينظرون إلى الدعوات على اختلافها، بريبة شديدة؛ لأنهم يظنون أنه سيُحال بينهم وبين دنياهم (نخص طيبها)؛ أو سيُستولى عليها بعد استخلاصها منهم بالحيل والمراوغات. وهم صادقون في هذه الرؤية بخصوص جل الدعوات. لكن الدعوة الربانية عليها أن تظهر زهدها فيما في أيدي الناس (فرادى وجماعات) بالقول والعمل؛ وإلا اندرجت الدعوة ضمن سابقاتها في خانة العادات. وقد قال الله تعالى على لسان سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ هود: ٨٨.

عولمة التصوف، لا تعني أن تكون الطريقة أو الطرائق تنظيمات عابرة للدول، مهددة للسياسات المحلية أو الإقليمية أو العالمية؛ بل على العكس من ذلك، عليها أن تكون عاملا من عوامل الاستقرار والأمن بجميع المعاني؛ صدقا لا كذبا ونفاقا. فإننا كثيرا ما نسمع هذه الكلمات شعارات يلوكها الساسة إخوان الشياطين، والواقع يكون بعكس ذلك على التمام.

الصدق في الخطاب مع الفرد والجماعة، مع الخاص والعام، مع البر والفاجر، هو أساس الدعوة الربانية. فمن حاد عنه، فقد خرج عن سواء السبيل.

ثم بعد ذلك، لا ينبغي أن نستعجل القِطاف، فإنه من هوى النفس؛ وكفى للعاقل نسبةُ الخدمة لسيده.

الفصل السابع

الغاية

إذا علم الإنسان فردا أو جماعة الغاية من وجوده، سهل عليه أمر اتخاذ السبيل إليها. وإن كانت الغاية المعلومة لكل عبد مسلم (عرف ذلك أم لم يعرفه) هي عبادة الله؛ فإن العبادة تكون على قدر معرفة العبد بربه: فمن عبادة صورية إلى عبادة حقيقية.

وقد دل الله عباده على تحقيق العبادة في عدة مواضع من كتابه العزيز، من أبرزها قوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ الأنعام: ١٦٢: "قل" يا عبد الله المتحقق بعبوديته، "إن صلاتي" صلتي الشاملة، التي منها صلتي من وراء ترسمي بعبادتي، والتي تخرج عنها إلى حيّز عادتي؛ "ونسكي" شعائري التي ألزمت بها من قِبل شريعتي. وهذا يجمع كل أفعال العبد وأحواله، ما صغر منها وما كبر. "ومحياي" الذي هو وجودي جوهرا وعرضا، ومماتي الذي هو فنائي إيمانا وذوقا، "لله رب العالمين" لله لا لي،من حيث ما أنا أنا، رب العالمين كما هو ربي. ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ الأنعام: ١٦٣: "لا شريك له" من نفسي أو من غيري من الخلق في الحقيقة. "وبذلك أمرت" الأمر منك بذلك، والإذن منك ، لا باختياري وتقديري. "وأنا أول المسلمين" أدعو الناس إلى ما ذقته في نفسي من عبوديتي لك؛ فإن الداعيَ إذا دعا من غير أن يكون أول من يتحقق بدعوته، فدعوته وهمية.

نستخلص من هذه الآيات الكريمة أن:

— كل شيء منا هو لله لا لنا، بعكس ما يظن الغافلون؛ فنحن مخلوقون لله لا لأنفسنا حتى تصير أهواؤنا قائدنا في الطريق.

— وتبعا لذلك، فإن كل ما يتعلق بتفاصيل حياتنا هو لله، بعكس ما يظن الجاهلون. فيظن من لا علم له أن العبادة الرسمية (الشعائر) هي وحدها ما يكون لله، وغيرها مما يدخل في العادات أو المخالفات فهو لغيره سبحانه. والحق أن كل شيء من العبد هو لله بعين الحقيقة، وإن ردته الشريعة التي هي من الحقيقة نفسها.

— أن الشريك لا وجود له؛ بعكس ما تظن العامة، من أنه موجود لكن ينبغي أن يُجرّد من الصفة. من هنا نقول: إن الرباني حتى لو أراد أن يُشرك، فلن يتمكن من ذلك!

— أن الأعمال التي لا تكون عن أمر إلهي، لا بركة فيها وليست من العبودية المحض. فإن قلت فالأعمال التي ذكرت أنها منسوبة إلى الله خارج العبادات المشروعة، فهي عن غير أمر! قلنا: أنت لم تفهم عنا في القولين: ذلك أن كلامنا السابق كان فيما هو من الله إلى العبد؛ وكلامنا الآن هو فيما هو من العبد إلى الله. وبينهما فرق إن كنت ممن يميز. ثم إن الأعمال التي تبدو أنها خارج العبادات المعلومة، على العبد المحقق أن يدخل فيها بنية العبادة لا بنية العادة؛ حتى تلحق بها في المرتبة.

— أن الإمام سواء أكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أم خليفة من خلفائه، هو يدعو إلى ما هو متحقق به في نفسه من الإسلام. والإسلام هو الانقياد الذي يكون بعد فناء النفس، بحيث يكون تلقائيا وتاما؛ أما الإسلام العام، فهو إشارة إلى هذا الإسلام الخاص وباب له فحسب.

نخلص إلى أن الأمر يدور على تحقيق العبودية في النفس، عند الإمام بالفعل، وعند المأموم بالنية. فالطريق الربانية، لا بد أن تكون ثمرتها عبودية؛ فمن وجد علامة ذلك فليواصل مسيره؛ ومن وجد غيره، فليعدل عنها إلى غيرها. فإن الله قد جعل لكل شيء علامة، حتى تقوم الحجة على كل عبد في كل أمر. ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾الأنعام: ١٤٩.

الباب الخامس

التصوف والمخالف

الفصل الأول

في غياب الدولة الإسلامية

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:« لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإسلام، عُرْوَةً عُرْوَةً، فكلما انتقضت عُرْوَةٌ، تشبث الناس بالتي تليها، وأولُهن نقضا الحكمُ، وآخرُهن الصلاة»[44]. هذا الحديث يدل على أن الإسلام بقي من غير دولة منذ القرون الأولى. وهذا الوضع سيجعل المسلمين يعيشون حالة استثنائية، يصعب التوفيق فيها بين بعض الأحكام الشرعية، والواقع المَعيش؛ مما سيؤدي مع مرور الأيام إلى ظهور اجتهادات مختلفة، تبلغ أحيانا درجة الشذوذ. وبلغت في العصور المتأخرة أن أخذ بعض الأفراد أو الجماعات على عاتقهم القيام بمهام السلطان الشرعي في الدولة الإسلامية. أرادوا باجتهاداتهم سد الفراغ الذي تركه انتقاض عروة الحكم.

---

[44] . أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

والأغلاط التي ظهرت في الأمة من حيث هذا الجانب علما وعملا، نراها ترجع إلى سببين:

١. عدم توضيح أحكام الحكم لعموم المسلمين، بما يليق بقيمتها التشريعية منذ القرون الأولى، بسبب الملك العاض الذي حل سريعا محل الخلافة الشرعية.

٢. عدم إبراز الأحكام الشرعية في حال انتقاض الحكم الشرعي، بما يوضح ما على الفرد والجماعة من حقوق وواجبات. فلا شك أن العمل ضمن هذا الوضع، يختلف كثيرا عن الوضع الأصلي. وهذا تقصير من الفقهاء كبير. والفقه الذي نسميه "فقه الاستثناء" لا يقل قيمة عن الفقه الأصلي الذي تكون فيه البيئة السياسية والاجتماعية على أصلها.

لا شك أن غياب هذا النوع من الفقه ترك فراغا تشريعيا من حيث التفريع والإلحاق، أدى هو الآخر إلى ارتباك لدى المسلمين في تبيّن أحكام المعاملة لحكامهم على مر العصور، وأدى إلى بروز افتراق بين الأحكام الشرعية الأصلية وما يستدعيه الواقع. صارت الهوة بينهما تتسع مع البعد عن الأصل الأول (النموذج) رويدا رويدا؛ حتى بلغت ازدواجية مضرة بالتدين العام للمسلمين فيما بعد.

ومع انتقاض عرى أخرى من عرى الدين، وصلنا إلى تدين علمي (نظري)، عمل الفقهاء على حفظه في صورة ماضوية متوقفة، وتدين عملي، لم يبق فيه من الأحكام الأصلية إلا صور باهتة من الشعائر، مقطوعة عن المحيط الذي صار يتحرر شيئا فشيئا من قيود الأحكام؛ بلغ في مرحلة ما بعد الاستعمار إلى حد العلمانية الصريحة أو غير المُعلنة.

هذه الحال ستورث الأمة ضعفا كبيرا في التدين، سينتج عنها نتيجتان على طرفي النقيض:

الأولى: ظهر في الأمة انحلال عقدي وخلقي لم يسبق لهما مثيل. فمن حيث العقيدة، فقد وصل الأمر إلى ارتداد كثير من المسلمين عن دينهم. ومن حيث الأخلاق، فقد بلغ الأمر أن

صارت المجاهرة بأنكر المنكرات حقا من حقوق الأفراد والجماعات؛ على تفاوت بين الدول المسلمة القطرية في ذلك.[٤٥]

الثانية: ظهر لدى بعض المسلمين تدين يرمي إلى تعويض النقص عند الفريق الآخر، فصاروا إلى الغلو الذي بلغ مداه مع اعتماد العنف أسلوبا في العمل.

ومع تعرض الأمة في عمومها إلى الغزو الأجنبي إبان الاستعمار؛ ومع احتلال فلسطين من قِبل اليهود الصهاينة؛ ومع احتلال بعض الأقاليم الأخرى فيما بعد، وبلوغ صور الإهانة والإذلال مشارق الأرض ومغاربها؛ ازدادت نقمة المتدينين عموما والغالين منهم خصوصا على الأعداء؛ أدت إلى بروز تنظيمات مستقلة بفقهها ولا تقبل الاحتكام إلى أحد من علماء الأمة بعد أن فقدت الثقة في جميعهم.

مع كل هذا، صار التدين همّا ثقيلا على المسلم. فبمجرد أن "يلتزم"، يصير مطالبا من حيث الواقع بأن يُصبح من جنود الأمة المدافعين عنها، وقد بلغت أحط مكانة في العالم بين الأمم؛ وهو لا طاقة له بذلك.

ويزيده حيرة إلى ما هو فيه، إحجام العلماء عن الكلام فيما يهم الأمة وكأنهم على كوكب آخر. فانفتحت الأبواب على كل الاحتمالات التي ستصبح على عمومها في صالح الأعداء الخارجيين؛ وسيستعملونها في إحكام القبضة العسكرية أو -على الأقل- الاقتصادية على بلاد المسلمين؛ مما سيزيد المسلمين ضعفا على ضعف، يدخلون معه حالة تكاد تكون معضلة من الجانب العلمي.

---

[٤٥] . نفرق بين الدولة الإسلامية المنسوبة إلى الإسلام، والدولة المسلمة القطرية التي أغلب أهلها مسلمون.

فالفتاوى متضاربة إلى حد مذهل، والسياسة هي أصح المذاهب عملا، والفساد بكل أنواعه ينخر في المجتمع والأسرة؛ والحلول الفردية أو الجماعية اعتباطية تحكمها النزوات والأهواء. والغضب المتزايد، يتدرج عبر مظاهر متعددة؛ من انتحار سريع أو بطيء، إلى أن تبلغ فوضى على جميع الواجهات؛ لا يمكن أن تبقى معها آدمية الإنسان حتى في حدها الأدنى.

الفصل الثاني

استدراكات فقهية

أدى القصور الفقهي لوجوه الواقع المتعددة، والفراغاتُ التشريعية التفصيلية التي كان ينبغي أن تُسد، إلى أغلاط كانت من شروط الفتنة ومقوياتها. من هذه الأغلاط :

١. قياس الحاكم القطري على الخليفة: إذا كان الحاكم في الدولة الإسلامية، لا يكون خليفة إلا بشروط، فكيف يكون الحاكم القطري؟! وقياس حكم وجوب طاعة الخليفة على طاعة أي حاكم، هو من تحريف الكلِم عن مواضعه. فعندما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:«اسمعوا وأطيعوا، وإن استُعمل حبشيّ كأن رأسه زبيبة!»[٤٦]، فإنما يعني السمع والطاعة لا على الإطلاق؛ وإنما يعني السمع والطاعة التي قد تحول دونها صفات مستقبحة عُرفا أو عن هوى. كأن يكون دميما، أو غير ذلك من المستقبحات الطبيعية لا الشرعية. أما المحرمات الشرعية، فلا طاعة فيها بتاتا؛ وإلا صار الشرع يدعو إلى النقيضين. وهذا لا يصح. وقد جاء عن علي عليه السلام، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:« لا طاعةَ لمخلوق في معصية الله عز وجل»[٤٧].

وتحريف معاني الأحكام المتعلقة بالخلافة والإمارة عموما، فتح الباب أمام الاستبداد وأضفى عليه الشرعية زورا. وهو ما أدى إلى الخروج عن الطريق جزئيا عن "أمر شرعي"

[٤٦] . أخرجه البخاري عن أنس رضي الله عنه.

[٤٧] . أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

موهوم. وهذا ما لا يقبله عقل! ومنذ ذلك الحين، صارت الأمة ملزمة أن تعيش مع المتناقضات؛ إلى أن وصل الأمر إلى ما يشبه الحمق الجماعي في زماننا.

٢. رِضى الفقهاء بالانفصال عن الواقع: لما استفحل الاستبداد، مُنع الفقهاء من الكلام في الشأن العام، وانحصر كلامهم في فقه العبادات، والجزء المتبقي من المعاملات (المعاملات الخاصة). بل إن منهم من كان له ولاء سياسي سخّر له فقهه؛ فكان وبالا على الأمة. مع كل هذا صار الدين شيئا فشيئا يُفصل عن الواقع. وعرفت الأمة التعددية في الآراء التي كانت ولا زالت من عوامل الضعف. والآراء التي نعنيها هنا، ليست ما يتعلق بالاجتهاد المشروع المنبثق عن الشورى المشروعة؛ وإنما هي الاختلاف في الأصول المنهي عنه.

٣. غياب النور عند الفقهاء: لما لم يعمل الفقهاء بعلمهم، أو سكتوا عن الاختلالات الواقعة في الأمة، حُرموا النور؛ وصار فقههم أجوف لا بركة فيه. ثم ازداد الفقه شططا لما اعتمد الفكر وحده، حتى صار إيديولوجيات فقهية، رسّخت تمزق الأمة.

فإن قلت: إن الفقه هو تبيّن الأحكام الشرعية بحسب الواقع، فكيف يكون الفقه (الإدراك) في الدين ضمن هذا الواقع الجديد، الذي صار الفقه نفسه فيه محرفا؟

قلنا: صحيح ما تقول! وأول شيء نبدأ به في تحصيل الفقه (بالمعنى اللغوي/الشرعي) هو التمييز بين الفقه الرسمي، والفقه الحقيقي. وحيث أن الفقه الرسمي أصابه ما أصابه، فإن الفقه الحقيقي لا بد أن يتصدى للعلاقة بين الوضع الأصلي والوضع الواقع (المحرف). وهذه العلاقة لها مناطان هما:

— الأمر.

— الإرادة.[٤٨]

فالله الذي أمر باتباع أحكام الشرع في النوازل، هو عينه الذي قدر على الأمة أن تنحرف في عمومها عن سواء السبيل. هذا الوضع يقتضي فقها استثنائيا، أول أصوله عدم الائتمام بالفقهاء الرسميين؛ حتى لا تتوسع دائرة الانحراف، بما أنهم أصبحوا من عوامله. غير أن ما حدث كان العكس! فقد وجد أهل الأهواء ضالتهم عند فقهاء يزيّنون لهم ما هم عليه مقابل جاه أو مال؛ فصار الأمر أشد خطورة من الانحراف الأول.

فلزم أن يسعى المرء إلى تبيّن طريقه وسط هذا "الضباب الفقهي" والألغام المتنوعة. ولا شك أن هذه الغاية، غير ميسرة لكل أحد. فحتى الصادقين من الفقهاء رضي الله عنهم، ما عادوا مؤهلين للخروج بالناس من هذه الفتن العظيمة، بسبب عدم وضوح النسق العام لهم؛ الذي هو أيضا كان من نتائج التفقه المجتزإ. لن يستطيعوا ذلك حتى وإن مُكِّنوا من العمل جماعيا ضمن مؤسسات مستقلة عن أي تأثير خارجي؛ فكيف وهم أفراد مغمورون، يُمنع على أحدهم أن يلتقي في بيته بمن يشاء من الناس. نقول هذا، حتى تعلم مقدار صعوبة الأمر؛ وحتى لا ترجوَ من الفقهاء أكثر مما يستطيعون.

صار لزاما، أن يسعى المرء إلى التفقه الذي يُشبه تفقه الصحابة رضي الله عنهم. ونعني به التفقه الضمني المندرج في التزكية الشرعية. فليس المراد بالدرجة الأولى من الفقه تبيّن الأحكام اليوم. هذا لا ينفع! والواقع يُثبت لنا أن الأحكام الجلية غير معمول بها، فكيف نستمر على نفس النهج! صار التفقه المطلوب حاليا، إصلاح العلاقة بالله، وتقوية الإيمان

[٤٨] . راجع الأمر والإرادة في كتاب "كشف الحجب الإدراكية".

حتى يصير يقينا؛ بحيث يكون للمرء المسلم بذلك أساس تنزل عليه مختلف الأحكام الشرعية. يحملها بقوةٍ حملَ أداء، يجعله يتقدم في طريقه إلى ربه.

صار الكلام في الأحكام الشرعية اليوم مع الإكثار منه في أجهزة الإعلام، نوعا من العبث. وجل الناس يعلم أنه لا القائل ولا السامع يكترثان للعمل بتلك الأحكام. صار الأمر نفاقا واضحا، يرتاح له أصحابه، طالما هم غافلون عن معاملة الله. المهم أن لا يُكشف أمر كل واحد أمام صاحبه! وحتى إذا كُشف، فإن منطق العصر صار هو التجاوز عن كل زلة مهما كبرت، ما لم يكن صاحبها مستهدفا من قبل أجهزة تريد التخلص منه؛ وإلا فالتأويلات بابها واسع؛ والفتاوى على مقاس الطلب؛ والحياء الذي يجعل المرء يُحجم عن الظهور بين الناس غائب. فأي فقه يمكن أن يُحصله المرء في هذا المناخ؟!

الفقه الذي ندعو إليه، والذي صار الملجأ الأوحد الآن، هو فقه فردي. يبدأ أولا بنية العبد في تحقيق عبوديته لربه؛ لا في اكتساب الألقاب والدرجات التي تمكنه من الولوج إلى الدنيا من بابه. هو فقه ينشأ بمعاملة العبد ربَّه، كل يوم، كل حين. لا يغفل، ولا يلتفت. يعيش الخطوات فيه واحدة تلو الأخرى. يعلم منها بالوجدان ما كان صوابا وما لم يكن. هو فقه يميّز معه السائر في الطريق من معاملة ربه له، مدى قربه وبعده؛ فيصير السير يسيرا، والطريق واضح المعالم؛ خصوصا وأن آثار أقدام الصحابة وأئمة الهدى لازالت بادية أمام المقتفين.

الفقه الذي لا يربط آخر الأمة بأولها ليس فقها. والربط الذي لا يكون علميا وعمليا ووجدانيا، ليس ربطا. وقد كان الإمام مالك رضي الله عنه يروي عن وهب بن كيسان، أنه كان لا يقوم أبدا حتى يقول لهم: " لا يُصلح آخرَ هذه الأمة إلا ما أصلح أولَها"[٤٩].

---

[٤٩] . مسند الموطإ للجوهري.

فلا يتوهم أحد أن فقه الاستثناء الذي ندل عليه هو فقه مخالف لفقه الصحابة رضي الله عنهم، أو لفقه الأئمة الأولين؛ بل هو نفسه الذي كانوا عليه؛ لكن مع تغير الصورة التي يظهر بها في الزمان. أردنا أن ندل على روحه التي غابت عن أكثر المتشبثين بها. فهذا مما يرجع إلى جدلية الصورة/الروح. فإن فهمت عنا، فما أخذناك إلا مما يحجبك عن روح ما هو عندك، لا غير.

وهذا عينه –لو تتبعته– لوجدته الفارق بين الفقه الأصلي في التشريع النبوي، والفقه المتعلق بأزمنة الفتنة؛ وإلا كان الفقه فقهين، والدين دينين. وهذا لا يكون أبدا. فاعلم –يرحمك الله– ما نذكّرك به هنا، فإنه من لب الفقه في الدين.

الفصل الثالث

معالم فقه الاستثناء

إن أمتنا الإسلامية لها مكانة عند الله لا تدانيها فيها أمة من الأمم. لا نقول هذا عصبية للقوم كما قد يُظن؛ وإنما كان ذلك بسبب نِسبتها إلى أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وآله وسلم. به نالت الأمة هذه المكانة لا بنفسها. ولو أنها علمت حقيقة الفضل الذي نالها من محض المنة، لأقامت لذلك الأفراح إلى قيام الساعة؛ فإذا قامت الساعة ما جزعت ولا حزنت؛ ولكن الله حجب عمومها عن إدراك ذلك، حكمة من لدنه سبحانه.

وقد جاء عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:« أمتي هذه أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة. عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل»[٥٠]. فلا ينبغي للمؤمن أن يكره الفتن، من أجل وجه الخير العام الذي فيها؛ لكن عليه أن يسعى في الفرار منها أو اتقائها. وليس بين الأمرين تعارض كما قد يُتوهم.

ولا يشك أحد اليوم أننا في خضم الفتن المتلونة، التي لن ينفع فيها الإدراك البسيط للأحكام الفقهية في أصلها، بسبب التداخل والتشعب اللذين صارا لزاما لها. ومع هذا كله ينبغي للمؤمن أن يميّز بعض المعالم التي تسهّل عليه تبين الأحكام وتتبعها -بقدر ما يستطيع- حتى يظفر بالحكم الأصلي أو يقترب منه. ومن هذه المعالم:

١. تراجع الأمة في عمومها عن الحق، وأثره في الأحكام:

---

٥٠ . أخرجه أبو داود في سننه.

فقد جاء في الحديث:« أنا على الحوض أنتظر من يرد عليّ، فيؤخذ بناس من دوني؛ فأقول: أمتي! فيقال: لا تدري، مشوا على القهقرى»[٥١]. يدل الحديث على أن الأمة لن تبقى على النهج الأول المبيّن من قِبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومن قِبل الخلفاء؛ وإنما ستتراجع عنه. ولا شك أن ذلك سيكون إلى الضلالات التي سترد إليها من الأمم الأخرى، أو من الفلسفات التي تخلط عليها الدين بالفكر. ومن عجيب الأمر أنك تجد الأمة كلها الآن تعلم أنها في عمومها قد بدلت كثيرا، ومع ذلك من حيث التفاصيل، تجدها من كونها جماعات وأفرادا، تقع فيما تظن أنه حق وهو من الانحرافات الطارئة. هذا، لتعلم أنه لا راد لقضاء الله!

ولا شك، أن هذا الوضع العام، يتطلب من الفرد المؤمن المتحري للحق، أن لا يأخذ الأمور بتساهل ويُقلد أيّاً كان من أئمة المسلمين؛ سواء من حيث العلم أو من حيث العمل.

٢. سمات ما قبل الساعة، وآثارها على العلم:

يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيما رواه أبو موسى رضي الله عنه:« إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل، ويرفع العلم، ويكثر فيها الهرج. والهرج القتل»[٥٢]: "بين يدي الساعة" ما يسبقها من الزمان كزماننا؛ "ينزل فيها الجهل" يصير الجهل فيها صفة للناس؛ "ويرفع العلم" يخرج الناس عن صفة العلم. قد يتوهم المرء عكس ذلك، إن هو نظر إلى كثرة المتعلمين في هذه الأزمنة، أو إلى ما يسمى التقدم "العلمي" التكنولوجي على الخصوص، أو إلى ما اكتُشِف من أسرار الكون؛ والحقيقة أن العلم المقصود هو معرفة الله أولا، ثم معرفة

---

[٥١]. أخرجه البخاري عن أسماء رضي الله عنها.

[٥٢]. أخرجه البخاري.

سبيله والعلم بالآخرة. فهذا هو أساس العلم، الذي إن تحقق نظرنا بعده إلى علوم الدنيا؛ وإذا لم يتحقق، فما يفيد مع الجهل به شيء. وإن نزول الجهل وارتفاع العلم الوارد بهما الحديث، لن يحدثا بطريقة بسيطة يدركها كل الناس؛ وإنما سيحدثان باختلال المعايير وتبادل المظاهر؛ فينزل الجهل بصفة العلم، ويرتفع العلم عندما يُنظر إليه على أنه جهل. وأكبر دليل على ما نقول هو اقتداء أمتنا في أمورها (العلمية زعما هنا) بالأمم الكافرة؛ حتى صارت لا تحيد عن سبيلها شبرا. فهل الكفر من العلم أم من الجهل؟! وهل العلم أصله من الإيمان أم من الكفر؟! وقد يقول قائل: أنتم تخلطون بين العلم والدين، وهذا لا يصح! فنقول: بل هذا هو الصحيح، وإنما حُجبت عما نقول لأن نظرك لا يتعدى الدنيا والمحسوسات. فاعلم هذا، ودعك من كلام الفقهاء المهزومين.

أما كثرة الهرج الواردة في الحديث، والتي هي كثرة القتل، فهي من نتائج فشوّ الجهل؛ حتى لا يكون للمشكلات من الأمور عند الناس حل إلا بالقتل. بسبب ضيق الأفق وانطماس البصائر.

وحيال هذا الوضع، على المؤمن الطالب للحق، أن لا يسير وفق التيار العام؛ لأن التيار العام في الأمة سيكون تيار الجهل. لا يغرره أن يجد في طليعته فقهاء الزمان، فإنهم أول من يَجهل ويدعو إلى جهل، إلا من رحم الله. هذا يعني أن يبحث عن أشخاص شاذين في نظر المجتمعات، يلتمس عندهم تصحيح مفاهيمه. وقد جاء عن عمر رضي الله عنه أنه خرج يوما إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فوجد معاذ بن جبل رضي الله عنه قاعدا عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يبكي. فقال: ما يُبكيك؟ قال: يُبكيني حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:« اليسير من الرّياء شرك، ومَن عادى

أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة. إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يُفتقدوا؛ وإن حضروا لم يُعرفوا؛ قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراءَ مُظلمة»[٥٣]. وانظر كيف أحاط هذا الكلامُ النبوي بصفات التيار السائد من حيث العدد، وكيف دل على العلماء حقيقة الذين عِلمهم بالله. فقوله عليه الصلاة والسلام "اليسير من الرياء شرك" يدل على أن الناس في أزمنة الجهل لا يُعاملون الله بالعبادة، وإنما يعامل بعضهم بعضا؛ لأن قلوبهم غافلة. فيخرجون من دائرة التوحيد إلى دائرة الشرك بحسب قوة تلك المعاملة أو ضعفها. وإياك أن يحجبك عن هذا المعنى التواطؤ الذي تجده بين الناس على معاملة مخصوصة؛ فإن العالِم يتتبع الحقائق لا الصور.

ثم انظر كيف جمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خصال الجهل في واحدة هي بمثابة أمها كلِّها؛ وهي معاداة أولياء الله. وإياك أن تقول كما يقول الجاهلون في زماننا: إنما ولي الله كل مؤمن! فالمقصود هنا الولاية الخاصة لا العامة. ومن كان لا يعادي المؤمنين الذين هم الأولياء بالمعنى العام، فالأولى به أن لا يعادي سادتهم! فاحذر التلبيس!

ثم إن في قوله عليه وآله الصلاة والسلام: "ومن عادى أولياء الله، فقد بارز الله بالمحاربة" ما يجعلك تفهم أن الله عند الولي (عندية خاصة)، وإلا كيف تَفهم أنه بارز الله بالمحاربة؟! فهذا من حضرة الجمع. ثم انظر كيف هي صفة هؤلاء الأولياء بالمقارنة إلى التيار العام، في قوله صلى الله عليه وآله وسلم "إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء". أبرار، لأنه لا يصدر عنهم إلا الخير (بالمعنى المناسب لإدراكهم. فكم من خير عندهم، هو شر عند غيرهم)؛ أتقياء، لأنهم جعلوا ظاهرهم وقاية لباطنهم حتى لا تُعرف حقيقتهم في الدنيا؛ أدبا مع

[٥٣] . المستدرك على الصحيحين.

سيدهم. أخفياء، لأن معايير الخيرية الشائعة عند العموم لا تنطبق عليهم؛ فلا يعرفهم إلا من كان من الخواص. فكان نتيجة جهل العامة بهم، أنهم إن غابوا، لم يُفتقدوا لهوانهم عليهم؛ وإن حضروا لم يُعرف لهم فضل. فكيف يدّعي الناس علما، وهم يجهلون عباد الله حقا، مَن هم محل نظره فيهم؟! أبَعد هذا، من دليل على الارتكاس؟! ثم انظر صفتهم لتعلم قدرهم إن كنت ممن يعقل: "قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة". قلوبهم، أي بواطنهم محل العلم والنور؛ أما ظاهرهم، فلا ينضبط للناس بسبب تمكنهم في العبودية. ولا أخفى من العبد عند العامة! هذا يعني أن من أراد اقتباس النور فعليه أن يدنو منهم ويُجاوز ما يُنبئ عنه ظاهرهم في البداية. أما خروجهم من كل غبراء مظلمة، فيعني أنه لا سلطان للفتن عليهم، يخرجون منها بنور ربهم سالمين مهما بلغت في قوة ظلمتها.

ثم أجب –يرحمك الله– بعد هذا التعليم النبوي: من يصلح لإمامة الأمة في أزمنة الفتنة، ويضمن هدايتها إلى الحق؟

فالفقه بالمعنى اللغوي/الشرعي، هو من مستلزمات الولاية؛ من أراد نيل حظ منه وجب عليه الانقياد لأهلها، إن وُفق إلى معرفتهم. أما فقه الفقهاء، فاعلم أنه صورة لا روح لها إلا عند العلماء العاملين وبحسب درجة قربهم التي لا تداني درجة الأولياء. وما أقلهم في زماننا!

٣. عدم الاشتغال بالشأن العام من حيث ما هو عام:

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال:« ستكون فتنٌ، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي. من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأً فليعُذ به»[٥٤]. الفتن لها قوة حركية كالدوامة، تأخذ الناس

[٥٤] . متفق عليه.

في حركتها، بحسب مقدار الثقل الإيماني الذي لديهم. فأول ما تأخذ الخفيف؛ وكلما كان إيمان المرء أقوى، كانت درجة الاستجابة لها أقل. ودرجات الاستجابة هي المُعبَّر عنها بالسعي والمشي والقيام والقعود. والقعود كناية عن "التمكن" الذي هو صفة الأولياء الذين لا تُحركهم الفتن أبدا. وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم:"من تشرف لها تستشرفه"، يدل على أن من توجه باطنه نحو الفتنة بميل أو محبة أو هوى، أخذته بسبب قوتها؛ فلا يعود يقوى على التخلص منها. وفي هذا تحذير من التطلع الذي يكون سببه محبة الدنيا: مما هو دنيا عند العوام، ومما هو دنيا عند الخواص أيضا؛ ذلك أن العوام لا يعلمون الدقة التي تبلغها الدنيا في التغلغل في القلوب. أما قوله صلى الله عليه وآله وسلم:"من وجد فيها ملجأ فليعذ به"، فاعلم أن الملجأ هنا هو الولي، القاعد الذي لا تحرك الفتن منه شعرة. فمن لجأ إليه بالانتساب أو الاقتداء، كان في حماه بحسب درجة لجوئه. فمن كانت درجة لجوئه إليه قوية، أَمِن من تسلط الفتن عليه؛ حتى يكون كمن يعيش في زمن آخر يحفه الأمان والطمأنينة.

أما صورة القعود الوارد ذكره في الحديث، فهي عدم الاشتغال بالشؤون العامة للمسلمين، بطريقة مباشرة، أي من حيث ما هي شؤون عامة. وذلك لأن المشتغلين بها يكونون وقودا للفتن، ما لهم منها من منجى. فإذا دخلتَ معهم فيما هم فيه، فلن تكون إلا على شاكلتهم، وتذوق ما يذوقون؛ شئت أم أبيت. وإن شئت أن تعلم الصفات الغالبة عليهم، فانظرها في هذا الحديث. فعن أبي أميَّة الشَّعْبَانِيِّ، قال: أتيتُ أبا ثعلبةَ الخُشَنِيَّ، قال: قلتُ: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أيةُ آية؟ قلت:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾المائدة: ١٠٥. قال: سألتَ عنها خبيرا. سألتُ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:«بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتَ شحا مطاعا وهوى

متبَعا، ودنيا مؤثَرة، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمرا لا يدان لك به، فعليك خُوَيْصَةَ نفسك، ودع أمر العوام، فإن من ورائكم أيامَ الصبر؛ الصبر فيهن مثل قبض على الجمر. للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون بمثل عمله»[٥٥]. وإذا تتبعت أحوال أهل الزمان، فإنك ستجد حتما: الشح المطاع، والهوى المتبع، والدنيا المؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه. ومعنى الشح المطاع، هو الانقياد للشح الطبيعي، الذي هو مركوز في كل نفس؛ لكن الفرق بين المؤمن وغيره، أن المؤمن يخالفه بمقتضى الإيمان. أما من يُطيعه فلا شك أنه في أدنى درجات الإيمان. وأما الهوى المتبع، فيعني أن الناس لا يعتبرون حكم الشرع؛ فإن هم اعتبروه، اعتبروه ظاهرا فحسب؛ بحيث يكون مطية للهوى. وهذا مما يخفى على غير الناقد. والدنيا المؤْثَرة، تعني أن الناس لا يعتبرون النتائج المؤخرة، بل لا بد أن يجدوا نتيجة أعمالهم قريبا. وإعجاب كل ذي رأي برأيه، هو ما يمكن أن نسميه "المركزية النفسية"، بحيث يعتبر كل شخص ما يتعلق به خاصة، ولا يأبه لغيره.

والنصيحة النبوية، تدعو المؤمن –إن هو وجد هذه العلامات– أن يشتغل بما يخصه ويترك العامة. لكن، ينبغي أن تفهم أن ترك شؤون العامة من الطريق المباشرة التي تُعرّض المؤمن لآثار الفتن؛ لا يعني أن يكون تركا باتّا؛ وإنما هو إصلاح من طريق غير مباشرة.

فمن وجد ملجأ يلجأ إليه، فإنه سيكون داخل دائرة الأمان، وهي بمثابة البيئة السليمة وسط بيئة الفتن. فإن هي اتسعت، ستكون إصلاحا يصيب العامة بقدر اتساعها. فهذا اشتغال بشؤون العامة لكن من طريق غير مباشرة كما قلنا. نقول هذا، لأنه لا يجوز للمسلم أن ينأى بنفسه عن هموم الأمة. غير أن العمل للأمة في الأزمنة المتأخرة، لا ينفع فيه الفقه

[٥٥] . أخرجه ابن ماجة، والترمذي وأبو داود.

البسيط الأول؛ بل قد يُضر العمل به أشد الضرر! وما الهرج المذكور في الأحاديث إلا من نتائجه! وإنما يُحتاج إلى فقه مركّب دقيق، هو ما أسميناه فقه الاستثناء. لا بد فيه للمرء من أحد أمرين: إما أن يكون ذا نور، وإما أن يكون مع ذي نور.

الفصل الرابع

التصوف والمُخالِف

نعني بالتصوف هنا، الإسلام في أكمل مظهر؛ ونعني بالمخالف، مايسميه غيرنا: الآخر. ذلك لأن الآخر، يقتضي المفارقة والبعد؛ ونحن نريد أن نُبرز أن الآخر مهما بعُد فليس إلا نحن من وجه ما. وتركيزنا هو على صفة المخالفة لا على ذات الآخر.

عندما عرفنا أنه في أزمنة الاستثناء، لا بد من فقه استثنائي، يخفف من حدة تلك الفتن، ويُسهّل على الناس تبيّن الطريق إلى الله رغم الظلام؛ وعرفنا أن غالبية الناس ستكون منجرفة مع دوامات الفتن؛ فلا بد أن ننظر في العلاقة التي تكون بين دائرة الأمان، ومحيط الفتن. ذلك لأن المجتمع لا بد لمكوناته أن يؤثر بعضها في بعض. ومن نظر إلى جانب وأغفل الآخر، فما وفّى الأمر حقه من جهة العلم والعمل معا.

١. معاملة المخالف القريب:

المخالف القريب، نعني به المسلم المفتون. وهو باعتبار الشرع كالمريض. والمريض لا يُكلف ما يُكلَّفه السليم؛ وإنما يُؤخذ به على طريق التمريض، حتى يتقوى ويسترجع عافيته.

كل الناس يميزون الأمراض البدنية، ويسعون إلى الاستشفاء منها بأسرع ما يمكن؛ وذلك لأنهم يُدركون عالم المحسوسات إدراكا قويا، لا يمكنهم تجاهله. أما أمراض القلوب –والتي هي أخطر- فلا يميزها إلا قلة؛ ذلك أنها تقع في مجال المعاني من حيث الأصل وإن كانت

آثارها تخرج إلى الحس. والمرء إن هو ميّزها، فقلما يسعى إلى الاستشفاء منها؛ بسبب الغفلة وقلة العلم. فإن سعى إلى الاستشفاء، فقلما يكون مضطرا، بسبب ضعف الهِمة.

لذلك يجب على المنتسب إلى التصوف تجاه العوام:

ا – أن يبصرهم بسوء حالهم، من غير تقنيط. وأن يُبيّن لهم أن العلاج موجود، وقد دل عليه الوحي.

ب – أن يأخذ بأيديهم إلى الشيخ الرباني، الذي سيتولى تطبيبهم بما يوافق حالهم. يفعل هذا، بعد أن يكون قد دلّهم على الأصل الشرعي لهذا الأمر. وعليه أن يحذر أن يدل الناس على غير رباني؛ فإنه إذ ذاك سيتسبب في إضرارهم أكثر مما هم فيه؛ لأن الخطأ في طب القلوب، يتعدى الخطأ في طب الأبدان بما لا يُقارن!

ج – إن كانوا جميعا مع الشيخ الرباني (الملجإ)، فعليه أن يتعاون معهم على نفسه وأنفسهم، بعلم وعلى بصيرة؛ يضمنها بالرجوع إلى الشيخ في كل حال. ويتأدب معهم بآداب المريد مع إخوانه التي دل عليها أئمة الطريق في كل زمان.

فإذا فضّل المسلم عدم الاستجابة، وبقي في دائرة الفتن؛ فعليه أن يشفق عليه ويرحمه، ويعلم أن قضاء الله ماضٍ في الجميع. لكن لا بد أن يحتاط حتى لا يعينه على منكر أو إثم؛ وإن أدى ذلك إلى سوء الظن به. فإن سلامته هي رأس ماله؛ ومن فرط في سلامته وهو يرجو سلامة غيره، فهو أحمق. ولا ينس الدعاء لعامة المسلمين، ولا يحمله حالهم على إساءة الظن بهم؛ بل ينظر إليهم نظر الخادم إلى أبناء سيده. فهم أرفع منه قدرا وإن كانوا على أسوء الأحوال. وليعلم أنه لا سيد إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي لا يشقى من ينتسب إليه. وليعلم أن الله أرحم بعباده منه، وأغير على حماه منه، وأقدر على الأمر منه. فلا يدخل فيما لا

مَدخل له فيه؛ فيُعرّض نفسه لفتنة أشد مما هم فيه. فإن النفس لها مظاهر خادعة! ولقد رأينا ممن يظن أنه يتحرك عن أمر شرعي، يلبس لباس الربوبية على الناس، يتكبر ويتجبر وهو يظن أنه لله عامل؛ وإبليس يسخر منه ويمنعه أن يُبصر الحقيقة؛ فيكون العصاة من المسلمين الذين يحتقرهم، أحسن حالا منه بكثير! فاللهَ الله في نفسك! ولا تتكلم ما لم تتأدب على يد شيخ يبصرك بعيوبك!

٢. المخالف البعيد:

نعني بالمخالف البعيد، الكافر. يظن كثير من الناس أن الكافر لا يستحق منا معاملة إلا إعداد القوة والقهر الذي قد ينتهي به إلى القتل. يظن المسكين أن المجاهدين الأولين كانوا على مثل حاله! ولو رأوه، لربما وجدوا جهاده هو نفسه أوجب!

ينسى عامة المسلمين أن الكفار هم عبيد لله، لا يجوز لنا أن نعاملهم بما يُغضب سيدهم. هذا يعني أن كل معاملة لأخيك المسلم، أنت مطالب بها تجاه أخيك الكافر؛ إلا أن تشاركه حاله، أو تعينه عليها. ونعني بالحال الكفر حصرا. ولتعلم أنه لا ميزة لك عليه، فإن كنت تظن أن إيمانك بالله كان بحول منك وقوة، فأنت من حاله قريب؛ وهذا هو عينه مسمى الكفر الأصغر. فاحذر أن تنزل إلى مرتبته وأنت لا تشعر. بل عليك أن تعذره من حيث الباطن؛ وأنت تعلم أن القدر قاهر له كما هو قاهر لك. وقد جرى القضاء فيه أن يكون كافرا في علم الله. واشكر الله أن تفضل عليك بأن جعلك مؤمنا قبل أن تولد؛ واحذر الخاتمة واجعلها نصب عينيك! فقد يُسلم الكافر ويكفر المؤمن؛ والأمر غيب! ما لم يكن المرء مُكاشفا. وحتى المُكاشف، فإنه لا يدري هل يتغير حكم الله في الشيء، أم يبقى على حاله؛

فإن الله لما أطلعه على حكمه الأول، ما أطلعه إلا على حكم الوقت لا غير. فليحذر المرء أن يخرج إلى الظلمة بعد أن أبصر النور. نسأل الله العافية!

فإن تساءلت عن محل الغضب لله، والبغض في الله، من هذا كله؛ فاعلم أن الغضب لا يكون إلا إن كنت عبدا لله ينطق بلسان الشرع لا بنفسه. وإنّ كثيرا من "الدعاة" اليوم لا يميزون هذه الأمور، فلا يُبينون إلا عن جهلهم وسوء حالهم. أما البغض في الله، فلا يتعلق إلا بالحال والأفعال؛ نعني الصفات والأفعال (صفات الكافر وأفعاله). أما الذات فهي حق، إن أبغضتها أثمت من حيث لا تشعر. واعلم أن صفات الكافر وأفعاله هي من الحق أيضا، لكن على تجرّدها. ونسبة تلك الصفات إلى شخص ما، بخصوص أمر ما، هي التي تستدعي حُكم كونها باطلا. وقد ذكّرناك فيما سبق بالإيمان والكفر، وكيف يتعلقان معا بنفس المتعَلّق. وعلى كل حال، فالأمر هنا دقيق، يحتاج إلى بصيرة. أما الوجود فهو حق والصفة المناسبة له الحب. فالحب في الله والبغض فيه سبحانه، لا تتصور أنهما يتعلقان بشخصين مختلفين حتما؛ بل قد يتعلقان بنفس الشخص: فتحب منه الذات، وتبغض الصفات والأفعال إن كان كافرا؛ وتحب الذات والطاعة، وتبغض المعصية إن كان مؤمنا. هذا هو الحق.

يبقى بعد ذلك أن تسعى بالخير إلى الكافر بالصفة التي يُعيّنها لك الشرع:

ا – بأن تعرض عليه الإسلام أحسن عرض، من غير أن تنظر نفسك أرفع منه. فإن النفوس تنفر ممن يستعلي عليها بالطبع. هذا، مع كون الحقيقة تؤيد ما دللناك عليه. وقد سبق الكلام عن ذلك.

ب – بأن لا تغضب منه إن لم يقبل منك، حتى لا تتربب عليه؛ وإنما اتركه لله يحكم فيه بما شاء.

ج – بأن لا ترى لك عليه فضلا إن هو قبل منك؛ بل عليك أن تتخذه شفيعا لك إلى ربك، بسبب قرب توبته وتحقّق طهارته. أما أنت فلعل لك من الذنوب في الإسلام ما يحول بينك وبين ذلك.

د – بأن تحسن معاملته إن بقي على كفره، بما لا يجلب لك مذلة عنده أو عند قومه، ولا يؤدي بك إلى عداوة المؤمنين. فالعزة التي للمؤمنين لا ينبغي لك أن تمتهنها. والعلم هو ميزانك.

أما إن تساءلت عما يجب علينا نحو الأمم الكافرة التي تحتل بلادنا، وتهين نساءنا فضلا عن رجالنا؛ فاعلم أن الأعمال الفردية أو شبه الجماعية –وإن كانت رادعة مؤقتا– فإنها لا تؤدي إلى ما ينبغي أن يكون. والحل الحقيقي هو البدء بالعمل على توحيد الأمة والسعي إلى إكسابها القوة بجميع المعاني؛ وستجد تلك الأمم أضعف من أن تقف أمامنا أو أن تحوم حول حمانا. وهذا الذي ندلك عليه من الكَون مع الربانيين وتوسيع دائرتهم، لهو من أقوى الأسباب إلى بلوغ تلك الغاية. وعليك أن لا تنظر إلى الأمر بهواك، أو أن تتعجل القطاف قبل الزرع؛ فإنك ستُنبئ عن جهلك، ولن تحصد –في أحسن التقديرات– إلا التعب والنصب. فإن الله جعل لكل شيء سببا؛ ومن ابتغى شيئا من غير باب سببه، كان جاهلا أحمق.

فانظر –يرحمك الله– في حال نفسك وحال أمتك، واسع إلى خيرهما بما أمرك ربك، ولا تتّبع سبيل الجاهلين الذين لن يزيدوك إلا بعدا عن مرادك. واجعل حركاتك وسكناتك لله على قدر ما تستطيع، فإن ذلك هو ما ينفعك.

الفَصْلُ الخَامِسُ

الأصل المعتبر

إن العالم بجميع أجناسه يرجع إلى أصل وجودي واحد، هو المعبر عنه بالحقيقة المحمدية. وإذا عدنا إلى سورة الواقعة، فإننا سنجد الله يقسّم العباد إلى ثلاثة أصناف: المقربين السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال؛ في قوله سبحانه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ الواقعة: ١٠ – ١٢؛ ثم في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ الواقعة: ٢٧ ؛ ثم في قوله سبحانه: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ﴾ الواقعة: ٤١.

أولا ينبغي أن نسأل: المقربون هم مقربون بالنظر إلى من؟ وأصحاب اليمين، اليمين بالنسبة إلى من؟ وأصحاب الشمال، الشمال بالنسبة إلى من؟

فاعلم أن الحقيقة المحمدية لما خلقها الله على صورته، وكانت صورته حقيقة الإنسان، من جذع ورأس وأطراف وروح وقلب ونفس و...؛ جعل نسبة العالم العلوي والسفلي من هذه الصورة الأصلية كالأشعة الصادرة عن الشمس. فالعين واحدة، والأشعة متفرقة على أجزاء العالم لا تترك منه جزءا واحدا خارج تغطيتها.

وقبل أن نستمر في الكلام، نذكّرك بأن ما نقوله هنا، هو من علوم الكشف التي ذكرناها لك من قبل؛ حتى لا تُتعب نفسك إن كنت ممن اعتاد خطاب الفقهاء. فإنهم –إن حدثتهم–

يسألونك عن الدليل الشرعي عما تقول؛ ولا يعلمون أن من العلم ما هو فوق طورهم. وحتى الدليل الشرعي في مثل هذه العلوم، فإنه لا يُدرك من قِبل كل أحد رغم وجوده. وذلك أن مرتبة الدليل على الأحكام العامة، ليست كمرتبة الدليل على العلوم الكشفية. وإلى الأدلة الشرعية من الصنفين العام والخاص، كان يشير أبو سليمان الداراني رضي الله عنه لما قال: "ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة"[٥٦]. فالدليل متعلق بمستوى إدراك المُستدِل. وهذا مما يُغفله كثيرون؛ فيظنون أن الأدلة في متناول كل العقول إدراكها، مع كون الواقع يشهد بغير ذلك. فأدلة الفقيه لا يُدركها في كثير من الأحيان المقلدُ؛ فكيف بعد هذا، يُدرك الفقيه كل أدلة الصوفي؟! بأي منطق؟!

واعلم أن ما نذكره في هذا الفصل، لنا عليه دليل، لكن لا من صنف الأدلة التي يُدركها العامة من الفقهاء. وفيما يشير إلى ذلك من كلامنا، دليل على الدليل إن كنت ممن يتفطن له؛ وإلا فإننا لا نُخاطبك.

ولنعد إلى المقربين؛ فإنهم سمّوا بهذا، لأنهم أقرب إلى الله من الصنفين الآخرين من الناس الذين هم أصحاب اليمين وأصحاب الشمال. والمقربون محلهم الصدر من الصورة المحمدية.

أما أصحاب اليمين، فنسبتهم إلى يمينه صلى الله عليه وآله وسلم؛ كما أن أصحاب الشمال يُنسبون إلى شماله صلى الله عليه وآله وسلم.

فالنسبة المحمدية ثابتة لكل الناس، بل لكل الخلق. ولهذا أنزل الله عليه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الأنبياء: ١٠٧. لكن النسبة نسبتان: نسبة عامة وهي تشمل الجميع؛

---

[٥٦] . طبقات الصوفية للسلمي. ص: ٧٦.

ونسبة خاصة وهي لأمته المسلمة دون غيرها. والمريد المنتسب عليه أن يعتبر النسبتين معا. فالنسبة العامة يعتبرها باطنا؛ والنسبة الخاصة، يعتبرها باطنا وظاهرا. وليعلم أن كل معاملة له لأي صورة من صور العالم، هي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بوجه ما؛ إن لم يكن يشهد ذلك، فأقله أن يؤمن به!

من هنا تعلم أن الدين المحمدي هو الإسلام في أعلى مراتب الكمال؛ فإذا شئت أن تكون من أهله، فتجرد عن الفهم المقيَّد. ولا تكن كأولئك الذين يقولون (ظنا أنهم مُصيبون): نأخذ الكتاب والسنة بفهم الصحابة! انظر ما أجهل هذه المقولة! ألا يعلمون أن الله كما علم الصحابة رضي الله عنهم، يُعلم غيرهم؟ ألا يعلمون أن الفهم في الكتاب والسنة لا ينتهي، ولا يتقيد بزمان مخصوص أو أشخاص مخصوصين؟ تعالى الله عما يقول الظالمون!

وإن كنت علمت نسبة أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فاعلم أن المقربين لا ينتسبون إلى جهة واحدة من الصورة، فتكون معرفتهم بالحق نصفيّة؛ وإنما هم ينتسبون إلى كل الصورة، ومعرفتهم تبعا لذلك كاملة. فهم أهل القرآن (الجمع)، وأهل الله وخاصته.

ولنعد إلى الآيات التي استهللنا بها الفصل، نسائلها:

١. السابقون:

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ
مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ
﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا
يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الواقعة: ١٠ ــ ٢٦.

السبق كما يشير إليه اللفظ هو إلى الله؛ فهو سبق مكانة. والسابقون سماهم الله المقربين من القرب. والقرب هو البعد عند المحققين، لضرورة المغايرة التي يقتضيها الكلام؛ وإلا ما صح في هذا المقام كلام. لذلك كانوا في جنات النعيم. والجنات الحُجب (من جنَّ)؛ وجنات النعيم: الحجب النورانية. فكل ما هو من صفات المقربين، هو في نفسه حجب، ينبغي على العاقل التنبه إليها، وإلا ضل على علم. "ثلة من الأولين وقليل من الآخرين": باعتبار عددهم في الأمة بداية وختاما. "على سرر موضونة": على سرر مرملة مشبكة مصفوفة. هكذا في التفاسير. وهي صور مقاماتهم المتداخلة المتوحدة. "متكئين عليها متقابلين": الاتكاء صورة لتمكنهم؛ وتقابلُهم من أجل مشاهدة الحق بعضهم في بعض. فهم مرايا لحقيقة واحدة؛ وهم بالتالي وجوه من غير قفا. "يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين": تطوف عليهم أسرارهم التي تجلت في صور ولدان لا يتقدم بهم السن ولا يموتون، بسبب كونها أزلية؛ بأكواب وأباريق، إمدادا واستمدادا. فالكوب للاستمداد والإبريق للإمداد. وكأس من معين: في التفسير، كأس من خمر جارية. والخمر هي المفنية لهم عن حقائقهم الخلقية بظهور حقيقتهم الحقية؛ الجارية، التي ليس لها منتهى أبد الآبدين. "لا يصدعون عنها ولا ينزفون": أي لا يجدون لشربها ألما في رؤوسهم كالخمر الطبيعية؛ فسكرهم الذي هو فناؤهم ليس منه إخلال بالمقام. ولا ينزفون: بالكسر، لا تنقطع عنهم مادتها؛ وبالفتح، لا تذهب عقولهم بها. أي هم باقون في عين فنائهم، وليسوا مجانين؛ حتى لا يظن الجاهل أنه قد يعرف حالهم من قياسه على الخمر المعلومة لديه. "وفاكهة مما يتخيرون": يطوف عليهم الولدان –إلى جانب الحقائق المفنية– بغذاء المعارف مما يبسطهم (ومنه الفكاهة) ويلتذون بذوقه. فالعلوم عند المقربين ذوقية. "وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون" وهي صفة نفوسهم

الزكية، في صفائها ونقائها؛ التي هي باطنة في الحق، كما كانت في الدنيا، الحق باطن فيها. وذلك أن الآخرة تُعطي في نشأتها عكس ما تعطي الدنيا، ولذلك سُميت الآخرة آخرة. "جزاء بما كانوا يعملون": كانوا يعملون في الدنيا بالتقوى، وهي ستر ربوبيتهم بالعبودية؛ فجزاهم الله بأن تجلى بصورهم، فكان منهم الظاهرَ، وصاروا منه الباطن. "لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما": الظاهر أن "فيها" تعود على الجنات، والحقيقة أنها الحضرة. لايسمعون فيها لغوا، وهو الكلام الزائد الذي يُنسب إلى المخلوق. فكلامهم هنا هو بالحق لنفسه؛ لذلك لا يأثمون بقول أو سماع. فما ثم إلا الحق! "إلا قيلا سلاما سلاما": حالهم هي السلام، وهي السلامة من السوى شهودا، كما هي الحقيقة وجودا. فهذا ما يختص بالمقربين لخصه الله لك في أوجز عبارة. وإياك أن تقصُر حالهم على الآخرة المشتركة، بل إن آخرتهم في دنيا غيرهم؛ واتبع المعاني ولا تقف مع الصور. وكما أن لكل مقام مقالا، فكذلك لكل مقام رجال. فإن عسُر عليك تبيّن حال المقربين، فمرَّ إلى أصحاب اليمين.

٢. أصحاب اليمين:

يقول الله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ الواقعة: ٢٧ – ٤٠. بدأ سبحانه بذكر صفاتهم قبل الإشارة إلى أعدادهم بخلاف المقربين الذين بدأ بالإشارة إلى أعدادهم تهمما بهم وعناية. وذلك لأن المقربين ذاتيون؛ فناسب الكلام بالإشارة إلى ذواتهم مقامهم. أما أصحاب اليمين، فهم صفاتيون (نعني من حيث التعلق، لا من حيث التحقق)؛ فناسب الكلام بذكر صفاتهم

مقامهم أيضا. هذا مقتضى الحكمة! "في سدر مخضود": الإشارة إلى وجودهم ثمرة أعمالهم من غير ذوق لتعبها ونصبها. فهم كانت عندهم في الدنيا الأعمال مقرونة بها؛ فكان من جزاء الله لهم أن فصل بين الثمار والشوك. ولو لم يفعل الله لهم هذا، لكان استحضار الأعمال في الجنة يجلب العذاب بمجرد الذكر. "وطلح منضود": إشارة إلى ثمار أعمالهم، تُصف أمامهم ليفرحوا بها. "وظل ممدود": الظل هنا في مقابل الحر الذي كانوا يجدونه من المجاهدات ومخالفة مقتضيات الطبيعة والنفس. فهو تعبير عن الراحة التي يجدونها. ممدود، لا نهاية له حتى يخاف العبد انقضاء مدته. فإن الخوف عذاب؛ وهم في دار النعيم التي تقتضي أن لا خوف. "وماء مسكوب": في التفسير هو الماء الجاري في غير أخدود؛ وهي العلوم المُفاضة عليهم من غير أسباب، بخلاف طريق علمهم في الدنيا. لذلك قلنا سابقا إن آخرة أصحاب اليمين هي دنيا المقربين. ولقد أعلمناك أن علوم المقربين (الخاصة بهم) ينالونها في دنياهم من غير أسباب. "وفاكهة كثيرة": وجدوا في الجنة ما يسرهم من غير منع ولا مشقة في التناول. فصاروا أصحاب تصرف، كما كان المقربون في الدنيا. "وفرش مرفوعة": مقامات أصحاب اليمين الخاصة بهم؛ وذلك أن مقامات الجنة كلها توصف بالرفع، وإن كان بينها الرفيع والأرفع. "إنا أنشأناهن إنشاء": نفوس أصحاب اليمين، التي ليست على قدر نفوس المقربين. فالمقربون قد زكّوها، أما أصحاب اليمين، فما فعلوا؛ لذلك أنشأهن الله إنشاء جديدا. "فجعلناهن أبكارا" على الفطرة الأولى النقية الطاهرة. "عربا أترابا": من غير الجموح وعدم السلاسة التي كانت صفتها في الدنيا. إذ لو بقي ذلك عالقا بها، لكانت سببا في عذاب أصحابها، والحال أن لا عذاب. فإذا ميزت المقربين من أصحاب اليمين، فلنمر بك إلى أصحاب الشمال، عائذين لك بالله أن تكون منهم.

٣. أصحاب الشمال:

يقول الله تعالى عنهم: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ
﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟
يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ
وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن
زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ
﴿٥٦﴾ ﴾ الواقعة: ٤١ ــ ٥٦. لم يُشر الله إلى عددهم، لأنهم الكثرة الغالبة من الناس في كل زمان. "في سموم وحميم": في هواء وماء حارَّين، بعكس ما كانوا عليه في الدنيا من ترف ونعمة. "وظل من يحموم": راحتهم هي طبيعتهم الدخانية؛ والدخان ظلمة. فلا راحة لهم وقد أوكلوا إليها. وذلك لأنهم في دنياهم ما سعوا إلا في تحصيل أغراضها، فكان عذابهم من قِبل ما كانوا يُحبون. "إنهم كانوا قبل ذلك مترفين، وكانوا يصرون على الحنث العظيم": عُجلت لهم جناتهم في الدنيا، فآلوا إلى الجحيم. واستحقوا الجحيم أيضا من كونهم كانوا مشركين مصرين على الشرك مقيمين عليه. فاستحقاقهم للعذاب كان من وجهين، وإن كان أحدهما تابعا للآخر. وذلك أن المشتغل بالدنيا على التمام، ما يفعل ذلك حتى يكون مشركا. "وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون؟!" كانوا يقولون بالحال والمقال: لا حياة بعد الموت! من شدة غلبة الحس عليهم. "أو آباؤنا الأولون": يستعظمون أن يُبعث كل من سبقهم لكثرة عددهم وبُعد زمانهم. فيجيبهم الله بالفعل، لِما يرونه في الآخرة: "قل" قل هنا للتبكيت لا للاعتناء. "إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم": هذا الجواب سيرونه في الآخرة بأعينهم فيكون شديدا عليهم، أما في الدنيا فلن ينفعهم سماعه

ألفاظا. "ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم": فكما أن لكل وافد قِرى، فإن قراهم سيكون على شاكلة أعمالهم وأحوالهم، طعاما كريها مؤلما موهنا غير مقوٍّ؛ على عكس ما ينتظرون. "فمالئون منها البطون" بسبب الفقر الأصلي، فهم يتحققون بالفقر في جهنم، بخلاف المؤمنين الذين تحققوا به في الدنيا، فصاروا في الآخرة إلى الغنى. لاحظ كيف أن سلوك المؤمنين هو بعكس سلوك الكافرين. "فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم": من فقرهم أيضا، يتناولون الماء بعد طعامهم، فيكون زيادة لهم في الإيلام، ويزيدهم عطشا بعكس ما يرغبون. كل شيء عندهم بالعكس، لأنهم كانوا يرون الأمور معكوسة في دنياهم. كانوا يظنون لأنفسهم الغنى، وهم فقراء؛ وكانوا يظنون أنهم على علم بحقيقة الأمر، فظهر أنهم أجهل الجهلاء؛ وكانوا يظنون أن الدنيا دار مقامة، وهي في الحقيقة خلاء. وهكذا في كل تفاصيل أحوالهم. نسأل الله العافية لنا ولجميع المسلمين.

وإنك إن تأملت صفات الأصناف الثلاثة من الناس، لوجدت أن كل صنف ما نال إلا ما كان عليه. نال بالفعل ما كان عليه بالقوة. والله تعالى من كونه حكما عدلا، ما زاد على أن أعطى كل واحد سؤله. فعن أبي ذر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:« يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها؛ فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[٥٧]. فإياك أن تطمع فيما لم تعمل له، أو تتوقع الوصول إلى ما لم تسلك طريقه.

---

[٥٧] . من حديث أخرجه مسلم.

الفصل السادس

التصوف الحق

كنا قد عرفنا، بعض سمات التصوف المتعلقة بالجوانب المختلفة التي مررنا بها، علمية وعملية؛ غير أننا نجد أنه من الضروري التأكيد على بعض الأسس التي لا ينبغي التفريط فيها عن جهل أو عن عمد.

في البداية، لا بد أن نُقصي التصوف المعروف الشائع، الذي تقدمه وسائل الإعلام على أنه هو التصوف؛ وما هو في الحقيقة إلا هذيان من سفهاء يظنون أنهم يذكرون الله، والشياطين تتلاعب بعقولهم.

فمتى كان "ضرب الشيش" من الدين؟! ومتى كان الجهل من العلم؟! ومتى كان إخوان الشياطين من الربانيين؟!..

لا بد أن نفرق في التصوف بين الحق والباطل، إن كنا نريد أن لا نلحق بأهل الزور والبهتان. فطريقٌ أئمتها الجنيد والجيلاني والرفاعي والشاذلي، وغيرهم رضي الله عن الجميع؛ لا يليق أن تُنسب إلى الزنادقة وطلاب الدنيا والمتزلفين.

والتصوف من حيث كونه مؤسسة تربوية معنوية ربانية، فإن رئيسها المشرف عليها والممد لها مباشرة، هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فإن نزلت عن هذه المرتبة، فما هو التصوف الذي كنا نتكلم عنه؛ بل هو تصوف المتصوفة المتبركين والمتشبهين.

والمشرف الفعلي على هذه المؤسسة من حيث الصورة لا من حيث الحقيقة، هو الشيخ الرباني. يبلّغ عن رسول الله العلوم الخاصة التي خُيّر في تبليغها صلى الله عليه وآله وسلم. لذلك، وجب أن تتبع هذه المؤسسة نظاما خاصا:

١. تكون هذه المؤسسة مستقلة عن كل هيمنة دنيوية و دينية تقليدية. فهي لا تخضع إلا لله ورسوله.

٢. لا يُقصد من وراء الانخراط في التربية الصوفية الحق، دنيا؛ وأمر الآخرة فيها بالتبع، لا بالقصد الأول. فيُسلِم فيها العبد أمره لمربيه بائعا نفسه لله.

٣. لا تكون هذه المؤسسة طرفا في الخصومات الداخلية؛ أما الخصومات الخارجية (من خارج الأمة)، فهي في الصف الأول فيها باعتبارها المربية للمقربين، الساعين إلى مرضاة رب العالمين.

٤. لا تتقيد المؤسسة بمذهب فقهي معين؛ حتى لا تُقيد المريدين فيحجبوا عن الحق الذي هو خارج مذهبهم.

٥. لا تكون فيها التربية نمطية، حتى تستوعب كافة الاستعدادات عند المؤمنين، كما كان الصحابة مع سيد المرسلين، صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين.

كل هذا، حتى تبقى الطريق واضحة المعالم، تستقبل المُقبل على الحق في غير مشقة ولا عسر.

وبعد أن صار الفقهاء في عمومهم من الحُجب عن الحق وإن كانوا لا يقصدون، فإننا ندعوهم إلى أن يكونوا السباقين إلى التحقق بما علموا؛ حتى لا يُسألوا عن علمهم يوم القيامة: ماذا فعلوا فيه؟ فيمتنع عنهم الجواب ولا فرصة لديهم للتدارك!

إن الإسلام هو الدين الحق، ينبغي أن نعمل على إظهاره في صورته الأصلية الكاملة، حتى تكون دعوتنا إليه حقيقية، لا عن عصبية. والناس الذين ينظرون إلينا، علينا أن نعينهم على أن يعرفوا الحق الذي معنا، وإلا فما أدينا الأمانة، ولا بلّغنا.

التبليغ، ينبغي أن يكون على نهج رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم؛ كل رجل في مرتبته. يدل أدناهم على الأعلى، في تكامل عضوي، هو الصفة الأساس لخير أمة أخرجت للناس.

الباب السادس

التربية الصوفية

الفصل الأول

التوجّه

اعتاد الناس في التربية التي يتلقونها، إما أن لا يتبعوا قواعد ثابتة، فيكتفوا بما وجدوا عليه مجتمعهم؛ وإما أن يستقوا مبادئهم من التربية الغربية الحديثة التي تعتمد علم النفس.

ومن المعلوم أن كل تربية تستند إلى الخلفية المعرفية التي تميز مجتمعا ما؛ فتكون التربية بهذا، ذات خصوصيات معينة. وسعي كل مجتمع إلى جعل تربيته نموذجا عالميا، قد يتوافق مع إمكانات نوع التربية التي لديه، كما قد لا يتوافق؛ لأن التربية التي تكون عالمية، ينبغي أن تسع كل الفروق الاستعدادية التي للبشر. وهذا لا يكون إلا للتربية الشرعية الربانية.

ولا بد في البداية، أن نعرف أهم الفروق بين التربية الربانية، والتربية الشائعة في العالم اليوم؛ حتى نكون على بيّنة من أمرنا.

فالتربية "الحديثة" المستندة إلى علم النفس "الحديث"، من كونها تنطلق من الإنسان وإليه تعود، فإنها تسعى إلى أن تهيئ الفرد ليحتل مكانة لائقة في مجتمع تنافسي بجميع المقاييس. وهي في هذا تؤسس لتقوية "ثقته بنفسه"، حتى يستطيع تحقيق التوازن بين الفعل والانفعال لديه. هذا من حيث التنظير على الأقل، أما الواقع فيُظهر أن هذا النوع من التربية هو للنخبة فقط.

والتربية الشرعية الصوفية، وإن كانت تخالف علم النفس الغربي في تعريف النفس، إلا أنها مع ذلك تسير في عكس اتجاه التربية المعروفة اليوم.

والمجتمعات المسلمة، أصبحت في تربيتها (أو على الأقل في التوجه العام لهذه التربية)، لا تختلف عن المجتمعات الغربية إلا في درجة تحقيق غاياتها العامة. هذا يعني أن فقه التربية عند فقهائنا إما غائب، وإما منهزم أمام علم النفس الغربي.

والمسلمون، الموزعون بين توجيهات فقهية موروثة ضعيفة الأثر في المجتمع، وبين تربية "حديثة" أفلح المستعمر في تثبيتها فيه، يعيشون حالة تربوية فُصامية؛ تُنتج فردا مهزوزا مترددا، لا يصمد في وجه شيء؛ بغض النظر عن كون الشيء خيرا أم شرا.

وقبل أن نستمر في الكلام، ينبغي أن نميز النفس من حيث أصنافها التي عرفناها سابقا من سورة الواقعة في الفصول السابقة، حتى نتبيّن فعل التربية جليا، ونستطيع الحكم على كل نوع من نوعي التربية عن علم.

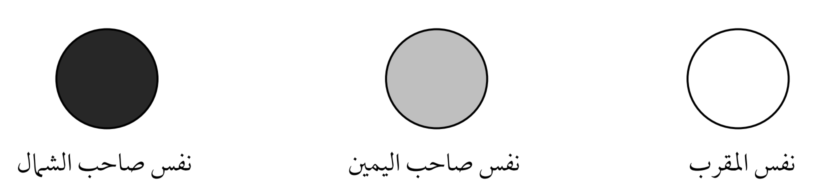
فالنفوس تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

— نفوس المقربين.

— نفوس أصحاب اليمين.

— نفوس أصحاب الشمال.

أما نفوس المقربين فهي قد تزكت واستنارت، فهي معدومة حكما؛ وأما نفوس أصحاب الشمال، فهي نفوس مظلمة لا منفذ للنور إليها إلا من حيث الباطن؛ وأما نفوس أصحاب اليمين، فهي نفوس وسطٌ بين المظلمة والمستنيرة؛ وللنور مدخل إليها من الظاهر والباطن. ومثالها كالآتي:



فالتربية الغربية ذات الأصل الكافر، ظلمانية من حيث المنطلق، ظلمانية من حيث الغاية. نعني أنها وليدة عقول مظلمة من حيث أصلها، وهي تجعل غايتها ترسيخ الظلمة للفرد، وإن بدا أنها تسير به في اتجاه الترقي. وذلك لأن الكافر (الذي لا يظهر نوره) لا يعلم من حسن الحال وسوئها إلا ما يتعلق بالمحسوسات؛ فهو قاصر من حيث الرؤية. ومعلوم أن الرؤية هي أساس كل عمل تربوي أو غير تربوي. وإلى "رؤية" الكافر، يشير قول الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ١٧١. فحُكم الله على الكافر بالعمى، هو حقيقة سواء اعتبره الناس أم لم يعتبروه. وعليه، يكون كل من يقلد الكافر في التربية، كمن يقتدي في سيره بأعمى. وله أن يتصور ما سيحدث له عاجلا أم آجلا.

أما التربية الشرعية التي لا يُبرزها إلا التصوف في أعلى مظاهرها، فهي تربية إلهية للنفس البشرية؛ بمعنى أن التربية تسير بها من الظلمة إلى النور. يقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾البقرة: ٢٥٧ . فظهر أن اتجاه التربية عند المؤمنين هو من الظلمات إلى النور. وفي المقابل فإن الله يقول عن الكافرين: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾البقرة: ٢٥٧. فظهر أن اتجاه تربية الكافرين هو عكس اتجاه تربية المؤمنين؛ فهو من النور إلى الظلمات. ولعلك تسأل أي نور للكافر حتى يكون سيره منه إلى الظلمات؟ ولِمَ لمْ يبق في نوره الأصلي حتى ينجو من حكم الظلمة؟

فالجواب هو: نعم، للكافر نور أصلي وهو نور الحق القائم به، الذي عبر عنه الشرع بنور الفطرة. وهو سمي كافرا، لكونه غطى على النور في شهوده نفسه وحدها. أما لِمَ لمْ يبق في نوره الأصلي، فيسلم؟ فذلك لأن كل شخص لا بد له من سلوك (سير)؛ فإما يكون مآله عند نهاية طريقه الجنة أو النار. فالنار لأهل الظلمة، والجنة لأهل النور. فإن قلت: فإن كان الأصل النور، فلمَ جُعل منطلق المؤمن الظلمات؟! فاعلم أن ذلك بسبب شهود المؤمن في بداية سيره ظلمة نفسه وظلمة الأكوان. فهو والكافر في مرحلة ما سواء؛ إلا أن المؤمن انتقل منها إلى النور، بينما الكافر ازداد فيها رسوخا، ومن النور الأصلي بعدا. فكأن المؤمن عاد إلى أصله، والكافر تغرّب عن وطنه. لذلك تجد القرآن الكريم يذكر الرجوع والأوبة والتوبة والإنابة، مما يفيد العودة. وهي عودة في عين التقدم في السير. فقال الله مثلا: ﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ الأعراف: ١٦٨. ثم لا تنس أن النور الأصلي المشترك بين كل أصناف الناس، سيظهر حكمه في النهاية؛ وهو ما عبر عنه الشرع بسبق الرحمة الغضب. فقد روي عن أبي هريرة رضي

الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:« لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده غلبت، أو قال: سبقت رحمتي غضبي. فهو عنده فوق العرش»[٥٨].

لهذا كله، نريد ممن يتكلم في التربية الإسلامية أن يعلم منطلقها ومنتهاها؛ وأن يدل عليه بعد ذلك سواه؛ حتى نكون ممن يعلم ما يقول، وما يدعو إليه؛ فإن من علامات فشوّ الجهل في زماننا، أنك تجد المرء يتكلم، وهو لا يعلم ما يتكلم فيه، ولا يعلم أثره على خاصة نفسه أو على الناس عموما.

وانظر، إذا كنت قد تبيّنت سمو التزكية الشرعية، كيف أن أمتنا انقلبت عندها الموازين؛ وصارت تبغي الهدى في الضلال، وتؤثر اتباع الكفرة على اتباع خير المرسلين، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

[٥٨] . متفق عليه، واللفظ للبخاري.

الفَصْلُ الثَّانِي

أنواع التربية

١. التربية الكفرية:

بما أن الكافر خارج من النور إلى الظلمة، فإنه لن يبصر إلا الظلمة؛ ونعني بها صور الأكوان العدمية. ومن حيث كون النفس الكافرة ظلاما، فإنها تُصبح كالثقب الأسود الذي في الفضاء، تمتص كل نور يعترضها، وتحيله ظلمة فيما يتعلق بها. من هنا كان الكافر لا ينفعه سماع الوحي، ونصائح المؤمنين، إلا إن أذن الله.

وتربية الكافر من هذا المنطلق، ستكون تربية عدمية؛ إي إن كل ما سيشتغل به الكافر سيكون عدما؛ حتى إذا أفنى عمره فيه وانتقل إلى الآخرة، لم يجد شيئا مما كان قد تزود به سواء من حيث العلم أو من حيث العمل. يقول الله تعالى عنهم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آل عمران: ١٧٦.

فما يراه الكافر ثابتا من المحسوسات، وما اكتشفه من علاقات بين الأشياء وقوانين (والتي منها القوانين الطبيعية الفيزيائية والكيماوية والرياضية والهندسية وغيرها، بحسب نظرته)، ستغيب عنه عندما يفارق الدنيا، فيجد نفسه مجردا من كل شيء. ويجد ما اشتغل به من أموال وبنين وكان يظن أنه يتقوى بهم، قد حيل بينه وبينهم؛ فيذوق الفقر والذل في أتم درجاتهما. فيكون هذا من العذاب النفسي الذي ينتظره.

والتربية التي نسبناها للكافر، وإن كانت تبدو له ولمن يُقلده من المؤمنين كأنها تربية، في الحقيقة هي عدم تربية. ورغم النظام الذي قد يظهر أنه يميزها في بعض الأنساق، فإنها فوضى وإهمال. هو في الدنيا لا يستطيع أن يتبيّن ذلك، لكن عندما ينتقل عن الدنيا سيكتشف هول الأمر. فهو في دنياه، كمن يسير على غير هدى وحسبها اتفق؛ وسيتحسر عندما يعلم أن سيره (والمصيبة أنه تعب فيه) لم يوصله إلى شيء؛ بل الظلمة التي انتقل منها قد وصل إليها.

يتضح من هذا أن الكافر سيره من نفسه وإليها. وهو بمثابة من يدور في محله؛ فلا هو ارتاح، ولا هو رحل.

والتربية التي أغفلها الكافر في دنياه، سيتداركها في الآخرة في جهنم. لكنه لا يكون مقبلا عليها طوعا، وإنما سيخضع لها قهرا. فهي إلى التقويم أقرب منها إلى التربية. وبهذا ينجبر خلل أهل النار بعد انقضاء الأحقاب؛ فيضع الجبار قدمه في الدار لينقلب حكمها إلى الأصل. فقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:« ما تزال جهنم تقول: ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴾ ق: ٣٠، حتى يضع الجبار، تبارك وتعالى، قدمه فيها فتقول: قَدْ قَدْ»[٥٩]؛ ومعنى قد قد (وفي رواية عند البخاري ومسلم: قط قط)، اكتفيت. والاكتفاء، فيه معنى انتهاء وظيفتها لا ذهاب عينها كما غلط في ذلك كثير ممن لاحت لهم هذه الحقيقة، فقالوا بفناء النار. فافهم عنا يرحمك الله، أو سلم تسلم.

٢. تربية أصحاب اليمين:

[٥٩]. متفق عليه واللفظ للبزار في مسنده عن أنس رضي الله عنه.

سبق أن قلنا أن لأصحاب اليمين مدخلين للنور: أولهما، الفطرة التي انطمست عند الكافر فصارت في حقه مدخلا مسدودا؛ وثانيهما، الشرع. فالمؤمن يدخل عليه النور من فطرته بحسب استعداده (وهو إيمانه)، ويدخل عليه من الأعمال الشرعية القلبية والقالبية. فقد قال الله عن أصحاب هذه المرتبة: ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾الطلاق: ١١. وإياك أن تقول: إن بعض الكافرين أيضا يعمل على شرع! فإن المقصود الشرع الذي فيه الإذن. و"لا إله إلا الله محمد رسول الله" كما هي مفتاح للجنة في الآخرة، فهي مفتاح للنور هنا. ومن لا مفتاح له، لا عبرة بعمله!

فأصحاب اليمين، وإن كانوا على خير وكانوا أهل نور، إلا أن نورهم وارد على ظلمة نفوسهم؛ لذلك مثلناهم في الرسم السابق باللون الرمادي. فنفوسهم باقية، نعني أصلها؛ وتفاوتهم يكون في الإيمان (بالغيب) والأعمال الصالحة. فكلما خلُص الإيمان، وأُخلص في الأعمال وأُكثر منها، كان النور أقوى.

والمؤمنون في هذه المرتبة جزاؤهم عند الله الجنة وما فيها من لذيذ النعم. وهم وإن كانوا من أهل السعادة ولا يقارنون بالكفار، إلا أن حالهم يأتي بين حال الكفار وأهل الله من المقربين، بسبب الحجاب. لكن مع ذلك، يكونون في مقابلة الكفار باعتبار السعادة والشقاء، والإيمان والكفر. هكذا هو الأمر.

٣. تربية المقربين (الصوفية):

إن هذه الطائفة، كان منطلقها شهود النفس كما كان منطلق الكفار وأصحاب اليمين؛ ثم آمنوا وعملوا الصالحات، فنالوا درجة السعادة المشتركة؛ وبعد ذلك اشتغلوا بمحو نفوسهم عندما علموا أصلها وكونها أجنبية عن الحق (من حيث العلم لا من حيث الحقيقة). هؤلاء لم

يقنعوا بشيء دون تمام النور، وقد خلقهم الله على استعداد يقبله. فعملوا على ذلك على مرحلتين:

ا – بقطع الإمداد عن النفس حتى تضعف، ويملكوا زمامها: وهذا بالمخالفات والمجاهدات من جهة؛ وبكثرة الذكر المأذون المُشبع بالنور، من جهة أخرى.

ب – بالتعرض لنفحات الله، ولزوم الوقوف بالباب، حتى يفني عنهم الحق نفوسهم جملة بمحض المنة والفضل. فإن التخلص من أصل النفس لا يكون جزاء أبدا. وقد ذكرنا ذلك سابقا.

واعلم أن النفس التي ذكرناها مرارا، وذكرنا لها أصلا وفروعا (أو قل جوهرا وأعراضا)، هي في الحقيقة وهم نشأ من وقوع النور على الصورة العدمية. فهي كالظل الذي يتراوح بين اللطافة والكثافة، من قليله في حق كبار أصحاب اليمين والمريدين، إلى الظلمة الساجية في حق الكافر. والوهم باطل، فهو مهما طال مكوثه، لا بد أن يأتي يوم يرتفع فيه ويزهق. ويبقى التفاضل بين الناس في أوان حصول ذلك: هل يحصل في الدنيا، كما هو الشأن عند أهل الله؟ أم يحصل في البرزخ؟ أم في الجنة؟ أم في النار؟

وبهذه النظرة الشاملة للتربية ونتائجها، يكتمل لدى المؤمن العلم بالسياق الكامل للدين؛ بعد أن كان محصورا في الأعمال والمعاملات بالقدر المشترك لدى العموم. وبهذا يصير عارفا بإطلاق الإسلام وهيمنته على سائر الأديان، إجمالا وتفصيلا؛ وهو ما يؤهله إلى تقديمه إلى الغير من إخوانه في الدين، أو إخوانه في الإنسانية، بما يضمن معه الإيفاء ببعض قدرٍ من تعظيم؛ ويعلم الكمال المنسوب إلى الدين في الكتاب الكريم، ويعلم لِمَ ارتضاه الله لعباده دون سائر الشرائع، وأن ذلك كله من أجل كرامة الإنسان لا تحجيرا اعتباطيا عليه.

وبعد ذلك، سيعلم مدى انطماس بصائر من صاروا يدعون إلى حرية اختيار الدين، من أبناء المسلمين؛ ممن يرددون أقوال الشياطين، يظنون أنهم أجدر من يعلم حقوق الإنسان وأوفى من نادى بها؛ وهم في الحقيقة يعودون القهقرى ولا يشعرون. يقتدون بالعُمي الذين لا يُبصرون.

الفصل الثالث

إلى طالب الحق

إن طالب الحق الذي يُسمى في الاصطلاح مريدا، لا بد له أن يضع نصب عينيه كل الكلام الذي تقدم؛ حتى يعلم موضعه من التربية، وهل هو من أصحاب اليمين (من غير أن يجزم، لأنه لا يدري هل يموت على ذلك أم لا)، أم هو ممن ترْقى همته إلى طلب الحق حقا. فإن كثيرا ممن يعد نفسه من الخواص، لم يبلغ حتى مرتبة أصحاب اليمين. والنفس لها دعاوى عريضة، إن لم تُطالب بالبرهان! وإبليس قاعد للمؤمنين طريق الحق، يخلط عليهم أمورهم، ويلبس عليهم نتائجهم. فلا عاصم منهما إلا الله. وليجهد الطالب أن يكون تحت نظر شيخ رباني، حتى يكفيه أمر التلبيس. فإن من انقطع به الطريق أو تلفت نفسه في مهامهها، عددهم كبير في كل زمان. والطريق عزيزة، والوصول أعز. وإياك والاكتفاء بطقطقة اللسان، فإنه بئس المطية في الطريق.

والمريد إن انتسب إلى طريقة ما، فعليه أن يتفقد توجهه وعمله وحاله. فإن كان الشيخ ربانيا، فليراجعه فيما يرتاب فيه، وإن لم يكن، فعليه أن يحتاط لنفسه؛ وليزن أموره بميزان الشرع، فإن الأماني لا تكفي؛ وإن النتيجة إما ربح وإما خسارة. وعليه إن رغب في تحقيق سلوكه، أن يبحث عن شيخ يكون أهلا لأن يكون قدوة، فإن الله ما ترك أمة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم هملا.

وأول ما ينبغي أن يراعيه المرء، الأمور البسيطة الواضحة: من تحقيق نية التوجه إلى الله، والعمل وفق الشرع فيما لا خلاف فيه. فالحلال بيّن والحرام بيّن! فإن أغلب من يقع في التلبيس، إنما يؤخذ من جهة الفروع والتفاصيل. وإن أحكم المرء أصوله، سهل عليه تبيّن الفروع. هذا من أساس العلم.

ثم إذا شرع المريد في الهجرة إلى الله (التي هي السلوك)، فعليه أن يوطن نفسه على البلاء ومشاق الأمور؛ فإن سلوك الطريق يكون للرجال الذين لا يردعهم رادع عن الحق. وليحذر أن يتولى الدفاع عن نفسه إن هو أوذي أو رُمي بما ليس فيه من الصفات، أو إن هو اتُّهم بما لا يليق به من الأفعال؛ فإن الدفاع عن النفس عند أهل الله من المحرمات، إلا إن كانت تترتب على الاتهام حقوق شرعية أو حدود. فليدفع عن نفسه إذ ذاك، بالقدر الذي يرد الحقوق إلى أصحابها، لا بالقدر الذي يُعيد له مكانته عند الناس.

فإذا شرع في محو النفس، فلا يرَ في الخلق أحقر منه حقيقة لا تكلفا؛ وإنّ في علمه بنفسه ما يعينه على ذلك وأكثر. ولينوِ أنه خادم لكل أحد بما استطاع مما آتاه الله من نعمه الظاهرة والباطنة. ولينظر إلى المسلمين على أنهم مواليه، ما لم يُخرجه ذلك عن بذل النصيحة الواجبة لهم. فإن من علم قدر هذه الأمة الشريفة عند الله، تمنى أن يُقبل عندها خادما، من غير أن يرجوَ لذلك عوضا أو أجرا؛ لأن الخدمة وحدها شرف ما بعده شرف. وإياك أن تظن أن ما ندلك عليه، هو في متناول أي أحد! واعلم أن كل هذا يُنال بإذنٍ من الله ورسوله؛ وما علمنا أن الله يؤتيه إلا لكبار الأولياء. فإياك والاستخفاف، والنظر بحكم العادة؛ فإن أغلب معايير الطريق بعكس حكمها عند أهل العوائد. وهذا، من أكبر أسباب الانحجاب عنها.

واعلم أن شرط كل خير، الصدق. فاصدق الله، ثم اصدق شيخك، واصدق إخوانك والناس أجمعين؛ وفي كل هذا اصدق نفسك. واصبر على مرارة الصدق فإن له مرارة لا يُطيقها إلا الصدّيقون.

وإياك أن تعامل الله معاملة التّجّار، وتطلب على معاملته عوضا؛ فمعاملة الله أعظم نعمة، فكيف يُستعاض عنها؟! وإياك أن ترى نفسك من أهل الطريق وإن شهد حالك بذلك؛ بل كن قانعا بنسبة أسيادك، واحمد الله على أنهم قبلوك وأنت تستحق الطرد.

وبعد أن تضمحل نفسك، فاعبد الله به وله، وغب فيه عن الماضي والآتي، واطو الدنيا والآخرة في الأزل، وكن غائبا في صورة حاضر؛ أو ميتا في صورة حي؛ أو عدما في صورة وجود. وافن عن القرب في القرب، وارع القرب في البعد. وعامل الأسماء بالأسماء، وكن حفيظا لخزائن العلم. ولا تظهر بسلطان إلا في موطنه، ولا تُخبر شخصا إلا عن معدنه؛ فإن أداء الأمانات يكون لأهلها، وإن من الحكمة مراعاة الأوقات وفضلها.

فإن دللت على الحق، فدل عليه بما تعلم، لا بما سمعت؛ فإن الخبر غير الأثر. وارحم الخلق برحمة الرحمن، وادعهم من المقام الذي هم فيه حتى لا يستوحشوا؛ ولا تشترط عليهم إنكار ما معهم من الحق حتى يقبلوا الحق الذي معك، فإن ذلك من نقص المقام. والسلام.

الفصل الرابع

مظاهر التربية الصوفية الحديثة

رغم أن التربية هي التربية، ورغم أن المبادئ لا تتغير، إلا أنه من الضروري مراعاة خصوصيات كل عصر حتى تكون التربية غير منفصلة عن الواقع.

وإن كنا نأخذ على الفقه أنه متوقف في صور خاصة متوقفة في الماضي، فلا ينبغي أن نقع فيما نحذّر منه. وعليه، فإن التربية الصوفية يجب أن تحافظ على الغايات، لكن باستعمال الوسائل العصرية بلا ريب.

فمثلا، كان يشترط في أزمنة ماضية للمريد العزلةُ عن الخلق، في صورة بسيطة كانت هي الخروج إلى الخلاء والمكوث في رؤوس الجبال. وكان الزهد، يتمثل في الاكتفاء من الطعام بتناول أعشاب الأرض أحيانا، والشرب من الأنهار والعيون. فإذا لم يتيسر شيء من ذلك، نوى المريد الصوم، ووطن نفسه على الجوع؛ الجوع بمعنى الكلمة، الذي قد يدوم أياما. كان المريد أثناء هذا كله، يواظب على العبادة والذكر ليلا ونهارا. هذه هي الوسائل التربوية في صورتها الأولى.

لكن العصر الحالي، لا يمكن أن يعيش فيه المريد مفصولا عن المجتمع، بسبب ضرورة الانتفاع من وسائل الرفاهية العصرية، وبسبب ضعفه عن حال الأولين من رواد الطريق. فإن لكل زمان رجالا.

وظروف الالتزام بالشغل في أيامنا، التي لا يخرج عنها إلا قليل من الناس، لا تمكّن المريد من التصرف بحرية في وقته، ولا تمكنه من التواجد في الأمكنة التي يريد. بل عليه أن يُعدّل من اختياراته بحسب ما يوافق هذه "الضرورات".

هذا لا يعني أن المريد استغنى عن ثمرات العزلة والزهد والتوكل والتفرغ للذكر، وغيرها؛ بل إن الثمرات تبقى هي هي؛ وإلا كان من الواجب أن لا نقول باستمرارية التصوف والتزكية الشرعية.

لذلك، فإن المعيار المعتبر في الأحوال ليس هو الصورة التي قد تختلف من زمن إلى زمن؛ وإنما المعيار نتائج الأعمال في الباطن. وإذا تحققت الثمار بأقل عمل في الظاهر، فلا داعي إلى المظاهر التقليدية التي اعتاد الناس عليها؛ بل إن من الأصول في الطريق، أن الأعمال كلما كانت أخفى، كانت أقرب إلى أداء المطلوب من ورائها.

فبالنسبة إلى الجوع والسهر، فليُبق المريد على ما لا بد منه للقيام بأعماله التي يترزق منها. وبالنسبة إلى العزلة، فيكفيه أن يقلل من الخلطة، وأن يجتنب من لا خير في مجالسته. أما الخلوة، فليعوّد نفسه على تخصيص وقت (على حسب طاقته) يختلي فيه ببيته أو بمكان بعيد عن نظر الناس.

أما مخالفة النفس فمجالها واسع، وهو قد يخالف نفسه طيلة اليوم من غير أن يشعر به أحد؛ وذلك لأنه بخصوص هذا الأمر، فإنه يكفي أن تخالف مراد النفس بارتكاب مباح لم تكن تريده. هذا يكسر منها الإرادة. ولا يسمح من أوتي فقها في الدين للمخالفة أن تدخله في دائرة المحرمات؛ فإن ذلك يدل على الجهل، وسيورثه إثما أكبر من الذي فر منه.

وعلى العموم، كلما كان المريد في الظاهر واحدا من الناس، لا يتميز عنهم إلا في الباطن، كان أقرب إلى الفلاح. ومن كان مع شيخ رباني، أغناه عن كثير من المجاهدات؛ ورفعه في أقل مدة إلى معاملة الله؛ فإن معاملة الله تنطوي فيها كل الخيرات.

ولئن كان الرعيل الأول من رواد الطريق، امتازوا بالمجاهدات التي لا يستطيع مكابدتها إلا الأفراد من الرجال؛ فاعلم أن الله فتح للمتأخرين في المعاملات الباطنية ما يعوضهم عن ذلك وأكثر. وقد نبه الشيخ الأكبر رضي الله عنه، إلى أن الأولين من الأمة امتازوا بالعمل؛ وامتاز آخرها بالعلم. ومع ذلك لا تأخذ هذه المقولة إلا بالتغليب، لا بالفصل. ومن جمع بين الفضائل، كان أكمل.

وما ذكرناه من استحباب لعدم تميّز المريد في ظاهره عن الناس، لا يؤخذ على الإطلاق؛ وإنما يُهتدى فيه بالعلم. ففي مجتمع تسود فيه الغفلة، أو يظهر من بعض أفراده كراهتهم للحق والخير؛ يُستحب الجهر بالذكر وإظهار شعار الطريق؛ لأن في ذلك تذكيرا للغير وإدخالا للنفس في مواقف الجهاد والمجاهدة بأقل تكلفة.

وفي زمن صار الدين كله غريبا، ينبغي على المنخرط في طريق السلوك أن يكون معينا لكل مسلم على نُصرة الدين وإشاعة الخير؛ لكن ليكن في ذلك بحسب العلم (الظاهر والباطن)، حتى لا تناله الغفلة التي هي مقام العامة. فإن العمل الذي لا يُدخَل فيه بالعلم، يكون قليل الثمار.

الفَصْلُ الخَامِسُ

آداب متفرقة

إذا كان العمل لا يصح إلا بالعلم، فإن العلم لا يصلح إلا بالأدب. ونعني بالأدب، الأدب الكامل، لا نصف الأدب الذي تعلمه العامة. بمعنى أن الأدب مع الغير، يسبقه الأدب مع الله؛ وكل موقف يتطلب وقفة لله، ارتفع معه الأدب المعروف.

عُرف المنتسبون إلى التصوف بـ"الدروشة" على مر العصور، وظن الظانون أن تلك سمة لصيقة بالتصوف على الدوام؛ وهو خطأ! فالمتصوف رغم أنه مطالب بمجاهدة نفسه في سبيل محوها، إلا أنه لا تسقط عنه التكاليف نحو مجتمعه، صالحه وفاسده. والتوفيق بين ما هو فردي وما هو جماعي، يكون من كمال العلم. وإن العالم حقيقة، يظهر عند المواقف المركبة؛ فيَبين منه مبلغ علمه بالأصول والفروع، ومدى إتقانه لترتيب الأولويات، وغير ذلك...

والأدب الذي يؤسس له العلم، يُنفق منه صاحبه بقدر الحاجة، كالدواء. فالأدب العام مع جميع المخلوقات، أن لا يرى المرء لنفسه فضلا على أحد أو على شيء. فحتى الجماد، لو تفطن الإنسان، لوجد له وجها يفضُله فيه. وهذا من أنفع أبواب المعاملة. وعليه أن يعلم أنه مهما بلغ علمه بالشيء، فستبقى منه وجوه لا يُحيط بها. فكيف يكون حكمه صحيحا، مع نقص الإلمام بالوجوه؟! هذا لا يكون.

أما الأدب مع المسلمين، فقد مر في الكتاب بعض التنبيه إليه. نؤكد هنا على الأصل فيه، والذي هو النِّسبة التي للمسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فإن هو تعاهد هذه

النسبة بالمراعاة، واعتبرها أثناء معاملته إياهم، فقد ظفر بكنز لا يفنى. وأقل المراتب أن يراهم أبناء سيده. وقد قرأ أبيّ رضي الله عنه قول الله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ ﴾الأحزاب: ٦، بزيادة [وهو أبوهم]. والولد على قدر أبيه؛ فما ظنك بولد أبوه سيد الخلق على الإطلاق؛ صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وذرياته وسلم تسليما.

أما آداب المريد إن كان منتسبا إلى طريقة تربوية، مع غيره من المنتسبين، فهي آكد. ولينظر في نفسه (حتى إن جعله العلم لا يُظهر ذلك لسبب من الأسباب) على أنهم أفضل حالا منه مع شيخهم وأصدق. وذلك أن المريدين في آخر الزمان، صاروا يفتخرون بشيخهم، ويتصفون بصفات الشياطين. وقد قيل: "ليس المريد من يفتخر بشيخه، ولكن المريد من يفتخر به شيخه".

أدخلَ الافتخار بالشيخ المريدين الغافلين، إلى التنقيص من الشيوخ الآخرين. وهذا سم قاتل! ذلك أن تعظيم أهل الله لا يتبعض. ومن يفعل ذلك، يكون في الغالب غير معظم لشيخه هو نفسه؛ ويظن أن الدخول في تلك المداخل يستر نفاقه.

وإذا كان المريد على طريقة حق، فلا داعي لأن يتعصب؛ فإن الحق ينطق عن نفسه بنفسه. وعوض أن يشتغل بإظهار طريقته، عليه أن يمحص حاله وينظر هل هو من المتبعين للحق أم لا؟ فإن كثيرا من الناس يُخدرون أنفسهم بدعوى الانتساب، عن مراقبة صدقهم فيه.

وقد رأينا من مريدي آخر الزمان، من يَنسُب إلى طريقة شيخه كل فضل، ولا يترك للآخرين منه شيء. وينسى أن الله هو الذي يحكم بين العباد! وهو بدخوله هذا المدخل، يعرّض نفسه لأشد البلاء. فكيف يتصف بالربوبية، وهو مطالب بتحقيق عبوديته؟! والمصيبة أنه يظن أن

هذا النوع من الأعمال يقربه إلى الله. مثل هذا لا يفي علمه (إن كان له علم) بجهله. وعليه أن يتوب إلى الله من سوء فعله، ويستأنف.

ورأينا منهم من يزعم أن شيخه هو قطب زمانه، ويبدأ في التنقيص من أهل الله من غير مراعاة حرمة؛ أو يزعم أنه الختم؛ والمصيبة أنه قد يكون غير عالم بمدلولات هذه الألفاظ. فتجده يخبط خبط عشواء، يُخطئ فيه أكثر مما يُصيب. وليس للمريد أن يُخبر بأن شيخه هو قطب الزمان إلا إن سمع ذلك منه صراحة تغنيه عن التأويل، ثم أذن له بالإخبار عنه. وإلا دخل في سوء الأدب مع شيخه قبل غيره، سواء أكان الشيخ قُطبا أم لم يكن.

ورأينا منهم من يجعل المهدي المنتظر عليه السلام من المنتسبين لأهل طريقته، ويجعل هذا من علامات خيريتها. فلم يكفه التفاخر بأمجاد الماضي، حتى صار يفتخر باحتمالات المستقبل. وفي هذا ما فيه من الجهل وسوء الأدب.

ورأينا منهم من يفاخر غيره بالرؤى والمشاهدات والأحوال، وغير ذلك من لوازم الطريق. وما علم المسكين أن تلك هي إشارات لينتفع بها في سلوكه، لا ليتخذها سلاحا يُشهره في وجه غيره. وكلها عوارٍ لا عبرة بها عند المحققين.

وحتى لا ينحرف المريد عن توجهه الأصلي (إن كان قد بدأ بتوجه صحيح)، عليه أن يضع نصب عينيه أن الطريقة التي يتربى عليها، تُعلّم العبودية لله؛ فكلما ازداد تحققا بعبوديته، ازداد تمكنا في طريقته. والعكس أيضا صحيح. ولا يعتد بعلم ولا عمل، فإن ذلك كله لا يُعتد به. فالعلم متحرك، والعمل ليست له منه إلا النسبة. فبمَ يفاخر غيره؟

ومن كان له شيخ رباني، فلينظر إلى عبودية شيخه في نفسه، وليسعَ إلى اقتباس شيء منها على قدر طاقته ووُسعه؛ فإن ذلك وحده ما ينفعه عند ربه. أما الربوبية التي تظهر أحيانا على

الشيخ، فليعلم أنه لا قدم له فيها البتة، ولا يأخذها على أنها من الشيخ؛ بل هي من الحق في حال فناء الشيخ. فإن لم يكن له بصيص من علمٍ في أحوال الكبار، فلا يُدخل نفسه فيما لا طاقة له به، ويكون هلاكه أقرب فيه من نجاته. والعاقل من يستنصح لنفسه، وينتصح إذا نُصح.

الباب السابع

مبادئ عملية

الفصل الأول

معارف أساس

يقول الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ المؤمنون: ١١٥؟!

إنك أيها الإنسان، تدخل إلى الدنيا من باب وتخرج من آخر. والمسافة التي بين البابين تقطعها في مدة هي عمرك. وطريقك مليء بالمعيقات التي تمنعك أن تحقق غايتك. هذا يشبه تلميذا دخل إلى حجرة الامتحان في آخر السنة الدراسية. مدة الامتحان محدودة (العمر). أول ما يرن جرس البدء (الولادة) توزع أوراق الأسئلة؛ ويبدأ العمل، كلٌّ حسب ما درس وراجع، وأدرك ورسخ (السابقة). في الحجرة من هو مكلف بالحراسة (الشرع) حتى لا يغش الممتَحَنون. فإذا رن جرس النهاية (الموت)، أخذت أوراق الإجابات (الصحف)، تقيَّم (الحساب)؛ فيُعطى كل واحد نقطة تناسب مجهوده (وزن الأعمال). فمن حصل على نقطة

أعلى من نصف النقطة الكاملة (رجحت حسناته) نجح (أُخذ به إلى الجنة)؛ ومن كانت نقطته أقل من نصف النقطة الكاملة (رجحت سيئاته)؛ رسب (أخذ به إلى النار).

إذا كانت هذه الصورة العامة واضحة، فتعال ننظر في تفاصيلها حتى تعلم موضعك منها.

وإذا كان الطريق الذي بدايته الولادة ونهايته الموت يؤدي إلى غاية، فما هي؟

الجواب: الغاية هي الله! يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ الانشقاق: ٦: فلا بد من لقاء الله! سواء أعلم الإنسان ذلك وعمل له، أم لا. فإذا كان الأمر هكذا، فمن غير اللائق أن لا يستعد له المرء، ويحسب حسابه. لكن السير إلى الله نوعان:

ا- سير قهري: وهو لجميع الأصناف. فحتى الذي لا يريد لقاء الله، هو ذاهب إليه.

ب- سير طوعي: وهو الذي تترتب عليه السعادة. وفي مثل هذا النوع جاء قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ فصلت: ١١. فالإتيان طوعا، لا يكون إلا لوافر العقل. فاتخذ السماء والأرض إماما تُفلح!

وعلى من يرغب في الانخراط في السير الطوعي، أن يتبيّن ضروراته: من تحديد وجهة، ومساعدات ومعيقات، وغاية.

أما تحديد الوجهة، فلا يكون إلا باتباع بوصلة الشرع. ومن اعتمد وسيلة غير هذه فلا يطمع في سير فضلا عن بلوغ غاية. وممن لا يتّبع الشرع، أهل الفكر وأتباع الديانات الضالة. كما أنه قد يكون المرء متبعا للشرع، ومع ذلك لا يخلو من تقصير أو مخالفة جزئية. ولا شك أن مثل هذا، سيعاني من الضلال الوقتي، أو يكون بطيء الحركة في بعض المراحل؛ كما قد يتوقف قليلا قبل الاستمرار في السير. وقد يحدث معه هذا مرات عديدة، مما يضاعف مشقة مسيره.

أما المساعدات، فأهمها ذكر الله. ونخص هنا الذكر المأذون الذي يأخذه المرء عن شيخ رباني. هذا الذكر يجعله لا يغفل عما هو بصدده، وإن عرض له ما يُلهيه. ومن المساعدات أيضا، نوافل الخيرات كلها؛ لأنها تزيد في النور الضروري لإبصار الطريق. أما الفرائض، فهي الأساس النوراني الذي يضع السائر على الطريق المستقيم، الذي يُقصر له المسافة التي هو مقبل على قطعها. بهذا يتميز من يأتي بالفرائض عن أصحاب الطرق الأخرى (السبل)، التي هي متفاوتة في الطول. وكل طريق طويل فإنه لا بد أن يمرّ عبر جهنم؛ هذا لا بد منه. فلا يُمكن أن يستوي من هو على الصراط المستقيم مع غيره أبدا. وفي هذا جاء: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦ ﴾ النحل: ٧٦؟!

أما المعيقات فكثيرة، تُجمل في اثنتين خارجيتين وواحدة داخلية: فالداخلية هي النفس التي تدعو صاحبها إلى العاجلة وإلى الشهوات؛ وأما الخارجيتان، فالدنيا، والشيطان. الدنيا ببهرجتها تعرض للسائر في طريقه تراوده، فإن هو استجاب لها أسرته ومنعته المسير؛ أما إن وُفق في الإعراض عنها فإنه يُكفى شرها. لكن لا يأمن بعد ذلك أن تأتيه في صورة أخرى، وفي وقت آخر تجرب أثر سحرها عليه مرة أخرى. ولا مُنجي له منها على التحقيق إلا ربه وربها، إن هو صدق في اللجوء إليه.

أما الشيطان، فهو قاطع الطريق الذي يتربص به خلف كل أكمة وفي بطن كل واد. يأتيه تارة في صورة الناصح، وتارة في صورة الرفيق الحريص، وتارة في صورة المجرب المعلم و...فإن هو تفطن له وعرف حقيقته المخفية خلف صورته، فإنه يُكفاه؛ وإن انطلت عليه ألاعيبه، فإنه إن لم يحبسه في مكانه لا يغادره، أخّره. وقد يحدث معه هذا المرة بعد المرة، حتى يجد منه عناء

شديدا. ولا مُنجي منه هو الآخر إلا ربه. وذلك أن الله جعل من نفسه وليا مرشدا لعبده إن هو رجع إليه في أموره، وترك عنه تدبير نفسه واختيارها.

والدنيا والشيطان، لهما من النفس أفضل سند ومعين، إن هي استجابت لهما؛ فتصير كالجاسوس الذي يفتح الأبواب للعدو في غفلة من الحرس. أما إن هي وُفّقت، فستتمنع، وسيساعدها الحارس الذي اسمه العقل على حفظ المداخل. كل هذا ما دام السائر ممسكا بسراج الوحي يستنير به؛ وإلا ضاع العقل في السبل الجانبية، يظنها الصراط المستقيم بقياساته الفاسدة. فمن كُفي نفسه فقد كفي جُلّ الشر، ما بقي له إلا إحكام السير وعدم الالتفات؛ أما من سُلّطت عليه، فلا يفلح معها أبدا. ولا منجي منها إلا ربها. فإياك أن تعتمد في سياستها على علمك أو قوتك؛ فإنها في خفائها، لا يُدرك لها غور.

وكل هذه الأمور التي ذكرناها، قد ورد بها القرآن في مواضع عدة، يُبيّنها: يحض على ما ينفع منها، ويُحذر مما يضر. فمن يستمع إلى الوحي لا يَضل أبدا.

أما الاستماع الذي نعنيه، فهو أن يعي المرء الخطاب الإلهي أو النبوي ويفقه معناه، ثم يعمل بمقتضاه؛ لأننا نجد كثيرا من المشتغلين بالوحي، يرددونه ترديد الببغاوات، دِراسة وتدريسا؛ وعظا وجدالا؛ وهم لا يتقدمون به خطوة في الطريق إلى الله. فهؤلاء مثلهم كمثل شخص تلقى رسالة من قريب له، ينبئه أن يستعد للسفر إليه إلى البلد الفلاني، في الوقت الفلاني، من أجل غرض له عنده؛ وهو عند تلقيه الرسالة، انصرف إلى الاشتغال بدراستها، من حيث الشكل ومن حيث المضمون. فمن حيث الشكل، صار يتعرف الخط المكتوبة به ونوع المداد والورق و...؛ ومن حيث المضمون، صار يدرس أساليبها، وإعرابها،و... وهو غير ملتفت إلى ما طُلب منه فيها. فهل ترى أن هؤلاء الذين هذا مثلهم، يصنّفون ضمن العقلاء؟!

واحذر إن قرأت القرآن أن تشتغل بقواعد التجويد عن معانيه، كما نرى في زماننا، فتُحرَم خيره. وإياك أن تسمعه من أهل الظلمة، الذين يُراؤون بقراءته؛ واسع إلى سماعه من أهله، أهل الله وخاصته، حتى لا تُحجب دونه. وسماع القرآن عند أهل الله، يرفعك في أقل مدة إلى السماع من الله. ومن لم يصل إلى هذه المرتبة، فلا يَعدّ نفسه قد سمع القرآن. وهذا الذي نذكره لك هنا، هو أيضا من دلالات الإطلاق في الشرع المحمدي؛ التي لو تتبعناها، لتطلبت وحدها كتابا خاصا بها. والحمد لله على واسع فضله.

الفصل الثاني

دعوة الله

إن الله لما خلقك، أمهلك في السنين الأولى من عمرك حتى تنظر في أمرك، وتتعرف مختلف أحوالك في نفسك ومن حولك؛ وحتى تعتبر بغيرك فتطلب السلامة لنفسك. فلا شك أنك قد رأيت الناس يُؤخذون بالموت، فيتركون خلفهم ما كانوا فيه منهمكين من خير أو شر، ومن كانوا أهلهم وأحبابهم على غير موعد ظاهر ولا تدبير منهم أو اختيار.

ثم بعد هذه المرحلة، وعندما اشتد عودك؛ خاطبك الحق خطاب تكليف يدعوك فيه إلى السفر إليه. لكنك ما فهمت الدعوة غالبا، وظننتَ أنها دعوة لحرمانك من تصرّفك في مملكتك بما يُحقق رغباتك العاجلة. ونشأ بينك وبين الشرع عداوة طبيعية، وإن حاولت أن تأتمر بأمره قدر مستطاعك، وتُوفّقَ بين ما تظنه لك وما لربك. كل هذا كان بسبب توهّمك! فإن لم يتداركك الله بتقويم مُعوجّ فهمك، فإنك ستُحرم كثيرا من الخير.

ونحن هنا سنبيّن لك أن الله ليس أجنبيّا عنك كما تظن، حتى تستوحش منه. وذلك أن وجودك قائم به وأنت تتوهم الاستقلال. فلولاه، ما كنت لِتوجَد أو تسمع أو تُبصر أو تسير. وهو عندما دعاك من خارجك بالوحي، فإنك سمعت خطابه من باطنك ولم تتفطن. كيف يُمكن أن تسمع خطابه إذا لم يكن حقيقتك؟! لكن بينك وبين أن تتحقق بها، أن تتخلص من الموانع التي تحول بينك وبينه.

ألم تسمع إلى الله يقول عنك: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ ق: ١٦. فمن هو أقرب إليك من حبل الوريد، هو أقرب من كل قريب؛ فلا

يُمكن إلا أن يكون حقيقتك وأنت لا تعلم. فكيف تنظر إليه نظرة الأجنبي؟! وعندما خاطبك أنت وأمثالك بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ فاطر: ٦، فإنما يُعلمكم أنه لكم حبيب، فكيف يغفل الحبيب عن حبيبه؟! والشيطان في الحقيقة هو مظهر البعد، والله هو القريب منك بل الأقرب كما سبق. فإذا فهمت هذا، فكل بعد هو شيطان. فما لك لا تفقه الكلام؟! وحتى القرب، فإنما ذكره لك كناية لا حقيقة؛ حتى إذا كنت من أولي الألباب عرفت المقصود. ولما علم منك غلبة وهمك ووقوعك تحت حكم طبيعتك، دلّك على مظهره الرباني وقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ البقرة: ١٨٦. فإذا تحقق منك السؤال، أخبرك أنه مجيبك لا محالة. فكان المظهر الرباني صورة خارجية لحقيقتك حتى تأنس به ويأخذ بيدك إليه فيك.

وإن فهمت، فقد أعلمك أنه لن يتركك في الطريق وحدك، كما توهمت؛ وخفت أن تهلك بعد أن سمعت خطاب التكليف، وعرفت أن أعداء كثيرين يتربصون بك. فقال لك: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ الأعراف: ١٩٦؛ فسيرك الآن لن يكون بنفسك كما قد بدا لك، وإنما به. فما بقي لك إلا أن تُسلم أمرك إليه من غير توانٍ.

وإذا أردت أن تبقى يقظا متذكرا دعوة ربك لك، فاذكره حتى يذكرك ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ البقرة: ١٥٢. ولا تكن ممن قال الله فيهم: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ ﴾ التوبة: ٦٧، وقال فيهم أيضا: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ ﴾ الحشر: ١٩. واعلم أنك إن أجبت دعوة ربك، فإنما تسعى إلى حقيقتك (معرفة نفسك). فإن أعظم

عذاب، أن تبقى عنك محجوبا، وفي دارك غريبا؛ فنبهك سبحانه قائلا: ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾الأنعام: ١٠٤. فما ترك لك من البيان شيئا. وما أبان لك إلا عما كان، وما أنت عالمه من باطنك بالوجدان.

فإن جمعك الله على رباني، فقد شملتك العناية وقربت منك المسافة (المعنوية)، وتجلى الله لك تجليه لعباده الخواص وإن كنت لا تشعر. فاعمل على أن تسأله بلسان حالك عن ربك؛ واستمع إن أجابك فيك أو في خارجك، ولا تكن من الغافلين. وإياك وتحكيم العادة فيك فتردى. فإن المعرفة تتطلب إقداما يخرق العوائد، وظمأً لا يرضى دون الحقيقة مشربا.

فإذا علمت هذا، فاعلم أن الحق عزيز، ومن عزته أن جعل في الوجود مظاهر شيطانية في مقابل المظاهر النورانية؛ حتى لا يصل إليه إلا من تعلق قلبه به لا بالعلامات. وكيف يكون غيره دليلا عليه وهو الدليل على كل شيء سبحانه. هذا لتعلم أن الله لا يشبه خلقه. ولو كان يُشبه خلقه لوصلت إليه بما تصل به إلى الخلق. وهذا مُحال!

الفصل الثالث

التجليات الدنيوية

من المظاهر الصارفة عن الحق، مظاهر حقية تجلى الله بها في صور فانية نهى عنها في شرعه، حتى تكون تمحيصا لإيمان عبده. فإن هو توقف عندها، فإنه يكون كاذبا في دعواه طلب الحق؛ وإن هو لم يلتفت إليها، فإنه يكون قد برهن على صدقه. هذه المظاهر هي مُسمى الدنيا. ومن تسميتها بالدنيا، تعلم أنها تعرض للعبد في أثناء الطريق؛ إي هي أول ما يلقى. والدنيا تكون في مقابل الآخرة، التي هي ما يجده المرء عند الوصول. والآخرة تكون هنا بمعنيين: بمعنى الدار، فهي ما بعد الموت؛ وهذا في حق العموم. وتكون بمعنى الصورة الحقيّة بعد فناء الخلقية، وهذا يكون قبل الموت الطبيعي وبعده؛ لكن حتما بعد الموت المعنوي. وهذا يكون للخواص. فالخواص آخرتهم في دنياهم، بخلاف العوام.

ولنعد إلى الدنيا، فإن الله جعل فيها من كل شيء مرغوب؛ إلا أنه في صور فانية لا تدوم طويلا. وحجر على عبده تناول كثير من طيباتها، بحيث يُقاسي مرارة منع نفسه عنها. وقد ذكر أصول هذه المظاهر الدنيوية في قوله سبحانه: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ آل عمران: ١٤. "زُيّن للناس": هذا يعني أن الزينة ليست أصلية في هذه المظاهر، وإنما هي في عين الناظر. "حب الشهوات": كل ما تشتهيه الأنفس، وتحب الظفر به. وبما أن النفس باطل، فإن كل ما تتعلق به هو من جنسها. "من النساء": النساء هي الصور الخارجية للنفوس عينها؛ فهي بحب النساء لم تحب إلا

نفسها؛ فيكون حبها منها وإليها. أو إن شئت قلت: النساء مرايا النفوس. الخطاب واضح أنه للرجل هنا لأنه هو الأصل؛ ويُفهم منه ما تشتهيه أنفس النساء في مظاهر الرجال؛ لكن بتجلّ مختلف عن التجلي الأول. "والبنين": الذرية وهي نتاج المحبة. وهي نظير الأسرار الإلهية؛ نعني ما يقابلها في عالم الأوهام. "والقناطير المقنطرة": ما لا حد له، "من الذهب والفضة" وهو ما به الاقتدار؛ فإن الذهب والفضة لا يُتعلق بهما لذاتهما وإنما لغيرهما. فهما من مقتضيات الكمال النفسي."والخيل المسومة": وهي المراكب الحسنة المتميزة. ويدخل فيها مما يعرفه عصرنا: السيارات والطائرات الشخصية واليُخوت...وهي للنفس بمثابة العرش للحق، من حيث كونها الحاملة لها ورمز ملكها. "والأنعام": وهي الرعية المتصرف فيها، بالإحياء والإماتة، والإصلاح والإفساد. فهي محل ظهور الفعل في مملكة النفس. "والحرث": وهو ما به قوام النفس حسا، الدال على ما به قوامها معنى. "ذلك متاع الحياة الدنيا": كل ما ذُكر وما يتفرع عنه، هو من متاع، أي متعة (وهو الاستلذاذ) الحياة الدنيا، التي هي الحياة النفسية. وسميت هذه الحياة بالدنيا، لأنها أدنى الحياتين: الحياة بالنفس، والحياة بالحق. "والله عنده حسن المآب": يقابل سبحانه بين الحياتين، وكأنه يقول: كل ما ذُكر لا عبرة به، وإنما العبرة بمن حيِيَ بالله بعد الرجوع إليه؛ لأنه سيحظى بالمُلك الحق بديلا عن المُلك الوهمي. وقد روى أهل السِّير أن هارون الرشيد لما نام على فراش الموت بكى بكاء شديدا ثم أخذ يردد ويقول: ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ، ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه؛ ثم طلب أن ينظر إلى قبره ، فلما نظر إليه ازداد بكاؤه ثم قال :" يا من لا يزول ملكه ، ارحم من قد زال ملكه " وما زال يرددها حتى مات.

فإذا عرفت أن الدنيا هي الملك الوهمي الذي يعرض للنفس في طريقها إلى الحق، فعليك أن تعلم أنه ليس مقصورا على الملوك (في العرف)؛ وإنما هو متعلق بكل نفس، كلٌّ على قدرها.

ولما تفطن أهل الطريق لهذا المعنى، جردوها من مظاهر الملك التي تطيل غفلتها، وتُسكرها نشوتُها عن الحق. فمنهم من كان من أبناء الملوك وزهد في ملكه كإبراهيم بن أدهم، ومنهم من كان ذا مال فخرج عنه، ومنهم من كان ذا أتباع فرحل عنهم واستطاب السياحة والغربة عن الأوطان...فمن لم يتجرد عن ثياب الزور، لم يلبس ثياب الحق أبدا!

وليس المقصود من التجرد عن الدنيا، صورة التجرد فحسب، أي الظهور في مظاهر الافتقار؛ بل المقصود حصول ثمرة التجرد في الباطن، وهي النزول عن العرش النفسي الوهمي. فقد يملك الولي الدنيا بأكملها، ولا يتضرر منها؛ وقد يكون العبد في أشد حالات الفقر الظاهر، وهو من ملوكها.

وحتى تعلم حقيقة أمر الدنيا، انظر بعض ما قاله ربها فيها:

- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة: ٨٦: أي باعوا الآخرة بالدنيا؛ أي باعوا الملك الحق بالملك الوهمي. "فلا يُخفف عنهم العذاب": بسبب كونهم ساروا عكس اتجاه تحصيل النعيم. والأسباب تؤدي إلى مسبَّباتها. "ولا هم يُنصرون": لن تُبدل السُّنن إكراما لهم. وذلك أن الخاسر عندما يظهر له سوء مآله، يصير يتمنى المحالات.

- ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ البقرة: ٢١٢: هو اختلاف في مدى النظر بين الكافر والمؤمن. فالكافر لا يرى إلا الدنيا؛ والمؤمن ينظر إلى العواقب. فيصير الكافر من منطلق رؤيته يسخر

من المؤمن الذي يفوّت كثيرا من العاجل. والله يُخبر أن الحق من نصيب المؤمن المتقي. والتقوى ههنا، احتماء بالإيمان من زينة الدنيا، حتى لا تفتنه. فكثير من المسلمين يعلمون أن الدنيا ظل زائل، لكنهم لا يتقونها.

- ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ آل عمران: ٤٥: وجيها في الدنيا بوجاهة الحق، لا بوجاهة الدنيا وأهلها. هذا يعني أن الربانيين هم سادة الدنيا والآخرة معا؛ غير أنه في الدنيا، لا يعلم لهم هذه السيادة إلا خواص الناس.

- ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ آل عمران: ٥٦: عذابهم في الدنيا، هو نفس انغماسهم فيها بالظاهر وبالباطن؛ ولكنهم لا يشعرون. إذ لو كانوا يشعرون لتنبهوا وآمنوا، والحال أنهم كافرون.

- ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٤٥: من يرد من الناس جزاء على أعماله يؤته الله منها؛ أي من زينتها وجاهها. ومن كان نظره إلى الآخرة وسأل الجزاء (بالحال أكثر من المقال) منها، فسيؤتيه الله إياه، ويكون عنده مرضيّا. ولتنظر إلى حال المسلمين اليوم، كيف أصبح المنطق الكفري يغزوهم، وكيف أصبحوا يبتغون على أعمالهم جزاءً في الدنيا. ومن ذلك إشهار العامل (ومنه العالم واأسفا) بالفوز بالجوائز ونيل الألقاب، وما يسمّى التكريم. كل هذا من جزاء الدنيا، والناس غافلون. أما المؤمن، فكما ينبغي أن يكون عمله لله بدءا، فعليه أن لا يبتغي جزاء عليه في الدنيا أبدا؛ حتى يجده مُدّخرا له في الآخرة. هكذا هو الأمر!

- ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٤٨ : هذا بالنسبة إلى المحسنين خصوصا. فإن الله إذا أظهر فضلهم في الدنيا، أو آتاهم منها ثوابا، فإن ذلك لا ينقص من ثواب الآخرة عندهم شيئا؛ لأنهم ما قصدوا ثواب الدنيا بالنية، وإنما نالوه فضلا من الله. وإلى كون ثوابهم الأخروي تاما، يشير قوله سبحانه "حسن ثواب الآخرة"، حتى لا يتوهم متوهم أنهم وغيرهم سواء.

- ﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ الأنعام: ٣٢ : لعب ولهو، لكن من يُصدّق الله؟! فكل من مال إلى الدنيا بباطنه فهو مكذب لربه. فلتنظر نفسك من أي الفريقين أنت.

- ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾الأنعام: ٧٠ : هذا حال كثير من المسلمين اليوم. فاتخاذهم دينهم لعبا ولهوا، هو جعله من الدنيا؛ أي مُفضيا إليها، وهي التي وصفها الله سابقا بكونها لعبا ولهوا. والسبب هو أن الدين أخروي من حيث النظر إلى ثماره، إلا ما كان استثناء في حق بعض العباد المحسنين من غير قصد منهم. أما طلب الدنيا بالدين، علما وعملا كما نراه فاشيا في زماننا، فهو نفسه اتخاذ الدين لهوا ولعبا؛ إي إن حالهم أسوأ من أولئك الذين توجهوا إلى الدنيا بأسبابها الأصلية. فافهم عن الله!

- ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾الأعراف: ٣٢: نسب الله في هذه الآية الزينة إليه لا إلى الدنيا، حتى تُفرّق بين ما هو معدود منها، وما هو من الطيبات من الرزق التي أباح الله لعباده التّقوّي بها على الدين. وذكره لخلوص الطيبات يوم القيامة للمؤمنين، يشير إلى أنهم لم يكونوا لها قاصدين في الدنيا. وهذا لا يتم إلا لمن كمُل إيمانه من المحسنين الذين ذُكروا من قبل.

- ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ يونس: ٦٤: أما هذه فهي خاصة بأهل الولاية الخاصة، وكل من تأولها لعامة المؤمنين، فإنه مخطئ. والدليل هو أن البشرى لا تحصل لعموم المؤمنين في الدنيا. وهؤلاء الأولياء يكونون في الدنيا والآخرة بالله وله. فهم خارج التصنيفات السابقة كلها بباطنهم؛ أما بظاهرهم فهم من المحسنين. لذلك سمّى الله فوزهم فوزا عظيما؛ وحتى يمتازوا عن غيرهم من الفائزين. ولقد رأينا من سفهاء الأحلام في زماننا من ينفي الولاية الخاصة حسدا من عند أنفسهم، فما زادهم ذلك إلا حرمانا، يخافون إن هم بقوا عليه أن يؤدي بهم إلى سوء العاقبة، بسبب تكذيبهم لله.

وحتى تعلم أن الدنيا هي الملك الوهمي في مقابل الملك الحق، نرجع بك إلى قصة الشيطان مع أبينا آدم عليه السلام. فقد قال الله: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ طه: ١٢٠. فلولا أن اللعين كان يعلم أن آدم خُلق لملك لا يبلى، ما لبس عليه حتى يتناول من الشجرة المُحرّمة. فدله على ملك موهوم بدل الملك الحق، بحسب علمه. فكان من إفساد الله لكيد الشيطان، أن جعل ذلك طريقا إلى الملك الحق (الخلافة)، الذي ناله آدم بالفعل بعد نزوله إلى الأرض. فكان هذا من باب: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ الأنفال: ٣٠. فظهر أن أهل العناية، لا يضرهم مكر الماكرين؛ بل ينقلب نفعا محضا، كما أخبر الله في موضع آخر بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ الأعراف: ٢٠١، فجعل سبحانه إلقاء الشيطان في حقهم سببا للذكر وتحقق الإبصار، بعكس ما كان يرجو. فالحمد لله على سابق عنايته ووافر هدايته.

الفصل الرابع

التجليات الشيطانية

إذا كانت الدنيا هي المملكة الوهمية، فالشيطان عليه لعنة الله هو الدال عليها، وحارس أبوابها. والتجليات الشيطانية هي تجليات حقيّة اقتضتها العزة والغيرة الإلهيتين؛ حتى يمتاز الصادق من الكاذب. فإن الإنسان لو تُرك من غير امتحان لادعى ما ليس فيه وطالب بما ليس له. ولنرجع إلى القرآن ننظر فيه طرق عمل الشيطان وأساليبه.

- ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة: ١٦٨: خطوات الشيطان هي الوسيلة التي يسرق بها اللعين السائرين من الطريق. فكثير من الناس يظنون أن الشيطان يدعو إلى المعاصي وحدها؛ وهم على حق في ذلك، لكن لا يعلمون التركيب الذي يَسم هذه العملية. فهو يدعو كل أناس بما يناسبهم من الخطاب. فالذين تنفع معهم الدعوة إلى المعاصي مباشرة، هو يدعوهم إليها ويزينها لهم. وهؤلاء أسهل صنف عليه! أما الذين يعادونه ويحرصون على مخالفته، فإنه لا يدعوهم إلى المعصية؛ بل يدعوهم إلى الطاعة! فإن قلت كيف يكون ذلك؟ فاعلم أنه يدعوك إلى الطاعة، فإن استجبت له فيها؛ أخذك بها إلى طريقه شيئا فشيئا، بعد أن تكون قد اعتدت الاستجابة له. هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فإن الطاعة التي يأتيها المرء عن دعوة منه، تكون ظلمانية. فإذا أنت أتيتها، أورثتك الظلمة التي هو منها بالخاصية. وكثير من العبّاد يأخذهم من هذه الطريق، وهم لا يشعرون. وقد قيل إنه –لعنه

الله- جاء يوما إلى سيدنا عيسى عليه السلام، وقال له: قل لا إله إلا الله! فأجابه عليه السلام: أقولها، لكن لا بقولك! ولو تأملت هذا الحوار، لوجدت فيه أسرارا منها:

ا- لو أن سيدنا عيسى عليه السلام (فرضا) امتنع عن الاستجابة له (مع علمه بأنه إبليس)، لكان ممن يمتنع عن قول لا إله إلا الله؛ ولصار من أتباع إبليس في امتناعه عن السجود لمّا أمر به. فقطع عليه السلام عليه الطريق بقوله: أقولها.

ب- لو أن عيسى عليه السلام، قال لا إله إلا الله، عن أمر اللعين، لسرت ظلمته إليه، وصار من أتباعه. نقول هذا من باب الافتراض؛ أما عيسى عليه السلام، فمقامه أجل من أن يُسلّط عليه إبليس.

لكن، انظر كم من واحد يُمكن أن يفطن لألاعيبه في الأمر بالطاعات، حتى يتخلص من فِخاخه؟! وأين هذا العلم الدقيق من علم العلماء؟! ولو علم أهل الطاعات، كم له من أتباع فيهم، لتعجبوا. وفي الخلاصة، فإنه لا ينجو منه إلا من عصمه الله!

وانظر إلى أهل الله كيف أنهم اتخذوا سنةً أن يقرأوا أذكارهم عن أمر إلهي حتى يقطعوا مدده الظلماني عنهم وعن أتباعهم. فكانوا إذا أرادوا الشروع في ذكر "لا إله إلا الله" قرأوا قبله قول الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ محمد: ١٩. وهكذا يفعلون في الاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وغيرهما.

وقد غلط كثير من الناس في هذا الأصل، فدخلت عليهم الظلمة مع ذكرهم، فصاروا يزدادون بُعدا. وإذا لم يتداركِ الله عبده برحمته، فقد يصل المرء بذكره إلى الكفر. وقد عرفنا من هذا الصنف عدة أشخاص.

ثم إن الشيطان لعنه الله، إذا أراد أن يسرق الناس من الطريق، تقدمهم فيها؛ فإذا وقعت خطواتهم على خطواته، سرت الظلمة إليهم. فإن لم يتفطنوا، صاروا يعتادون عليها شيئا فشيئا؛ فإذا اعتادوها، خرج بهم من الصراط المستقيم إلى سبيل من سبله وهم يظنون (أو غيرهم) أنهم باقون على الأصل. فانظر ما أحوج المرء أن يكون مع شيخ رباني يمحص له أحواله!

- ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ البقرة: ٢٦٨: يستغل الشيطان لعنه الله الفقر الأصلي الذي للنفوس، فيذكّرها به حتى تتمسك بحرصها وشحها، رغم خطاب الله لها بالإنفاق والبذل. لذلك تجد أن قليلا من الناس من يستطيع مخالفة داعيه في الشح؛ خصوصا إن كان الذي معهم قليلا. وأما أمره بالفحشاء التي هي ما يُستقبح من قول أو فعل، فحتى يقوي صفات النفس؛ فإن هي قويت استعان بها على ما يريد من الناس. فهو –لعنه الله– بوعده بالفقر وأمره بالفحشاء، يقصد إلى تقوية صفات النفس من جهة، وإلى إضعاف يقينها بربها من جهة أخرى. فإن حصل له هذا، انفرد بالعبد يسوقه إلى حيث يشاء. لكن الله، أعان عباده على كيده، فداواهم بدوائه تبكيتا له وخذلانا؛ فجعل سبحانه المغفرة منه في مقابل أمره بالفحشاء، وجعل الفضل في مقابل وعده بالفقر. فاستعانت النفوس المؤمنة بوعد ربها على وعد الشيطان. فما على العبد إلا أن يُصدّق ربه في وعده.

- ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥: من أسلحة الشيطان، تخويف المؤمنين من أوليائه الذين هم جنده. يستغل في ذلك الخوف الأصلي المركوز في النفوس. هذا الخوف من مقتضيات الفقر. فالنفس تخاف أن تفقد ما تظن أنه صار

لها. وأول شيء تخاف النفس من فقده، وجودها. وتتوهم أن الموت هو سبب انسلاخها عنه، لذلك فهي تكره الموت أشد الكره، وتتجنب أسبابه. ومن أولياء الشيطان من يكون في الظاهر صاحب سلطان، أو صاحب قوة، أو غير ذلك؛ فيُخوّف الشيطان به المؤمن. ثم تخاف النفس من فقد ما تظن أنه أصبح ملكا لها أو من توابعها، من مال وبنين وجاه و...فيخوف الشيطان بأوليائه الذين يظهر أنهم قد يملكون سلب ذلك؛ وهم في الحقيقة لا يملكون من ذلك شيئا. فيوجه الله خوف المؤمنين إلى متعلَّقه الأصلي الذي هو الله المالك للنفس، ولكل ما يتبعها. فمن جعل خوفه من الله وحده فهو مؤمن، ومن بقي يخاف المظاهر الشيطانية، فلا إيمان له. وقليل من الناس من يتفقد نفسه عند مثل هذا.

ولو حققت، لوجدت أن عمل الشيطان تلبيسي، يُحرف فيه مُتعلق الخوف فحسب؛ ولا يزيد من عنده شيئا ولا يُنقص. فهذا مما يقال عنه: تحقيق الغرض بأقل جهد.

- ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ النساء: ٦٠ : الاحتكام إلى الطاغوت، هو الاحتكام إلى غير الله، سواء في الحكم المعروف غير الشرعي، أو في الحكم العقلي. ومن تحكيم الطاغوت في النفس، اتخاذ معايير في الأمور غير المعايير الإلهية الشرعية. من ذلك التحسين والتقبيح بالهوى والعقل القاصر. كل هذا مُخالف للحق! وقد أمر الله المؤمنين أن يكفروا بالطاغوت (أي يوقنوا بأنه لا حُكم له). وعمل الشيطان هنا كسابقه؛ وهو تحريف المتعلَّق المنتج للضلال البعيد. وكل من لم يرجع في أموره إلى الله، فقد ضل ضلالا بعيدا؛ بسبب أنه لا متعلق للأمور في الحقيقة إلا الله، وكل الطواغيت عدم. ولا أضل ممن يتعلق بالعدم الذي هو الباطل.

- ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ النساء: ١١٩: "لأضلنهم": الإضلال هو أخذهم بعيدا عن الحق في الأمور؛ "ولأمنينهم": يغرهم بالأماني؛ فتجد المرء على المعصية مقيما، وهو مطمئن، لا يخاف عاقبة أمره، ولا يربط سببا بمسببه. "ولآمرنهم": يوحي إليهم فلا يستطيعون رد وحيه لما بهم من اتباع للأهواء؛ "فليبتكن آذان الأنعام": وهو تشقيقها من أجل التمييز بينها. "ولآمرنهم فليغيرن خلق الله": قالوا في التفاسير أنه الوشم والنمص وما كان في معناهما؛ غير أن التغيير في زماننا صار أوضح فيما يعود إلى ما يسمى "الجراحة التجميلية"، التي قد تغير ملامح الوجه والجسد تغييرا كبيرا. وختام الآية يفيد أن من يفعل ذلك عن أمر شيطاني، فقد اتخذ الشيطان وليا من دون الله. ومن يفعل هذا، فلا أشد منه خسرانا؛ بما أن الأمور كلها ترجع إليه سبحانه. وهذا الصنف يكون من أولياء الشيطان، وهي مرتبة أحط من مرتبة تابعيه.

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ المائدة: ٩٠ :

ـ الخمر: هي نظير الخمر الإلهية التي وعد الله عباده في الجنة؛ فهي مفنية، يغيب معها المخمور عن شهود السوى. وهو –لعنه الله– يريد أن يجعل من يطيعه بشربها في الدنيا، كمن يشتغل بالنتائج وقت تهييء الأسباب. فيفسد عليه الترتيب، ويجعله غير محصل لشيء.

وأصحاب الخمر في الظاهر معروفون، تذهب عقولهم بها، فيصبحون عُرضة لتلاعب الشيطان بسهولة؛ أما أصحاب الخمر في الطريق، فهم الناطقون بالحقائق من غير إذن، الفاتنون للناس عن دينهم.

ـ الميسر: هو القمار بجميع أنواعه. ومنه هذه "المسابقات" التي انتشرت في عصرنا عبر الفضائيات وغيرها. وعلى كل حال، كل عمل ظاهر أو باطن يُنظر فيه إلى الاحتمالات من أجل تحقيق الأغراض، ولا يُرجع فيه إلى الله، فهو ميسر. ولا يخفى عن ذي بصيرة ما فيه من الشرك.

ـ الأنصاب: هي ما كان يُذبح عليه القرابين عند المشركين. هذا الأصل. أما صورها فكثيرة؛ وهي كل ما يُتقرب به إلى غير الله. ومنها التزلف للظالمين، والتواضع للأغنياء، وغير ذلك مما يوهم بنيل أغراض النفوس. وذلك أن الشيطان لا يقبل إلا أن يُذبح شيء على كل نصب. فمن الناس من يذبح دينه، ومنهم من يذبح مروءته، ومنهم من يذبح عفته، وهكذا...

ـ الأزلام: هي ما كان يُستقسم به في الجاهلية. ويدخل فيها اليوم كل ما يرجع إليه في الأمور من دون الحق، كالقراءات الفلكية والتنبؤات وغيرها.

ولا يخفى ما في كل هذه الأعمال من شرك جلي. لذلك عدها الله من رجس الشيطان الذي هو الشر المنسوب إليه؛ وأمر سبحانه عباده باجتنابها. فالنهي هنا نهي تحريم.

ومراد الشيطان من وراء هذه الأعمال، صرف الناس عن ذكر الله وعن الصلاة التي هي وسيلة هذا الذكر، كما نبه الله إلى هذا في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ المائدة: ٩١. فالخمر والميسر وغيرها من أعمال الشيطان، هي بالنسبة إليه في مقابل العبادات المشروعة لعباد الله الصالحين. فهذه هي شعائره؛ إذا رأيتها فاعلم أن الحضرة حضرته.

– ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ النحل: ٩٨: أمر الله بالاستعاذة به من الشيطان الرجيم عند الشروع في العبادات ومنها قراءة القرآن، حتى ينقطع مدده فيها.

فالقارئ إذا لم يستعذ بالله، فإنه يلقي إليه في أثناء قراءته فهوما مخالفة للحق. فإذا أخذها المرء منه وقبلها فإنه يضل بها عن سواء السبيل. من هنا تعلم أن كل الفرق الضالة التي تظن أنها تنطلق في عقائدها من القرآن الكريم، إنما هي تأخذ فهمها فيه من الشيطان؛ سواء أعلمت ذلك أم لم تعلمه. وقد يشعر كل الناس بأن فهما ما من إلقاء إبليس، إلا المُلقى إليه إذا استقر في قلبه.

والاستعاذة المقصودة هنا، ليست هي النطق بها فحسب؛ ولكنها صدق اللجوء إلى الله الذي يُترجم عنه اللسان بنطق الألفاظ المعلومة. وهذا لأن لكل عمل شرعي صورة وروح؛ والناس يحافظون على الصورة، ولكنهم قليلا ما يعتنون بالروح. فمن هنا يدخلهم الخلل ويصيرون عرضة للشيطان.

وفيما ذكره الله من قصة إبليس عند امتناعه عن السجود، ما يبرز كثيرا من خصائصه وأدواته. فيقول الله تعالى:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ الإسراء: ٦١: إبليس امتنع عن السجود استكبارا. ومن هنا كان الكبر الصفة الجامعة لحزب الشيطان. وهم يرون أنفسهم خيرا من سائر العباد؛ ويرون ما يستحوذون عليه من أموال الناس حقا لهم. بمعنى أن الأمر من منظورهم مختلف تماما عما يراه غيرهم؛ لذلك تجدهم يتمادون والناس حولهم متعجبون. وإذا شئت أن تنظر إلى هذه الصفة، فانظرها عند بعض أهل السلطان، وعند من يأكلون أموال الناس بالباطل كالمرتشين وسارقي المال العام.

- ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء: ٦٢: لما علم الشيطان بعد الامتحان، أنه حيل بينه وبين معرفة الحقيقة الآدمية،

عرف أن المراد منه غير المراد من الملائكة الذين سجدوا؛ وعرف أنه مُعدّ لوظيفة خاصة تقوم على عداوة آدم وذريته. فانبرى لها مستعدا لما يراد منه لا لما يؤمر به. وأصل هذا التكليف الشيطاني الباطن، هو الغيرة الإلهية التي أبت أن لا يدخل حماها إلا المُخلصون من الآدميين. لذلك لما تعهد بالاستيلاء على الذرية الآدمية (الذي هو معنى الاحتناك)، استثنى القليل منهم. فهو –لعنه الله– على علم يقتضيه مقامه بخلاف ما يظنه فيه الناس من الجهل التام. أما الجهل الذي عنده، والذي لا يعلمه إلا الخواص، فهو بما وقع فيه من المعصية الأولى، وبوجه التلبيس الذي كان محلا له؛ فإن هذا من وراء علمه.

- ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ الإسراء: ٦٣: هنا أخذ اللعين الإذن بالتصرف في منصبه، فكان بمثابة التنصيب في الوظيفة. وقول الله له: "فمن تبعك منهم"، من الغيرة الإلهية. يعني أن العبد الذي لا يكون متعلقا بجنابي إلى الحد الذي لا يلتفت إليك أو لغيرك، فأنا لا أريده. لذلك جاء بعده "فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا": أي البعد لك ولهم. فهو (أي البعد) حقيقة جهنم، وما هي إلا مظهر له.

- ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ الإسراء: ٦٤: قوله سبحانه: "واستفزز من استطعت منهم" عناية بعباد الله المخلصين، فهم المعتبرون وحدهم عند الله، وهم الذين لن يستطيع إبليس أن يظفر منهم بشيء. أما غيرهم، فكأنه يقول تعالى له عنهم: خذهم فأنا لا أعبأ بهم. وأما قوله سبحانه: "بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم": فهو للإمداد الخاص به –لعنه الله– حتى يتمكن من إنجاز مهمته. فإياك أن تظن أن إبليس يضل الناس بقوته هو فتكون من المشركين. واعلم أن مدده إلهي يُضل الله

به من يشاء من عباده. ولولا أن الكلام سيأخذنا بعيدا عن مقصد الكتاب، لتكلمنا بمزيد تفصيل في هذا. فالصوت المؤيد به اللعين، هو الوسوسة التي يبلغ بها إلى قلوب الناس؛ والخيل قيل إنهم شياطين الإنس لأنهم أقوى جنوده، والرَّجْل هم شياطين الجن. أما المشاركة في الأموال والأولاد، فحتى يكون له نصيب فيهم به يدعوهم فيستجيبون؛ وإذا أرادوا قطع مدده عنهم لا يستطيعون بسبب التداخل الحاصل بينه وبينهم. وهذا أتم صورة في الاتصال. كما أنه بمشاركته لهم في الأولاد تستمر سلالة شياطين الإنس.

يظهر من هذه الآية الكريمة أنه –لعنه الله– مسلط على الناس بواسطة جنوده وبغير واسطة.

- ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ الإسراء: ٦٥: هنا يكلمه الله عن القلة المستثناة من قوله فيما قبل. "إن عبادي" أي عبادي حقيقة، لمّا حُجب غيرهم عن معنى العبودية. وإضافتهم إليه سبحانه، تفيد العناية الخاصة التي تجعلهم في حمى الله لا يستطيع مخلوق أن يصيبهم بأذى، شيطان أو غيره. لذلك أتبع سبحانه بقوله: "ليس لك عليهم سلطان": لأنهم عندي وفي كفالتي. وهذا بعينه هو معنى الولاية. فالله هو وكيلهم.

إذا علمت ما أوتي إبليس من مدد خاص، ومن علم خاص، فاعلم أنه من أخبر الخلق بالنفوس؛ يعلم مواطن ضعفها وقوتها، ويعلم كيف يستولي عليها وبأي وسيلة. فيتجلى للجاهل في جهله، وللعالم في علمه، وللعابد في عبادته، ولأصحاب السلوك في سلوكهم...فلا عاصم منه إلا ربه رب العالمين.

وإن كنت ممن يريد أن ينجو من كيده، ويستفيد من إلقائه ومكره من غير أن يشعُر، فعليك أن تكون مع شيخ رباني قائم بالله، يسخّره لك تركبه في طريقك إلى ربك كرامة منه. وصدّق

ربك فيما أخبرك عن عباده المنسوبين إليه؛ فإنه ما أخبرك إلا ليدلك عليهم، فتكون معهم ثم تكون منهم؛ إن كانت لك قسمة.

خاتمة

لقد سرنا في هذا الكتاب، من محيط التصوف إلى مركزه، وجلنا بك في بعض دروبه وأزقته؛ نرمي بذلك أن تستبينه ولو قليلا، وتميز صحيحه من سقيمه بما لا يُبقي لديك شكا فيه.

واعلم أن التجديد الذي دعا إليه شرعنا، وتطلّبه صحيح العلم والفهم منا، لا يقوم في زماننا إلا على تجديد إيماني للفرد وللجماعة، تعود معه الأمة إلى ربها. ولن يتأتى هذا إلا إن هي عرفت الفضل للربانيين، فتُقدّمهم وتأتم بهم في الطريق إلى الله، كلٌّ بحسب ما يُطيق منهم وبحسب القسمة الأزلية التي له.

نريد في البداية، أن يعلم الناس الأصل الشرعي للتصوف الذي ما هو إلا التزكية المذكورة في كتاب الله، المنصوص عليها في السنة.

إن لم يكن التصوف من الكتاب والسنة، وإليهما؛ فنحن أول الكافرين به. لكن في مقابل ذلك، لا نرضى لإخواننا الشرك ومظاهره، والحجاب ومراتبه، وبعد ذلك ننسب ما نحن فيه من مجانبة الصواب إلى الكتاب والسنة؛ ولا ننسب ذلك إلى فهمنا الكليل وإدراكنا القليل. لا نرضى أن يُتّخذ الكتاب والسنة مطيتين لأهل الأهواء وأصحاب الأغراض؛ فإنهما أجل من ذلك عند من له أدنى حظ من الإيمان.

فيا أيها الناس، إن لم تُعجبكم تسمية التزكية بالتصوف، فانزعوها عنها؛ رغم أنها ليست إلا تسمية من جملة عدة تسميات. لكن، لن نقبل من أحد أن يُجرد الدين عن عمقه، أو ينسب إليه ما هو من صفاته (صفات المتدين)، من قصور ونقص وسطحية وغلظة وغيرها؛ مما أصبح السكوت عنه من أكبر المنكرات.

وإن تعريضنا بالفقهاء (جلهم لا كلهم) في الكتاب، إنما هو من محبتنا فيهم، والضن بهم أن يكونوا معاول هدم للدين (بالمعنى الشامل) عوض أن يكونوا من حماته. فهم إن لم تكن لهم قدم في العلوم الخاصة التي نبهنا إليها، فإنا ندعوهم -على الأقل- أن لا يُنكروها فيُنبئوا عن جهلهم من حيث ما هم حريصون على الاتصاف بالعلم؛ وندعوهم أن لا يُحاربوا أهلها (بصفة مباشرة أو غير مباشرة) حتى لا يبوؤوا بإثمهم وإثم الأمة من بعدهم، فتسوء عاقبتهم؛ فإنه لا طاقة لأحد بحمل ما سيحملونه من أوزار وقتئذ.

بل نُهيب بفقهائنا، أن يزيدوا في نورهم، ويتحصنوا من الشيطان في علمهم وفي أعمالهم بالانضمام إلى الربانيين، يأخذون عنهم ما ينقصهم من العلم؛ ويستنيرون بنورهم فيما هم مقبلون عليه من الفهم. فتواضعهم لهم لن يزيدهم به الله إلا رفعة؛ وتكثيرهم لسوادهم، لن يزدادوا به إلا عزة. فهل من فقيه مبتغ لوجه الله؟!

أما دعوتنا لإخواننا المسلمين عموما، فهي أن نعمل بصدق للخروج من هذه المهاوي التي ما علمنا أن أحدا ممن مضوا نزل فيها. فبعد ذهاب الدين، لقد ذهب العقل؛ إلا عند قلة صابرة قابضة على دينها كالقابض على الجمر. إن جميعكم يعلم أن التعاون على البر والتقوى يرضي الرب ويجلب الرحمات. فهلا اجتماع على دين الله لله؟!

وأما إخوتنا في الإنسانية، فإنا نريد أن ننبههم أن يتعرفوا على الدين في صورته النبوية الكاملة، وأن يلتمسوه عند الله لا عند العباد. فإن كل واحد ما يدلهم إلا على حاله ومقامه، ما لم يكن ربانيا. وليعلموا أنه ما من تراتبية (كالإكليروس) عندنا في الإسلام حتى يتقيدوا بنا. ولينطلقوا إلى الله بصدق دون أن يلتفتوا إلينا؛ فلعل أن يأتي منهم بصدقهم ما لم يأت منا. وقد قال الله العزيز الحكيم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ

أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة: ٥٤. فالفضل لله، لا يرتبط بقوم ولا جنس ولا لون. كل الناس مؤهل –بالقوة– أن يكون من أهله؛ فليعمل أن يكون كذلك بالفعل. والله أكرم أن يرد عبدا صدق في اللجوء إليه!

ختاما، نرجو من الجميع أن يأخذوا كلامنا بحسن الظن، فإنا لا نزعم أفضلية لنا على الناس، وما نحن رقباء عليهم؛ ولا نحب أن ننتقص من أقدارهم، بل نحبهم ونحب لهم كل الخير. فإن أحسنّا التعبير عما نريد لهم فهو ذاك؛ وإلا فلا يحجبهم عن طلب الحق ما يرونه منا. فإن الحق لا يتقيد بأحد، وليس أحد شرطا في الوصول إليه إلا سيد الخلق وهاديهم، رسول الله محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

فاللهم صل على حبيبك مظهر حبك ومحبوبيتك سيدنا محمد المحمود بك من الحق والخلق على السواء؛ وعلى آله محل عنايته والمشمولين برعايته في كل الآناء؛ وصحابته من اخترتهم له خدما وجلساء؛ وعلى كل من أحبه واتبعه من الأجلة أو من الحقراء ولا حقراء. وسلم اللهم تسليما كثيرا طيبا كما يليق بك منك إليه من غير أن تُنقص نسبتنا من ذلك شيئا يا رب كل النعم والآلاء. والحمد لله رب العالمين بكل لسان من كل المراتب بجميع الأسماء.

المحتويات